

الفرق بين
جبه

تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصائغ

انتشارات فقه هند اسلام



مرکز تحقیقات کتاب و تاریخ علوم اسلامی

الفهرست

۷



مرکز تحقیقات کتاب و ترویج علوم اسلامی

الفرقان فی تفسیر القرآن	الكتاب
الشيخ محمد الصادق	المؤلف
الاولی	الطبعة
مطبعة اسماعیلیان	المطبعة
۱۴۱۰ هـ - ق	التاریخ
انتشارات فرهنگ اسلامی - تهران	الناشر
تلفن: تهران ۸۴۰۰۶۲۰۰ قم ۲۴۴۲۵	
۱۰۰۰ نسخه	عدد المطبوع
۲۲۰۰ ریالا	الثمن

سماعة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفروق

في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة

المجلد ٧

سورة الانعام مكية



مرکز تحقیق تکاپویر علوم اسلامی





مرکز تحقیقات کاپیویر علوم اسلامی





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمُّ أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَايُنِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ

قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۚ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصَرَفُ
 الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنِ أَنْتُمْ
 عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾
 وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ فَمَنْ ءَامَنَ
 وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ
 كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا
 فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (٣٨):

آية قصيرة - فوق تقريرها الحاسم في حقيقة الحياة والأحياء - وهي في
 نفس الوقت قصيرة لا مثيلة لها في سائر القرآن فيما تحمل من أهمية
 الدواب والطير وحشرها إلى ربها يوم الحشر ، اللهم إلا آية التكويد حيث
 تحمل حشر الوحوش : « وإذا الوحوش حشرت » (٥: ٨١) فقد تعني مع
 حشرها الخاص يوم الرجعة حشرها مع سائر الدواب ، فلا تختص - إذا -
 بالحيوان العام ^(١) .

ولكن هنا « ما من دابة . . » تستغرق كافة ذوي الأرواح العائشة في
 الأرض ، وذوي الجناح الطائرة فوق الأرض ، والأرض هنا هي أرض الحياة
 دون اختصاص بهذه ، فعلها الأرضون السبع ، أم وأعم منها حيث الدواب
 ماثلة في السماء كما في آية الشورى : « ومن آياته خلق السماوات والأرض
 وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » (٢٩) والدابة كل

(١) : راجع ج ٣٠: ١٤٣ تجد قولاً فصلاً عن حشر الوحوش .

متحركة من حيوان في مثلثها برأً وبحراً وجوًّا^(١).

ثم و « في الأرض » دون « عليها » تعم الدواب تحت الأرضية إلى ما فوق الأرضية فان « في » تجعل الأرض كلها ظاهرة وباطنة ظرفاً للدواب .

فقد تشمل أيضاً ما تدب على الماء كحيوان البحر ، حيث تعني « دابة » وجاه « طائر » كل ذي حياة وغير طائر ، فالحي بين دب وطيран لا ثالث لهما ، فهما يحلقان على كل ذي حياة شعورية .

كما و « لا طائر يطير بجناحيه » تعم أي طائر في أي جو دون اختصاص بجو الأرض ، وقد يشمل « طائر » الطائر في الماء كما الهواء ، كما تشمل « دابة » ما تدب في الماء كالأرض ، فالدابة والطائر - إذا - يشملان كافة ذوي الأرواح دون إبقاء ، فالملائكة داخلية في طائر ، وسائر ذوي الأرواح في « دابة » .

وأما « بجناحيه » فقد تعني أقل ما يحتاجه الطير إلى جناح وهو جناحان ، فهما داخلان في أجنحة حيث كانت لبعض الطير ، فطائر الماء والهواء لا يطير - كأقل تقدير - إلا بجناحيه .

أم وتعني ما يطير من الطير دون ما لا يطير كالديجاجة وما أشبه فإنه طائر له جناحان ولكنه لا يطير - كأصل - بجناحيه ، فهو من الدواب .

وكما تعني الدابة وجاه الطائر كلما لا يطير مهما سبح في الماء أم دب على أرض ، كذلك تعني كل ذوات الحياة حين تُفرد بالذكر كـ « ما من دابة

(١) فالدابة في المصباح « كل حيوان في الأرض دابة » وخالف فيه بعضهم فأخرج الطير من الدواب ورد بالسماع وهو قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء » أي كل حيوان ، وأما تخصيص الفرس والبغل بالدابة فعرف طارياً ، والدب هو الحركة اللينة الخفيفة أو كل حركة المعبر عنها بالفارسية بـ « جنيدن » .

في الأرض إلا على الله رزقها» (١١: ٦) «وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم» (١١: ٥٦) «والله يسبح ما في السماوات والأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون» (١٦: ٤٩) «ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة» (١٦: ٦١) «والله خلق كل دابة من ماء» (٢٤: ٤٥) «وكأئن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم» (٢٩: ٦٠) «وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة» (٣١: ١٠) «ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة . .» (٤٢: ٢٩) «وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون» (٤٥: ٤) «إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون» (٨: ٢٢) «ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب . .» (٢٢: ١٨) ، فلا تختص الدابة بما يدب على أرض بل هي كل ما يدب على ما يَدْبُ عليه من أرض أو ماء أو هواء ، فإذا قورنت بالطير اختصت بغير الطير .

وتلك الشمولية متأيدة بأن ذوات الأرواح كلها - بل وغيرها - عارفة ربها ، شاعرة ما يتوجب عليها : «ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون» (٢٤: ٤١) .

إذا فالآية تشمل كل حيوان ، فالإنسان والجان كما هما مشمولان له «دابة» كذلك تشملها «أمثالكم» مع سائر المكلفين العقلاء كالإنس والجان ، اللامحة لهم آية الشورى .

ثم تتأيد هذه الشمولية مرة أخرى بـ «ما فرطنا في الكتاب من شيء» فإنه كأصل يعني كتاب التكوين مهما شمل - أيضاً - كتاب التشريع ، وعدم الشمولية في حقل الحيوان الأممية والحشر - كعدمها لخلق كل ما بالإمكان

خلقه من حيوان - إنه تفريط في الكتاب .

كما تتأيد ثالثة به ثم إلى ربهم يحشرون « حيث إن واجب الحشر هو قضية التكليف الذي هو قضية الشعور ، وليس من عدل الله سبحانه ألا يحشر ذا روح له ما لسائر ذوي الأرواح من شعور واختيار مهما كانا درجات كما بين الانس والجان وسائر الحيوان درجات .

« ... إلا أمم أمثالكم ... » والمماثلة هنا في كونها أمماً كما أن سائر المكلفين أمم ، وكما تعني المماثلة في الحيوية الحيوانية في سائر سؤلها ، كذلك وفي كونها جمعية الحياة دون فرديتها ، كما قد يخيّل إلى متخيلين أن الإنسان هو - فقط - مدني بالطبع .

ذلك ، كما وأن آيات النمل والهدد ودابة من الأرض تكلمهم والنحل وما أشبه ، التي تُنبّهنا بطرف من حياتها وحيوياتها ، تشهد بأنها « أمم أمثالكم » ، وطالما يفحص العلم - على تقدمه البارغ - عن حياة مختلف الحيوان ، ما يحق أن يفرد - وكما أفرد - لكل كتاب فذ ، ولمّا يصل إلى الواقع الحيواني لحياتها المادية ، فهي أمم أمثالكم وفي القضايا الروحية ، فقد لمحت هذه الآية إلى مئات ومئات من أسرار حياة الحيوان .

حقيقة هائلة تستطيع التحليق على ما ناله العلم وما لم ينله أم لن ينله ، ومتى ذكرت ؟ حين لم يكن لهم علم بالإنسان فضلاً عن سائر الحيوان .

حقيقة تجمع كافة صنوف الحيوان في أممها ، لها سماتها وخصائصها وتنظيماتها ، كذلك وهي الحقيقة التي تتسع مساحة رؤيتها وهندسة عمارتها كلما تقدم العلم بركبه السريع .

ومن كونها امثالنا - كأبرزه - مماثلة التكليف والجزاء في اصلها ، مهما

١٤ الجزء السابع

اختلف تكليف ذوي العقول عن ذوي الشعور ، كما وان تكاليف ذوي العقول درجات حسب درجات العقول مهما كانت الطقوس التكليفية على نسق واحد ، فقد لا تعني « امثالكم » المماثلة المعلومة الضرورية ، بل والمماثلة غير الظاهرة ، ينبهنا الله تعالى بها بصورة اجمالية يكتفى بها في الخروج عن المعروف الظاهر إلى غير المعروف لنعرف ان المسؤولية عامة فالحشر - إذا - عام .

ومن المشابهة الظاهرة أنه ما من انسان إلا وفيه شبهة من الحيوان، فمنهم من يقدم لإقدام الأسد ، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس طوس الطاووس، ومنهم من يشبه الخنزير، فإنه إن القي اليه طيب الطعام تركه إلى خبيثه وإذا قام الرجل عن رجيعة ولغ فيه ، فكذلك نجد من الآدميين ألواناً وألواناً .

فليست العقلية الإنسانية - فقط - هي محور المسؤولية أمام الله ، مهما كانت هي أهم المحاور، بل والعقلية الحيوانية - مهما سميناهما بالشعور - هي أيضاً من محاور المسؤولية مهما كانت درجات حسب الدرجات .

وأما « ما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (١٧: ١٥) و « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون » (٦: ١٣١) فلا تعني طليق العذاب ، بل هو عذاب الإهلاك الاستتصال ، فلا تنفي العذاب في تخلفات فطرية أو عقلية ، حتى تنفي تخلفات شعورية للدواب المنحشورة للحساب والجزاء .

« ما فرطنا في الكتاب من شيء » وتري ما هو الكتاب هنا ؟ إنه يعم كل كتاب رباني من تكوين وتشريع ، فكتاب التكوين يحمل كمال الكائنات أياً كان ، فكائن الحيوان لا بد له من معرفة مسؤولية كما الإنسان ، ثم لا بد له من حشر كما للإنسان مهما اختلفت مسؤولية عن مسؤولية وحشر عن حشر .

فكتاب العدل والرحمة الربانية يقتضي أممية الحيوان كما نحن أمم ،
ويقتضي مسؤوليتها بما هي مختارة كما نحن مسئولون ، وأخيراً - وليس
آخرأ - يقتضي حشرها كما نحشر .

و « الكتاب » - بطلاق تعبيره في جنسه الشامل لكافة الكتابات الربانية -
يشمل كأكمل شمول القرآن العظيم ، فإنه بيان للكتابين كما يمكن دون
إفراط فيه ولا تفريط، وكما أن رسول القرآن شهيد الشهداء كذلك قرآنه
المبين وتبيناته المتين المكين : « ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من
أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء »
وهدي ورحمة وبشرى للمسلمين « (١٦ : ٨٩) .

ثم كما أن قضية عدم التفريط في كتاب التكوين كون الحيوان أمماً
أمثالنا ، كذلك حشرها كحشرنا هو قضية كتاب العدل والرحمة فقد « كتب
على نفسه الرحمة » وهي تعم كل من يستحقها .

ذلك ، فكتاب التشريع غير مفرط فيه وارداً وموروداً وحدوداً وجزاءً
وفاقاً، محلقاً على كتاب التكوين والتشريع تبياناً لكل شيء من تكوين
وتشريع ، فلأنه « ما فرطنا في الكتاب من شيء » فكافة الحيوانات أمم
أمثالكم ، « ثم إلى ربهم يحشرون » كما أنتم تحشرون ، فقد « يُقتص
للجماء من القرآن » (١) .

هنا وهناك آيات هي أضراب في الحيلة القرآنية على كل شيء ، هي
مع « ما فرطنا في الكتاب من شيء » وآية النحل « تبياناً لكل شيء » وأخرى
من الأنعام « ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » .

و « كل شيء » المستفادة من الآيات الثلاث هي كل شيء تحتاج إليه

(١) تفسير الفخر الرازي ١٢ : ٢١٤ كما روى عن النبي (ص) انه قال : ...

١٦ الجزء السابع

الأمم الرسالية كأصول من سؤلهم ، ثم الفروع تتبناها حيث تنفزع عليها ، ولا سيما بضم السنة إلى القرآن فإنها كما القرآن وحي من الرحيم الرحمان^(١) « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

وقد تلمح « من » في « من شيء » إلى استغراق « الكتاب » كل شيء بأبعاضها ، دون أن يكمل شيء وتهمل أبعاض منه ، مهما كان بياناً كضابطة تشمل كل شيء من كل شيء .

وفي رجعة أخرى إلى الآية نقول :

هنا « أمم أمثالكم » لا بد أن تحمل مثل الإنسانية في اختصاصات إنسانية مزعومة ، حيث الممثل يحمل من الممثل به خواصاً من خصوصياته ، دون المشتركات المعروفة كاختصاصات الحيوانية العامة ، أو المختصات الثابتة ككون الانسان مخلوقاً في أحسن تقويم من حيث القابلية ، وأنه يتدرج في الكمال ما لا يتدرجه أي حيوان ، فمما كان يزعم من خاصة إنسانية له أنه مدني بالطبع ، فكذلك - كما هنا - لكل حيوان ! مهما اختلفت مدنية عن مدنية .

ومنه أن الانسان مسؤول مكلف بعقليته ، فكذلك كل حيوان بشعوره ، كل كما يعقل أو يشعر ، ومنه حشر الإنسان للحساب وتحقيق العدل والفضل الرباني غير المتحقق منه في حياة التكليف ، فكذلك كل حيوان .

فهذه الزوايا الثلاث من هندسة الكيان الانساني مشارك فيها بين وسائر الحيوان مهما اختلفت الدرجات وكما تختلف درجات الإنسان في ذوي نوعه .

ذلك وقد أمرنا بالتدبر في كيان سائر الحيوان كما الإنسان : « وفي

(١) راجع لمعرفة التفصيل له تبياناً لكل شيء « تفسير آية النحل في ج ١٤ : ٤٤٨ -

سورة الأنعام / آية ٣٨ ١٧

خلقكم وما يبيث من دابة آيات لقوم يوقنون » (٤٥: ٤).

كما ونتلمح من تذكرات قرآنية حول النحل والهدد والنمل أن لها إدراكات هي في بعضها أدرك منا وأشمل ، وإن لم تدل على شمولية هذه القيمة المعرفية لكل دابة .

وهنا أسئلة تطرح حول حياة الحيوان في النشاطين :

١ - هل للأمم الحيوانية رسل كما للأمم الإنسان رسل حتى تكلف بما يقتضي حشرها ؟ .

والجواب أنها قد لا تحتاج إلى رسل حيث « كل قد علم صلاته وتسبيحها » (٢٤: ٤١).

ثم « إن من أمة إلا خلا فيها نذير » (٢٤: ٣٥) « ولكل أمة رسول » (٤٧: ١٠) قد تشمل أمم الحيوان إلى أمة الإنس والجان ، إضافة إلى أن رسالة النذارة ونذارة الرسالة في المتخلفين هي من أهم المماثلات بين أمة الإنسان وسائر الحيوان^(١).

٢ - هل ان حشر الحيوان كحشر الانسان أن مصيره إلى جنة أو نار ؟ .
والجواب أن حشر الحيوان ليس إلا حسب مسؤوليته ، كما أن حشر الانسان مقدر بقدره ، ولا دلالة ولا لمحة في القرآن والسنة إلى ثواب الجنة أو عقاب النار للحيوان ، والأثر المروي يقول إن الحيوان تشاب أو

(١) قد يستفاد العموم من آيات الأمة في النذارة كـ « ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » (١٨١: ٧) « ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط » (٤٧: ١٠) « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وأن من أمة إلا خلا فيها نذير » (٢٤: ٣٥) فطليق الأمة في هذه الآيات مما يقوى ساعد النذارة العامة في كل دابة وطير كما وان قصة النملة والهدد ودابة الأرض تكلمهم مما يشهد لذلك ، واما « كل يعلم صلاته وتسبيحه » فلا تدل على استثناءها عن نذير فإن كثيراً من العصاة يعلمون تكاليفهم ويتركونها فالكمل بحاجة إلى نذر .

تعاقب فور حشرها ثم تفتى ، اللهم إلا بعض الحيوان حيث تحشر إلى الجنة (١) .

٣ - كيف يحاسب الحيوان وهي قضية التخلف عن التكليف ولا تكليف للحيوان ؟ .

والجواب ان تكليف الحيوان ليس كالإنسان ، إنما هو قدر شعوره بالواجب والمحرم على حده .

ومصَّبُ المسائلة والإثابة في الحيوان هو الظلم فاعلاً ومفعولاً ، فالحيوان الظالم يعاقب كما ظلم ، والحيوان المظلوم يثاب كما ظلم ، سواء أكان ظالماً الإنسان أو الحيوان كما الحال في مظلومه (٢) .

(١) نور الثقلين ١: ٧١٥ عن الفقيه قال الصادق (ع) أي بعير حج عليه ثلاث سنين جعل من نعيم الجنة ، وفيه عن ثواب الأعمال عن الصادق (ع) قال: قال علي بن الحسين عليهما السلام لابنه محمد حين حضرته الوفاة اني قد حججت على ناقتي هذه عشرين حجة فلم اقرعها بسوط قرعة فإذا توفت فادفنها لا تأكل لحمها السباع فان رسول الله (ص) قال : ما من بعير يوقف موقف عرفة سبع حجج إلا جعله الله من نعم الجنة وبارك في نسله فلما توفت حفر لها أبو جعفر عليهما السلام ودفنها .

(٢) الدر المنثور ٣: ١١ - أخرج ابن جرير عن أبي ذر قال انتطحت شاتان عند النبي (ص) فقال لي يا أبا ذر اتدري فيما انتطحتا؟ قلت لا قال لكن الله يدري وسيقضي بينهما ، قال أبو ذر لقد تركنا رسول الله (ص) وما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً ، وفيه عن عبد الله بن زياد البكري قال دخلت على ابني بشر الأزدني صاحبي رسول الله (ص) فقلت يرحمكما الله الرجل يركب منا الدابة يضربها بالسوط أو يكبحها باللجام فهل سمعتما من رسول الله (ص) في ذلك شيئاً فقالا : لا قال عبد الله فنادتني امرأة من الداخل فقالت : يا هذا إن الله يقول في كتابه « وما من دابة . . . » فقالا هذه اختنا وهي اكبر منا وقد ادركت رسول الله (ص) .

وفي تفسير الفخر الرازي ١٢: ٢١٣ روي عن النبي (ص) انه قال : من قتل عصفوراً =

فيومئذ يرد الله كل شيء إلى شيئه قضية عدل الله ورحمته جزاء من ربك عطاء حساباً أو عذاباً وفاقاً^(١) .

أو كيف يُترك الحيوان ظالماً ومظلوماً فلا يجزى في الحشر كما لم يجز هنا ، وهي أضعف من الإنسان فأحرى بالرحمة !؟ .

فالحيوان كما الإنسان تحشر إثابة بالصالحة من أعمالها وعقوبة على الطالحة منها ، وجزاء بما دُبِحت ما تذبح ، فكما الله واعد الشهداء في سبيله رحمته يوم الأخرى ، فكذلك قضية « رحمتي وسعت كل شيء » أن البهائم التي سمح لنا أن نذبحها حفاظاً على الحيوية الإنسانية التي هي أهم

= عبثاً جاء يوم القيامة يعج الى الله يقول يا رب إن هذا قتلني عبثاً لم ينتفع بي ولم يدعني أكل من حشاش الأرض » .

وفي نور الثقلين ١: ٧١٥ فيمن لا يحضره الفقيه روى السكوني بإسناده إلى النبي (ص) أبصر ناقة معقولة وعليها جهازها فقال : أين صاحبها مروه فليستعد غداً للمخومة » .

وفيه عن تفسير القمي عن أبي الحسن الرضا (ع) انه قال قد اعطى بلعم بن باعور الاسم الأعظم وكان يدعو به فيستجيب له فمال إلى فرعون فلما فرعون في طلب موسى وأصحابه قال فرعون لبلعم : ادع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا فركب حمارته ليمر في طلب موسى فامتنعت عليه حمارته فأقبل يضربها فانطقها الله عز وجل فقالت : ويلك على ماذا تضربني أتريد ان اجي ، معك لتدعو على نبي الله وقوم مؤمنين فلم يزل يضربها حتى قتلها وانسلخ الإسم من لسانه . . فقال الرضا (ع) فلا يدخل الجنة من البهائم إلا ثلاث : حمارة بلعم وكلب أصحاب الكهف والذئب . . . » اقول : الحصر نسبي جمعاً بينه وبين سائر الأحاديث .

(١) نور الثقلين ١: ٧١٥ في أصول الكافي الكلبي النسابة قال قلت لجعفر بن محمد عليهما السلام ما تقول في المسح على الخفين ؟ فتبسم ثم قال : إذا كان يوم القيامة ورد الله كل شيء إلى شيئه ورد الجلد إلى الغنم فتري أصحاب المسح - أي على الخفين - أين يذهب وضوءهم » .

منها ، لا بد أن تثاب يوم الأخرى .

كما الإنسان الذي ظلم حيواناً قتلاً أو ضرباً أو إجاعة أو تحميلاً عليه
فوق طاقته ، لا بد أن يقتص منه يوم القصاص ، ويقتص للحيوان قدر
ظلمه .

وهكذا الحيوان الذي ظلم حيواناً أو إنساناً ، فأي ظلم من أي ظالم
بحق أي مظلوم لا بد له من قصاص ، كما أن كل عدل أو فضل لا بد له
من مثوبة .

٤ - كيف يجازى الحيوان ثواباً وعقاباً وليست لها خيرة أم هي فيها
ضعيفة لا يعبأ بها ؟ .

والجواب هو ظاهرة الاختيار مهما كان - على حد هذا القيل - ضعيفاً ،
فالحساب أيضاً ليس إلا حسب الاختيار في الأعمال قوة وضعفاً ولا يُظلمون
فتيلاً .

ذلك ، وفي « ثم إلى ربهم يحشرون » قضية ضمير الجمع العاقل ،
لمحة إلى عقلية ما في الحيوان هي مصب مسؤولية ما فحشر جزاء ما ،
كل قدر عقليته وخيرته .

وإذا كانت الدواب والطيور تحت وطأة المسؤولية فكيف ترى الإنسان
بكامل عقليته وإختياره ، وشامل الرسالة الربانية فطرية وعقلية ورسالية ! .

ذلك ، ومن عجيب التفسير لـ « إلى ربهم يحشرون » هو موت الدواب
دون بعث ، فهل يصح « إلى ربهم يموتون » ؟ ثم الحشر لا يعني إلا
الجمع والجمع إلى الرب هو الجمع يوم الجمع إلى ربوبية جزاءه ، فكيف
يفسر بالموت !؟ .

وحصيلة البحث الفحص حول الآية أن : الأمم الحية هي أمثال مهما
اختلفت القابليات والفاعليات ، ومن مماثلاتها أن التكليف يعمها مهما

سورة الأنعام / آية ٣٨ ٢١

اختلفت درجاته حسب المعطيات ، مهما كان قبيل الإنسان في أعلى القيم والقمم في كتابي التكوين والتشريع .

والنتيجة القاطعة عموم الحشر إلى ربهم ليلاقوا ربوبية الجزاء بعد ربوبية التكليف ، إذ لو لم تأتهم ربوبية الجزاء مع طليق الربوبية الفاضلة العادلة لكان نقصاً فيها ونقصاً لقضيتها .

وذلك قضية « ما فرطنا في الكتاب من شيء » كما هو قضية كامل الربوبية لكل شيء ، فهي تعرف ربها كما يعرفه الإنسان ، وتعرف الحشر كما يعرفه ، فإن الجهل بالمعاد كما الجهل بالمبدء يزيل التكليف .

والقول إن محللة الدواب والطيور غير الظالمة ولا المظلومة - إذا - لا تحشر إذ لا ظلامه في هذا البين ، مردود بأن للذبيحة منها لصالح الإنسان ثواب كما الشهداء في سبيل الله ، ثم الصالحة من أعمالها لا بد وأن تجازي جزاءً وفاقاً .

ولأن تكليف الحيوان خفيف فجزاءها كذلك خفيف مادة ومدة فلا بقاء لها في جنة أو نار ، بل لا جنة لها ولا نار ، فانما جزاء وفاق قضية عدله تعالى وفضله .

ذلك ! و « ما فرطنا في الكتاب » أيًا كان ومن أبرزه كحجة بالغة القرآن « من شيء » من هدى إلا بيناه ، فالدين كامل كما التكوين كامل : « أم أنزل الله ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه أم كانوا شركاء فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى أم أنزل الله ديناً تاماً فقصر الرسول (ص) عن تبليغه وأداءه والله سبحانه يقول : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » وفيه « تبيان كل شيء » (١) .

(١) المصدر في نهج البلاغة في ذم اختلاف العلماء في الفتيا : أم أنزل الله ... وفيه =

﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَن يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٣٩):

هؤلاء الأنكاد هم « صم » عن سماع الحق والهدى « وبكم » عن التصديق به وبلاغه إذ لا يتكلمون بخير ، عائشين « في الظلمات » عن كافة منافذ الإدراك إنسانياً ، منبوذين في كل منابذ اللاإدراك ، ثالث من عوامل التكذيب بآياتنا اختلقوها فغرقوا « في الظلمات » التائهة بما قدموها^(١) .

وضابطة النجدين الربانيين أنه « من يشأ الله » ضلاله بما ضل جزاء له هنا « يضلله » ختماً على قلبه « ومن يشأ » هُداة بما اهتدى يزيده هدىً ويبقيه فيما يبتغيه من هُداة حيث « يجعله على صراط مستقيم » كلاً حسب سعيه في ضلاله وهُداة واستقامته ورداه ، أجل « يضلله » - « وما يضل به إلا الفاسقين » و « يجعله على صراط مستقيم » فـ الذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم .

وهنا « صراط مستقيم » وجاء « صم وبكم في الظلمات » هو سماع الحق ولسان الحق في جو من النور خليص عن أية ظلمة .

وهنا « في الظلمات » تحليق لعوامل الضلال عليهم بما خلَقوها كـ « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » (٩: ٣٦) « صم بكم عمي فهم لا

في عيون الأخبار بإسناده إلى عبد العزيز بن مسلم عن أبي الحسن الرضا (ع) قال يا عبد العزيز جهل القوم وخذعوا عن أديانهم إن الله لم يقبض نبيه (ص) حتى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن وفيه تفصيل كل شيء بين فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج إليه كمالاً فقال عز وجل : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » .

(١) المصدر ٧١٦ عن تفسير القمي عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية يقول : « صم عن الهدى وبكم لا يتكلمون بخير في الظلمات يعني ظلمات الكفر . . . » .

سورة الأنعام / آية ٣٩ - ٤١ ٢٣

يرجعون « (١٨: ٢) - « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » (٧: ٢) « ويضل الله الظالمين » (٢٧: ١٤) « وما يضل به إلا الفاسقين » (٢٦: ٢) وإنما « يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » (١٦: ٥).

فـ « إن الذين كذبوا بآيات الله » آفاقية وأنفسية ، هذه المبتوثة في كل صحائف الوجود وصُحُفه ، وهذه المسجلة في القرآن العظيم ، إنما كذبوا بهذه وتلك حيث عطّلوا على أنفسهم كل أجهزة الإستقبال للحق ، غارقين في ظلمات الجهالات والتجاهلات ! .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ (٤١) :

ذلك طرف طريف من النهج الربانية في خطاب الفطرة الإنسانية ، يواجهها ربنا في صورة من الصور الهائلة التي تهز القلوب فيتساقط عنها ركام الشرك .

فهنا استنباط لقضية الفطرة واستجاشة للرجوع إليها ، إحتجاجاً بحالات النصر حين تنقطع كل الأسباب ، وتُحار دونه الأبواب ؟ .

فـ « إن أتاكم عذاب الله » هنا « أو أتتكم الساعة » ساعة الموت أو ساعة القيامة « أغير الله » الذي به تشركون « تدعون » - « إن كنتم صادقين » في دعواكم أن له شريكاً أو شركاء ، كلاً ! « بل إياه » لا سواه « تدعون » أن يكشف الضر عنكم « فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » كما في عذاب الاستئصال ان يكشفه كما كشف عن قوم يونس لما آمنوا ، أم ساعة الموت المعلق أن يؤجله ، وأما القيامة فلا ، « وتنسون » في حالات الإضطراب « ما تشركون » بالله .

ذلك « ولو أن الناس حين نزل بهم النقم وتزول عنهم النعم فزعوا إلى ربهم بصدق من نياتهم وولي من قلوبهم لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد » (١).

أرأيت لماذا « أرأيتم » خطاباً لجمع الواحد والجمع ؟ خطاب الواحد قد يعني مع كل واحد من المكلفين الرسول (ص) و « كم » هم مجموعة المكلفين ، فهما - إذا - جمعان بفارق أن الأول على الأبدال والثاني على جمع الجمع ، فالمعني - إذا - أرأيت أنت أيّاً كنت وحتى الرسول (ص) « أرأيتم » حيث المرئي كل المجموعة ، فإن عذاب الله لا يفرق بين مستحقه إذا جاء .

فحين يأتيكم عذاب الله أو تأتيكم الساعة الصاخة ، حينذاك يضطرب الآلهة مع عابديها ، فتضل عنهم في ألوهتها ، وكما تتجه الفطر إلى الذي فطرها ، وهما حجتان بارعتان على توحيد الحق وحق التوحيد، فالقلب الذي لا ترده الشدة إلى الله هو قلب هجير هجير ، لم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة وتؤثر فيها الحدة ، حيث تعطلت فيه أجهزة الاستقبال الفطرية ، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة الموعظة ، فالشدة ابتلاء من الله لعبده ، فمن كان حياً أيقظته وفتحت مغاليق قلبه ، وردته إلى ربه وكانت هذه الزحمة له رحمة كتبها فيما كتب على نفسه ، ومن كان ميتاً بما أمات نفسه لم تفده شيئاً ، وإنما أفاد الحق حجة على غير المستفيد ، ولجة بما كان عنه يحيد .

ذلك ، وقد يكشف عما يسأل : كيف بالإمكان أن يكشف الله عن الساعة إذا أتت إن شاء ولا مؤجل لها كما لا معجل إياها ؟ : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون » (٣٤: ٣٠).

(١) في نهج البلاغة عن علي أمير المؤمنين (ع).

تكشف بأن المدعو عند العذاب أو الساعة هو الكشف عن العذاب أو عذاب الساعة دون الساعة نفسها ، وإن دعوا تأجيلها فلا يشاء كشفه إذ لا تؤجل كما لا تعجل ، ثم الله المشية الطليقة في كشف الضر ، مهما لا يكشفه إلا عن مستحقه كما وعدهم بصورة حتمية أو إمكانية .

وتلك المشيئة الطليقة في حد ذاتها لا تنافي حتم القضاء لأهل الجنة وعلى أهل النار يوم القضاء : « وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » (٤٠ : ٥٠) :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤٣) :

أجل ، وكما أن الأخذ بالبأساء والضراء هو من عذاب العاجلة ، كذلك هو ذريعة للتضرع إلى الله وذكره . « ولكن قست قلوبهم » بما « ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (٨٣ : ١٤) كما « وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » حتى حسبوه خيراً لهم فإنهم قرءاءهم بما قرءوهم إلى أنفسهم فقيضهم الله لهم : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » (٤٣ : ٣٦) - « وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم » (٤١ : ٢٥) : « قل هل تنبئكم بالآخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١٨ : ١٠٤) .

هنا قسوة القلوب ظرف ظريف لتزيين الشيطان لهم أعمالهم ، وهي نفسها قضية العشر عن ذكر الرحمن والإعراض عنه قلاً وحالاً وأعمالاً « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » (٣٩ : ٢٢) حيث تقسى عنه إهمالاً فعناداً ثم يقسيها الله جزاءً وفاقاً : « فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية » (٥ : ١٣) قسوة عن قسوة « وما ربك بظلام للعبيد » :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقَطَّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٥) :

الدابر أصله من دابرة الفرس وجمعها دوابر وهي ما يلي حافره من خلفه ، ودابرة الطائر هي الشاخصة التي خلف رجله وتدعى الصيصية أيضاً .

فالمعني من « دابر القوم » هنا - والله أعلم - أنه قطعت عنهم الأمداد اللاحقة بهم من خلفهم ، والتالون لهم في عينهم وضلالهم ، ومنه قطع نسلهم ، الذين هم استمرار لظلمهم .

فهناك تذكار بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون « ولكن قست قلوبهم » فنسوا ذكر الله بعدما تذكروا بالبأساء والضراء ، وهنا عذاب بفتح أبواب كل شيء ليفتح عليهم العذاب ، إذا فالنقمة والنعمة لهم ابتلاءً بفارق أن النقمة كانت تذكرهم ولكنهم تناسوا ، ولكن النقمة تنسيهم فتبقيهم على نسيانهم العصيان .

ذلك هو الناسي الفارغ قلبه عن ذكر الله ، الغافل في السراء والضراء ، ولكن المؤمن سراءه كضراءه له نبهة ، فـ « عجباً للمؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سرء شكر فكان خيراً ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » (١) .

فنسيان الله بنسيان ما ذكر به الله يخلف عذاب الإستدراج بإقبال الدنيا على الناسي : « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين » (١٨٣: ٧) فالإستدراج والإملاء هما من أسباب ازدياد الإثم : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي خير لأنفسهم إنما نملي

لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين « (٣: ١٧٨) .

و « كان في مناجاة الله لموسى (ع) يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً
فقل : مرحباً بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل : ذنب عجلت
عقوبته « (١) .

ذلك لأن الغنى بلاء هو أبلى من الفقر « إن الانسان ليطغى أن رآه
استغنى .

فدولة المال ودولة الحال في الدنيا، وحتى القيادة الروحية فضلاً عن
الزمنية، بلاء ليس فوقه بلاء (٢) ، وليس إقبال الدنيا ككل دليل العصيان فهو
من جزاءه ، إنما هو « إذا رأيت الله يعطي العبد في الدنيا-وهو مقيم على
معاصيه- ما يحب، فإنما هو استدراج كما قال الله « فلما نسوا ... » (٣) ثم

(١) نور الثقلين ١: ٧١٨ تفسير القمي عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله (ع) قال :
كان ...

(٢) المصدر عن أبي حمزة قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله « فلما نسوا
ما ذكروا به » يعني فلما تركوا ولاية علي بن أبي طالب (ع) وقد امروا به « فتحنا
عليهم ابواب كل شيء » يعني دولتهم في الدنيا وما بسط لهم فيها ، وقوله : « حتى
إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » يعني بذلك قيام القائم (ع) حتى
كانهم لم يكن لهم سلطان قط فذلك قوله « بغتة » فنزل خبر هذه الآية على
محمد (ص) « وفيه عن المجمع روى عن النبي (ص) انه قال : إذا رأيت الله يعطي
على المعاصي فإن ذلك استدراج منه ثم تلا هذه الآية ، ونحوه ما روي عن أمير
المؤمنين (ع) انه قال : يا بن آدم إذا رأيت ربك يتابع عليك نعمه فاحذره .

(٣) الدر المنثور ٣: ١٢ عن عقبة بن عامر عن النبي (ص) قال : إذا رأيت ... ثم تلا
رسول الله (ص) : « فلما نسوا ما ذكروا به » وفيه عن عبادة بن صامت ان
رسول الله (ص) قال : إن الله تبارك وتعالى إذا اراد بقوم بقاء أو نماء رزقهم القصد
والعفاف وإذا اراد بقوم اقتطاعاً فتح لهم او فتح عليهم باب خيانة حتى إذا فرحوا بما
أوتوا أخذناهم بغتة ... » .

وسائر إقبالها بولية واجبة الرقابة حتى تنجح فيها .

هنا « فتحنا عليهم أبواب كل شيء » تستغرق كل أبواب البلاء بالنعم دولة ودولة ، جاهاً ومالاً وعرضاً ظاهراً في عرضه العريض ، وهم في خضم معاصيهم يظنونهم على شيء فإله يشيهم على معاصيهم ويفتح عليهم رحمته في مآسيهم « حتى إذا فرحوا بما أوتوا » وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة واستغرقوا في متاعها بلا شكر ولا ذكر ، فازدادوا عصياناً وطغياناً « أخذناهم بغتة » وفجأة حيث كان أخذهم على غرة في سكرتهم يعمهون ، « فإذا هم مبلسون » : جاثرون منقطعوا الرجاء عن كل خير ، عاجزون عن التفكير في أي اتجاه ، « فإذا هم مبلسون » : شديداً اليأس من معترض الحزن بأشده ، ترحاً بالغاً بعد فرح بالغ .

أجل ، وفتح أبواب كل شيء على الذين نسوا ما ذكروا به هو في الحق سدّ لأبواب كل شيء ، حيث النعمة تبدل عندهم نقمة ونعمة بما نسوا الله فأنساهم أنفسهم وهم لا يشعرون .

فهذه ضفة أمام نعم الله المتواترة إستدراجاً فاستأصلاً ، تواجهها ضفة الإيمان الموعودة بنعم الرحيم الرحمان : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » (٩٦: ٧) .

فالبركات هنا وهناك في الصورة الظاهرة المادية مثل بعضها البعض ، ولكنها للمعرضين عن الله دركات ، ولأهل الله بركات فوق بركات « ولا ينبئك مثل خبير » .

« فتحنا عليهم » كل الأبواب المغلقة عليهم من زخرف الحياة الدنيا « حتى إذا فرحوا » حيث ظنوا أن الذي نزل عليهم من البأساء والضراء ما كان انتقاماً منهم ، إذ بدل الله بهما أن فتح عليهم أبواب نعمة التي كانوا ييغونها ولا يصلون إليها .

سورة الانعام / آية ٤٦ ٢٩

« فقطع دابر القوم الذين ظلموا » تَبَّأَ تَبَّأً « والحمد لله رب العالمين »
كيف يداريهم ويجاريهم ولا يماريهم حتى إذا لم تبق فيهم نافذة خير
« أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » آيسون من كل خير .

« والحمد لله رب العالمين » على ما أبلاهم وابتلاهم ، وأبرز مكنونهم
فأفناهم، وخلّص دعاة الحق عن بأسهم ، ففلّسهم على يؤسهم، فتعسأ للقوم
الكافرين .

و« القوم »- في قطع دابرهم وهو آخر فرد منهم - قومان ، قوم يعيشهم
الزمن قبل آخر الزمن فالقطع في قطاعاتهم متقطع ، وقوم في آخر الزمن
عند ظهور صاحب الزمن الحجة بن الحسن المهدي من آل محمد
عليهم السلام ، فالقطع فيهم أجمع قاطع ، فليس هنالك حمد إلا لله رب
العالمين « والحمد لله رب العالمين » هناك واقعاً يحلق على كل الخليقة ،
بعدما كان حقاً غير واقع إلا نزرأ قليلاً .

فهناك أقوام من الضفة الأولى المتقطعة كقوم نوح وهود وعاد وثمود
وقوم لوط وفرعون وقرون بين ذلك كثير ، أخذهم الله بذنوبهم رغم ازدهار
حضاراتهم .

ومن ثم الضفة الثانية والأخيرة هم كل الظالمين في مطلع دولة المهدي
عليه السلام فانهم يقطع دابرهم عن بكرتهم فلا يبقى على وجه الأرض
ظالم ، إذ تحلق دولة الحق المطلق على كافة الربوع ، اللهم عجل فرجه
وسهل مخرجه .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ
إِلَهَ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ ﴾ (٤٦) :

إن معطي السمع والأبصار والقلوب هو - بطبيعة الحال - أخذها إن شاء
« أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ » إنسانياً أم وحيوانياً فانهما فيهما

٣٠ الجزء السابع

عطية الله « وختم على قلوبكم » كذلك حتى لا تفقه إنسانياً ولا تعيش حيوانياً ، إذا فـ« من إله غير الله يأتيكم به » بما أخذ من مثلث الإنسانية السامية ، طبعاً لا إله يأتيكم به إن شاء إلا الله كما لا آخذ إلا الله ولا معطي إياها إلا الله .

فالسمع والأبصار هما أهم منافذ الإدراك في الإنسان كحيوان وكإنسان ، والقلب حيوانياً وإنسانياً هو أصل حياته فيهما ، فالأخذ لهذه الثلاثة آخذ الحياة حيوانياً وإنسانياً عن بكرتهما .

وذلك الآخذ المعروض هنا دليل أن لهذه الثلاثة قابلياتها وفاعلياتها في أصولها خلقياً ، إلا أن يبطلها أهلها فلا يستفيدوا منها ، ثم الله يأخذها عقوبة حاضرة على إهمالها .

هذا ومن غرائب الوفق العددي بين البصر ، والبصيرة والقلب والفؤاد أن كلاً يذكر في القرآن (١٤٨) مرة ، مهما كانت مرآت الفؤاد (١٦) والباقية للقلب ، فإنهما في الحق واحد حيث الفؤاد هو القلب المتفشد إما بنور المعرفة أم بنار الجهالة .

« انظر » نظر البصيرة النافذة « كيف نصرف الآيات » متواترة على هؤلاء « ثم هم يصدفون » عن الحق .

فلأنهم « يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » والشفاعة بين الله وبين خلقه لو صدقت فيهم ليست ألوهية ، كما إن أخذ الله منكم ما أخذ ليس للشفعاء أن يسترجعوه بإصرار وإجبار لولا أن الله يريد أن يأتي به مرة أخرى ، فأين ألوهتها - إذا - وهي لا تنفع كما لا تضر حتى في حقل الشفاعة المدعاة ؟!

فالله يصرف الآيات تحويلاً لها إلى أفهامهم ثم هم يصدفون عنها معرضين تحويلاً لأفهامهم عنها .

ويا له من مشهد تصويري قويم يجسم لهم عجزهم وآلهتهم التي

سورة الأنعام / آية ٤٧ ٣١

التهتهم أمام بأس الله ، مشهد يهزهم من الأعماق إن كانت لهم أعماق ،
ولكن لا حياة لمن تنادي حيث يميلون عن آيات الله المصروفة لهم كالبعير
الذي يصدف عمن يقوده إلى من ينحره .

ذلك ، ومن ثم مشهد العذاب الملموس بعد العذاب الذي أهمه غير
ملموس :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ
الظَّالِمُونَ ﴾ (٤٧) :

وطبعاً لا ، حيث العذاب هو قضية الظلم ، وهل الظالم هنا إلا
المشرك بالله ومن أشبهه؟ ثم لا فارق بين بغتة العذاب أو جهرته في « هل
يهلك » إذ لا دافع عن عذابه كيفما حصل .

فسواء أجهاءهم العذاب بغتة وهم غارقون في أهواءهم لا يتوقعون ، أو
جاءهم جهرة وهم صاحون متأهبون ، فإن الهلاك على أية حال حال
بالظالمين دون سواهم .

ذلك ! فما هو الحل في « فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم
خاصة » (٢٥: ٨) ؟ .

إنها للظالمين عذاب عاجل ولمن سواهم بلاء ؟ يخفف عنهم عذاباً في
الآجل أم لهم ترفيع درجة .

وإنه عذاب يخص الظالمين بحق الرسل والرسالات وهو فوق
« فتنة . . » وكما نشاهده للغابرين من الظالمين والله ينجي فيها غير
الظالمين كعذاب الطوفان وما أشبه المسرود فصلاً فاصلاً في القرآن .

هنا قد بلغت موجة الحجاج أقصى مداها في عذها وشدها وتمت عرضاً
لهذه المشاهد المتتالية والتعقيبات الموحية المتعالية ، فلا كلام بعد التمام

- إذا - إلا عرض هو مكرور على المكلفين، بياناً لأصل الحجج والفصل بين الصفتين في هذا البين :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (٤٩):

إنه لا شأن للمرسلين عن بكرتهم إلا التبشير والإنذار بإذن الله ، وأما إتيان آية رسولية أو رسالية فليس من شأن الرسل ، فـ « إنما الآيات عند الله » و « بعلم الله » لا تعدوه إلى سواء .

وليست وظيفة هؤلاء المرسلين إلا حمل الرسالة الربانية إلى المرسل إليهم دونما زائد أو ناقص ، نقلاً لهم إلى الرشيد العقلي والمعرفي ، دون ادعاء أن لهم ما لله من شؤون ، ولا ضرب بهم في تيه الفلسفات الذهنية والمجادلات اللاهوتية المختلفة ، التي استنفدت طاقات الإدراكات البشرية أجيالاً بعد أجيال .

« فمن آمن بالله وما أرسلوا به » وأصلح « ما فسد منه ومن سواء قدر المقدور عقيدياً وعلمياً وخلقياً وعملياً » فلا خوف عليهم « من أية كارثة قارصة عذاباً هنا وهناك » ولا هم يحزنون « على ما فاتهم من لذات عابرة ، أو إعترضتهم من هزات غابرة .

« والذين كذبوا بآياتنا » وماتوا وهم كفار « يمسهم العذاب » أحياناً هنا وفي كل الأحيان هناك « بما كانوا يفسقون » عن حد العبودية والطاعة ، تحللاً إلى ما لا يحل ، وتغافلاً عما يجب أو يحل .

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ
وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۚ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ
هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ
مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ
الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ
مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ
مِنْ شَيْءٍ ففَتَطْرُدُهم فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ
فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ
عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ
تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِنَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ^ج
 قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنْ^ج
 الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ^ج
 مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ^ج إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِ^ط
 الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي^ط
 مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ^ق
 بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ * وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا^ج
 إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ^ج
 إِلَّا لَا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا رَطِبَ^ج
 وَلَا يَابَسَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾

موجة بقية بهية في مواجهة المشركين بحقيقة الرسالة والرسول ، بعدما
 عبثت بها تصورات جاهلية فابتعدت عن حقيقة الرسالة والرسالة الحقيقة
 بالإتباع .

فقد أصبح الجاهليون ومن أشبههم يتطلبون إلى الرسول ما لا يجب
 من آيات الرسالة ، رفضاً لما يتوجب منها لإثباتها ، خلطاً بين الكهانة

سورة الأنعام / آية ٥٠ ٣٥

والسحر والآية البينة ، فقد جاءت العقيدة السليمة الاسلامية لتقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق ولهم الويل مما يصفون ، تخليصاً لصورة الرسالة وسيرتها عن صورتها المسطرة في الأوهام ، وسيرتها المتخيلة بين الأنام .

حقيقة للرسالة حقيقة بالإتباع ، خارجة عن إفراط المفرطين ترفيعاً لها عما لها ، وعن تفريط المفرطين تقريباً لها عما يحق فيها ، وترقيعاً بخلق وخلق لا تحق لها :

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥٠) :

هنا سلبيات ثلاث بعدها اثباتية واحدة هي هي - فقط - الرسالة دون زائدة ولا ناقصة إلا بائدة ناقضة .

١ - « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله » فهلا تكون قضية « لا أقول » نفس السلبية الواقعية ؟ أم « عنده خزائن الله » ولكنه نهى عن أن يقوله ؟ .

لو أن عنده خزائن الله كواجب أو راجح رسولي أو رسالي لكان من المفروض أن يقوله تحديثاً بنعمة ربه « فأما بنعمة ربك فحدث » وتثبيتاً أكثر مما ثبت لرسالته ، فـ « لا أقول » إذ ليس عنده خزائن الله لا أصلياً ولا تخويلًا ، فمطلق العندية هنا مسلوبة عنه .

فما خزائنه تعالى علماً وقدرة ورحمة أماهيه إلا عنده نفسه سبحانه وتعالى عما يشركون ، فهـ لله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون » (٧:٦٣) « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » (٢١:١٥) « أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب » (٩:٣٨) « أم عندهم خزائن ربك أم هم

٣٦ الجزء السابع

المصيطرون « (٣٧: ٥٢) -: « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتن خشية الإنفاق » (١٧: ١٠٠).

فخزائن الله ألوهية وربوبية ورحمة غير متناهية ليست هي إلا عند الله ، لا يوكل فيها أحداً ولا يخول ، فإن « عندي » تعني العندية الذاتية والتخويلية أماهيه مما تصدق عليه « عندي » وإن بعضاً أو مثقال ذرة كأن يحصل سؤله من خزائنه بسؤاله دون رد ، حيث المستجاب دعاءه بإذن ودون إذن يصح قوله : « عندي خزائن الله » والمرسلون ومن يحلوا محلهم « ما من شفيع إلا من بعد إذن » (٣: ١٠) وهذه الشفاعة ليست مشمولة لـ « عندي » الخاصة بساحة الربوبية ، وهذه السلبية الطليقة للرسول أمام الله هي قضية الرسالة وحرمة الربوبية ، فكل أمر منهم بأذنه تعالى حتى دعاءهم فضلاً عن الشفاعة وأضرابها .

فليس الرسول (ص) قاعداً على خزائن الله - ولا واحدة منها ، فإن حكمها حكم الكل - قاعداً أي قعود ما يصدق عليه « عندي » ليصدق منها على من يشاء ، ولا يملك مفاتيح الغيب ولا هو مَلَكٌ كما يطلبون ، فلا هو إله عنده خزائن الألوهية أو يعلم الغيب ، ولا هو مخول موكل ، بل ولا هو مَلَكٌ مهما كان هو فوق كل ملك ! .

٢ - « ولا أعلم الغيب » كضابطة رسولية أو رسالية مهما علّم غيباً كالوحي وما أشبه ، فلا أقول اني اعلم الغيب ، وقل « لا أعلم الغيب » فلو كان يعلم الغيب لكان المفروض عليه في موقف تثبيت رسالته ان يقوله ! : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (١٨٨: ٧) .

و « الغيب » المسلوب عنه (ص) هو الغيب الطليق ، الخاص بساحة

سورة الأنعام / آية ٥٠ ٣٧

الربوبية كغيب ذاته تعالى وصفاته وأفعاله ، وغيب وحيه وآيات وحيه وما أشبه .

إلا أن من الغيب ما يُطلع عليه رسله قضية الرسالة إثباتاً وبلاغاً لمادتها : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » (٢٨:٧٢) (١).

ومنه ما لن يُطلع عليه أحداً من خلقه لاستحالة ذاتياً أو مصلحياً ، والضابطة المتكررة بالنسبة لمن سوى الله ومنهم رسل الله « لا أعلم الغيب » ثم « ولو كنت أعلم الغيب . . » تحيل لهم علم الغيب وإن كان بتعليم الله ، فإن استكثار الخير هو قضية طليقة لعلم الغيب بكل الحوادث الضارة والنافعة ، ولا فارق في « لاستكثرت » بين العلم الذاتي والكسبي ، حيث النتيجة في حقل « لاستكثرت . . » واحدة .

فلأن الآيات الرسالية وما أشبهها هي من خزائن الله قدرة وقيمومية ورحمة وعلماً ، فالسالبان يسلبان عن الرسول القدرة والعلم بهذه الآيات الرسولية ، رغم علمه بتعليمه تعالى بآيات رسولية هي الوحي كله ، فهما إذاً يسلبان عن إفراط الربوبية .

٣ - ثم « لا أقول اني ملك » سلب لتفريط العبودية الذي تشترطه الجاهلية للرسول أن يكونوا من الملائكة ، فإنه هو « أول العابدين » على الإطلاق من الملائكة والجنة والناس اجمعين .

ذلك ، كما وهو إثبات للحاجيات البشرية التي هم يستنكرونها منه (ص) : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا

(١) للاطلاع على تفاصيل الغيب راجع تفسير الآية في سورة الجن ج ٢٩ من الفرقان .

أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً . . . » (٢٥: ٨).

وهذا السلب والإيجاب هما يسلبان تطلُّبات المشركين أن يكون الرسول مَلَكاً أو يكون - لأقل تقدير - معه ملك فيكون معه نذيراً .

إذاً فما هو الأعواناً بين الأمرين ووسطاً بين العالمين ؟ « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » (٣: ١٤٤) و « ليس لك من الأمر شيء » (٣: ١٢٨) فـ:

« إن أتبع إلا ما يوحى إليّ » لست إلا حاملاً لوحي ربي لا موكل في شيء ولا مخول « متبعاً لله مؤدياً عن الله ما أمر به من تبليغ الرسالة » ^(١) .

لذلك نقول لن تنسخ السنة الكتاب لأنه تخلف عن وحي الكتاب ، ولو كان نسخ في حكم من الكتاب لكان يتكلفه الكتاب نفسه لأنه حجة باقية وضابطة قانونية ثابتة لا تتحمل تبصرة فيها تعمية لنصه أو ظاهره .

صحيح أن السنة وحي كما الكتاب وحي ولكنها ليست إلا على هامش الكتاب شارحة له غير قارحة ، فالكتاب هو حبل الله المعتمصم به وحيداً غير وهيد ، وكيف يكون هو المعتمصم وهو في محط النسخ بالسنة التي ليست له إلا فرعاً له شارحة .

(١) نور الثقلين ١: ٧٢٠ في كتاب التوحيد بإسناده إلى أحمد بن الميثمي انه سأل الرضا (ع) يوماً وقد اجتمع عنده قوم من اصحابه وقد كانوا يتنازعون في الحديثين المختلفين عن رسول الله (ص) في الشيء الواحد فقال (ع) ان الله عز وجل حرم حراماً وأحل حلالاً وفرض فرائض فما جاء تحليل ما حرم أو تحريم ما أحل الله أو دفع فريضة في كتاب الله رسمها بين قائم بلا نسخ نسخ ذلك فذلك شيء لا يسع الأخذ به لأن رسول الله (ص) لم يكن ليحرم ما أحل الله ولا ليحلل ما حرم الله عز وجل ولا ليغير فرائض الله وأحكامه وكان في ذلك متبعاً مسلماً مؤدياً عن الله عز وجل وذلك قول الله عز وجل : « إن أتبع إلا ما يوحى إليّ » فكان (ع) متبعاً مؤدياً عن الله ما أمر به من تبليغ الرسالة .

سورة الأنعام / آية ٥٠ ٣٩

وهنا حصر إتياع الرسول (ص) بالوحي حصر عن إتياعه غير الوحي من عقلية نفسه أو عقلية الشورى فانهما ليسا من وحي الله لتدخل الخطأ فيها .

إذاً فلا إجتهد للرسول يتوسل فيه بأية وسيلة حيث الوحي يغنيه ، وما الإجتهد على أية حال إلا للأعمى عن الوحي دون البصير بخالص الوحي حيث الوحي يكفيه .

« قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » فأنتم ترونني وتسمعونني ما يدل على بصارتي وبصيرتي ، وجربتم أنفسكم وسواكم بما يدل على عماكم « أفلا تتفكرون » أنه « لا يستوي الأعمى والبصير » ! .

ذلك ، فاتباع الوحي وحده هداية وبصيرة ، والمترك غير الوحي أعمى عن البصيرة ، ولا دور للعقل وجاء الوحي إلا تلقيه بصفاء ووفاء ، صفاء في تفهمه ووفاء في تفهمه ، وأما ان يستقل أمام الوحي كأنه يشاقه أو يكون إمامه ، فلا وألف كلا ! .

وليس هذا تهديداً للعقل وتحديداً ، تجميداً له عن التعقل ، إنما هو بيان حدّه في جزره ومدّه أنه ليس في صالح المعرفة إلى خضم الوحي ، تركاً لمجاله بكل جلواته الصالحة الفالحة في مضمار الوحي ، وهو أوسع المجالات لجلواته وتجلياته على الإطلاق .

فليس من العقل معارضة العقل مع الوحي أو تفوّقه عليه ، فصالح العقل هو العوان بين إفراطه في مشاقّة الوحي أو تحلّله عنه ، وبين تفريطه بحق الوحي ألا يتعقله كما يجب ، فهو في إفراطه قد يخطئ من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال ، وفي تفريطه يتخربط في جمود وركود .

فالعقل وحده - على محدوديته وعدم تحليقه على كل معقول مأمول - قد يضطرب - وكثيراً ما هو - تحت ضغوط الأهواء والشهوات والنزعات ،

٤٠ الجزء السابع

وهذان هما حجر الأساس لاختلافات العقلاء حتى الفلاسفة في تشخيص الحقائق .

فحين يقول الله عن عقل العقلاء « وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى » مهما كانت هوى عقله أم حصيلة الشورى الصالحة بين الرعيل الأعلى من العقلاء .

فماذا ترى في سائر العقول الناقصة في ذاتها ، البائسة في تعقلاتها ، وحين تختص حجة الرسول (ص) بالوحي ، فكيف يكون العقل لمن سواه حجة كحجة الوحي ، اللهم إلا استنباطاً قاطعاً للوحي ، فلا حجة - إذاً - إلا الوحي نفسه وما يستوحى منه سليماً غير دخيل .

وان للوحي تجاه العقل سلباً وإيجاباً ، سلباً عن إنحراف المنهج ، وسوء الرؤية تخلفاً عن المبلج ، والتواء الأهواء والشهوات ، وإيجاباً للتجوال في الكون كله بصورة صالحة ووسيلة فالحة ليست إلا وحي الرحيم الرحمان « فبأي آلاء ربكما تكذبان » !

﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٥١):

الإنذار بالقرآن كأصل في الدعوة يعم كافة المكلفين « هذا بلاغ للناس ولينذروا به » (٥٢: ١٤) - « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه و لتنذر أم القرى و من حولها .. » (٩٢: ٦) « وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » (١٩: ٦) .

ذلك ، ولكن تأثير الإنذار ليس إلا فيمن يتحصى عن الحق أم لا يتجرى عليه : « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب .. » (١٨: ٣٥) « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » (٧٠: ٣٦) .

أتري « الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم » مؤمنون مصدقون بالحشر ؟ فكيف يخافونه وهو الوعد الصادق الأمين ؟ .

إنهم لا يخافون أصل الحشر القاطع كاصل ، إنما يخافون حشرهم أنفسهم خوفاً مما قدمته أيديهم ، ولا يعني الخوف من الله إلا الخوف من عدله يوم الحشر إتهاماً لأنفسهم بما تستحق به العقاب فقد : « يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار » (٢٤ : ٣٧) (١) .

« ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع » يوم الحشر كما هنا « أنذر به .. لعلمهم يتقون » ولا يطغون

ثم « أنذر به » مما يدل على واجب الإنذار الرسالي ، أنه ليس إلا بالقرآن ، فالإنذار بغير القرآن قاحل مهما كان من الرسول ، والإنذار بالقرآن من غير أهله غير كامل .

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥٢) :

وترى كيف يطرد أول العابدين الذين يدعون ربهم .. يريدون وجهه ؟ وما أرسل إلا لدعاء ربه وعبادته ! ونوح وهو أدنى منه محتداً في كل شيء يقول في جواب القول : « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » : « وما علمي بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين » (٢٦ : ١١٤) - « وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون .. ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين » (١١ : ٣١) .

(١) نور الثقلين ١ : ٧٢٠ عن المجمع قال الصادق (ع) : « انذر بالقرآن من يرجو الوصول إلى ربهم ترغيبهم فيما عنده فان القرآن شافع مشفع » .

لكن « لا تطرد » ليست إلا كـ « لا تشرك » - « لئن أشركت ليحبطن عملك » وما أشبهه .

تدليلاً على أنهم أخرجوا موقفه من المؤمنين الفقراء ، فلا يعني نهيه إلا إياك أعني واسمعي يا جارة ، لئلا يسوا عن طرده إياهم عساهم لا يطارده في عدم طردهم .

ذلك ! وهل نزلت في أصحاب الصفة حيث كان رسول الله (ص) يتعاهدهم بنفسه فقيل فيهم ما قيل فقال الله فيهم ما قال ^(١) ؟ والسورة كلها

(١) الدر المنثور ٣: ١٣ - اخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن عمر بن عبد الله بن المهاجر مولى غفرة أنه قال : في اسطوان التوبة كان أكثر نافلة النبي (ص) إليها وكان إذا صلى الصبح انصرف إليها وقد سبق إليها الضعفاء والمساكين وأهل الضر وضيغان النبي (ص) والمؤلفة قلوبهم ومن لا ميت له إلا المسجد ، قال وقد تحلقوا حولها حلقة بعضها دون بعض فينصرف إليهم من مصلاه من الصبح فيتلو عليهم ما أنزل الله عليه من ليلته ويحدثهم ويحدثونه حتى إذا طلعت الشمس جاء أهل الطول والشرف والغنى فلم يجدوا إليه مخلصاً فتاقت أنفسهم إليه وتاقت نفسه إليهم فأنزل الله « واصبر نفسك . . . » فلما نزل ذلك فيهم قالوا يا رسول الله (ص) لو طردتهم عنا ونكون نحن جلساءك وإخوانك لا نفارقك ، فأنزل الله : « ولا تطرد . . . » إلى منتهى الآيتين .

وفي نور الثقلين ١ : ٧٢٠ روى الثعلبي بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال : مر الملاء من قريش على رسول الله (ص) وعنده صهيب وخباب وبلال وعمار وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقال : يا محمد ارضيت بهؤلاء من قومك ، افنحن نكون تبعاً لهم ؛ هؤلاء الذين من الله عليهم ، اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم اتبعناك فأنزل الله : « ولا تطرد . . . » وفيه عن تفسير القمي في الآية فانه كان سبب نزولها انه كان بالمدينة قوم فقراء يؤمنون يُسمون أصحاب الصفة وكان رسول الله (ص) امرهم أن يكونوا في صفة يأوون إليها وكان رسول الله (ص) يتعاهدهم بنفسه وربما حمل إليهم ما يأكلون وكانوا يختلفون إلى رسول الله (ص) فيقربهم ويقعد معهم ويؤنسهم وكان =

مكية ! قد تعني روايات نزولها بحق أصحاب الصفة مجرد الجري والتطبيق كما في كثير من أسباب النزول .

ولقد عرض عمر عليه (ص) طردهم ردحاً قائلاً : لو فعلت يا رسول الله (ص) حتى ننظر ما يريدون بقولهم وما يصيرون إليه من أمرهم فأنزل الله « وأنذر به الذين يخافون - الى قوله تعالى - أليس الله بأعلم بالشاكرين » فاعتذر عمر من مقالته (١) .

إذا جاء الأغنياء والمترفون من أصحابه انكروا عليه ذلك ويقولون له : أطردهم عنك ، فجاء يوماً رجل من الأنصار إلى رسول الله (ص) وعنده رجل من أصحاب الصفة قد لزق برسول الله (ص) يحدثه فقعد الأنصاري بالبعد منهما فقال له رسول الله (ص) تقدم فلم يفعل فقال له رسول الله (ص) : لعلك خفت أن يلزق فقره بك ؟ فقال الأنصاري أطرد هؤلاء عنك فأنزل الله : « ولا تطرد .. » أقول : لأن الأنعام كلها مكية فليس نزول بعض آياتها بما حصل في المدينة إلا تطبيقاً وجرياً ، أو أنها نزلت مرتين .

وفيه عن تفسير العياشي عن الأصمغ بن نباتة قال : بينما علي (ع) يخطب يوم الجمعة على المنبر فجاء الأشعث بن قيس يتخطأ رقاب الناس فقال يا أمير المؤمنين حالت الحداء بيني وبين وجهك قال فقال علي (ع) : مالي وللضيافة - العظيمة من الرجال لا غناء عندهم - أطرد قوماً غدوا أول النهار يطلبون رزق الله وآخر النهار ذكروا الله فأطردهم فأكون من الظالمين ؟ .

(١) الدر المنثور ٣: ١٣ أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : مشى عتبة بن ربيعة وقرظة بن عبد عمر بن نوفل والحارث بن عامر بن نوفل ومطعم بن عدي بن الخيار بن نوفل في اشراف الكفار من عبد مناف إلى أبي طالب فقالوا : لو ان ابن أخيك طرد عنا هؤلاء الأعباء فإنهم عبيدنا وعسقاءنا كان اعظم له في صدورنا واطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقه فذكر ذلك أبو طالب للنبي (ص) فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت ... فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب فاعتذر من مقالته

أجل « لا تطرد... » بل « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغدوة والغشي يريدون وجهه ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ، وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر... » (٢٩: ١٨) ، ولم يخلد قط بخلده المبارك أن يطردهم والرواية المفترية عليه هي مطرودة^(١).

ذلك ولا نجد في سائر القرآن « يريدون وجهه » إلا في هاتين فما هي إرادة وجه الله ؟ .

(١) الدر المشور ١٣: ٣ عن خباب قال جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجد النبي (ص) قاعداً مع بلال وصهيب وعمار وخباب في أناس ضعفاء من المؤمنين فلما رأوهم حوله حقروهم فاتوه فخلوا به فقالوا : انا نحب أن تجعل لك منا مجلساً تعرف لنا العرب به فضلنا فان وفود العرب ستأتيك فنستحي أن ترانا العرب قعوداً مع هؤلاء الأعداء إذا نحن جئناك فاقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فلتقعد معهم إن شئت ، قال : نعم قالوا فاكُتِبَ لنا عليك بذلك كتاباً فدعا بالصحيفة ودعا علياً ليكتب ونحن قعود في ناحية إذ نزل جبريل بهذه الآية : « ولا تطرد... » .

وفيه في نقل سعد بن أبي وقاص فوقع في نفس النبي (ص) ما شاء الله أن يقع فانزل الله « وليت شعري كيف يشاء الله في نفس النبي ما هو ينهيه عنه .

فكيف يفترى على رسول الهدى انه مال إلى بغية المشركين وامر علياً أن يكتب بها ميثاقاً و « ما ينطق عن الهوى » - « ان اتبع الا ما يوحى إليّ » .

اذلك جبر لكسر الشيخين ، فان عمر تطلب سؤلهم من رسول الله (ص) فنزلت الآية ، وأبو بكر وقرهم في عيون المؤمنين كما في صحيح مسلم عن عائذ ابن عمران ابا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال ونفر فقالوا : والله ما اخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها ، قال : فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم فأتى النبي (ص) فأخبره فقال : يا ابا بكر لعلك اغضبتهم لئن كنت اغضبتهم لقد اغضبت ربك ، فاتاهم ابو بكر فقال : يا اخوتاه اغضبتكم ؟ قالوا : لا - يغفر الله لك يا أخي ...

قد تعني « وجهه » أدبياً كلا الإضافتين : إلى الفاعل وإلى المفعول ،
أنهم « يريدون » أن يتجه إليهم ربهم بخاصة رحمته ، كما يتجهون إليه
بخاصة عبوديته .

ذلك وكما يتجهون إلى الله معرفياً بعبوديته وعبودياً بمعرفته ، وبهما إلى
رضوانه ، لكي يتجه إليهم الله أن يقربهم إليه زلفى بما يتقربون ، ويغربهم
عما سواه كما يتغربون .

« لا تطرد . . » حيث يدعون ربهم بالغداة والعشي ، أوقات الصلوات
المفروضات ، أم ليل نهار على طول الخط « يريدون وجهه » .

« ما عليك من حسابهم » أولاء المؤمنين « من شيء » - إن حسابهم إلا
على ربي لو تشعرون « (٢٦ : ١١٣) - « وما من حسابك » أنت الرسول
« عليهم من شيء » فلا محاسبة بينك وبينهم لو كانت أعمالهم منافقة حتى
تطردهم وهم في مظاهر الإيمان الصالح
إنه لا محاسبة في البين حتى تطردهم بحسابها لو أنهم غير صالحين
وهم من أصلح الصالحين .

ذلك ! فهلاً يجوز طرد المنافقين إذ « ما عليك من حسابهم من
شيء » ؟ وطردهم مع سائر المعاندين هو من قضايا الإيمان كما أن لصقهم
من رزايا الإيمان ! .

هنا محط التنديد هم « الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشي يريدون
وجهه » فالضابطة الرسالية تحكم بلصقهم وعدم طردهم ولا سيما تطلباً من
أولئك المتبخرين ، مؤمنين كانوا أم غير مؤمنين .

فما دامت مظاهر الإيمان فيهم لائحة ، فلا دور لطردهم بطلب وغير
طلب ، اللهم إلا بما غاب عنك من استحقاقهم لطردهم وأنت تتهمهم ،
فهنا « ما عليك من حسابهم من شيء » « إن حسابهم إلا على ربي لو

تشعرون « فلو كانوا من المطرودين لكان الله هو الذي يأمر أو يسمح بطردهم وهو ينهك عن طردهم ويأمر بالصبر معهم ! .

هكذا ينهى الرسول (ص) عن طردهم أولاً ويؤمر بتقريبهم إليه رغم هؤلاء ، إنذاراً به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم دون هؤلاء الناكرين الحشر إلى ربهم مهما كانت الدعوة عامة ، ولكن للسابقين إلى قبولها الدور الأصيل دون أي بديل عنهم إلى من يتغنون ، بلا دليل ، ولا سيما هؤلاء الذين يفرقون بين الفقراء والأغنياء وهم أغنياء ، يريدون ليحملوا رسول الهدى على مثل ذلك التمييز البغيض البعيد عن صلب الدعوة .

أجل ، وإن في تقديم هؤلاء المتردلين لفقراء المؤمنين ، في تقديمهم عليهم تفضيل المفضل على الفاضل وذلك يناحر صميم الدعوة الرسالية .
لقد تقول أولئك الكبراء بكل تعنت وكبرياء على هؤلاء الضعاف الفقراء الذين كان يخصهم رسول الهدى (ص) بمجلسه وقربه فطعنوا فيهم وعابوا ما بهم من فقر ، وإن وجودهم في مجلسه (ص) - وبذلك التقريب الغريب - يسبب نفور هؤلاء السادة وعدم إقبالهم إلى الإسلام ، ففضى الله عليهم بما قضى « وأنذر ... ولا تطرد ... » .

« ما عليك من حسابهم » بفقرهم وضعفهم « من شيء » « وما من حسابك » وأنت نبي أم لو كنت غنياً « عليهم من شيء » فلا دخل لهذه القيم الزائفة في محطة الإيمان ، وبطل والغنى والكبرياء منحطان عن الإيمان .

« لا تطردهم ... » فليفر الشافرون المستكبرون القائلون « أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » كيف بالإمكان أن يختص الله من بيننا بالخير والمكانة المرموقة عند الرسول هؤلاء الضعاف الفقراء الذين كانوا بالأمس خدامنا ، فلو كان خيراً ما سبقونا إليه ، فإننا نحن المختارون للخير أبداً ، وكانت هذه فتنتهم ، وبليتهم :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (٥٣):

« وكذلك » الشديد البلاء ، العظيم الابتلاء « فتنا بعضهم ببعض » حيث فتن الكفار الأغنياء بالمؤمنين الفقراء ، ومن الغاية الصالحة لهذه الفتنة الربانية « ليقولوا » هؤلاء الكافرون « أهؤلاء » الفقراء الضعفاء المؤمنون « من الله عليهم » بالإيمان والكرامة « من بيننا » ؟ ونحن أحق منهم بكل كرامة ، وهم أحق منا بكل عرامة ، أم ولا أقل من التسوية بيننا وبينهم ! .

والجواب الحاسم : « أليس الله بأعلم بالشاكرين » وهم الفقراء السابقون إلى الإيمان ، فالمؤمنون عليه من الله ليس منه فوضى جزاف ، إنما هو شكره نعمة الرسالة وهم كافرون .

فالفتنة في أصلها هي فتنة الذهب الخليط بالنار لاستخراج الخليص ، وهذه غاية صالحة تربوية تمحيصاً وتخليصاً بما يُسمى « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

وهنا في شأن النزول فتنة ثلاثية حيث فتن الرسول (ص) بها وفتن كل بالآخر ، وكان الساقط في هذه الفتنة هم الأشراف ، ومن مقالهم للرسول (ص) : « نؤمن لك فإذا صلينا معك فأخر هؤلاء الذين معك فليصلوا خلفنا » ^(١) .

وترى « ليقولوا » هي غاية مقصودة لربنا في هذه الفتنة الشاغرة الماثرة ؟ إنها مقصودة بجنب كونها إعتيادية للمفتونين بطبيعة حال الفتنة ، فقد يريد الله بما يفتن عباده ليَعْلَم صالح الإيمان من طالحه المدعى علماً ،

(١) الدر المنثور ٣: ١٤ عن ابن عباس في الآية قال : هم أناس كانوا مع النبي (ص) من الفقراء فقال أناس من أشراف الناس : نؤمن ..

ولكي يعرف الناس أقدارهم أنفسهم ويعرفوا بها ، وحياة التكليف كلها فتنة .

ذلك ! وفي فتنة بين الفقراء والأغنياء نرى الأكثرية الساحقة من السقوط بين الأغنياء المترفين ، مهما يسقط من الفقراء من يبههم باهر الظاهر من زخرفة الحياة الدنيا .

ذلك مهما كان كل من الفقر والغنى فتنة لكل من الفقراء والأغنياء : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن . كلاً . . » (١٧: ٨٩) فإنها فتنة وأفتنها فتنة الكرامة والنعمة حيث يسقط فيها خلق كثير، ثم الفقر المدقع ، ومن ثم حالة العوان بينهما فانها أيسر الفتن .

والحكمة التربوية الربانية تقتضي الاختلاف بين العطايات والقابليات ليخلص في هذا البين خالص ، ويفلس فالس كالس ، إتماماً للبلية الربانية بعد إبتلاءهم بسائر التكالييف والمسؤوليات الفردية والجماعية .

ولقد بقي في هذه الفتنة فقراء الجيوب أغنياء القلوب عند رسول الله (ص) ونفر نفر من المستكبرين الأغنياء الأغنياء ، المستنكفين عن الإيمان يقولون : « أهؤلاء » السقاط من الناس البائسين الكالسين « من الله عليهم من بيننا » بنعمة الإيمان وكرامته ونحن أحق بها منهم ، قولة هازئة لا تحمل واقعاً من الإهتمام بالإيمان ، ولو كان لما كان من قضايا الإيمان ، فإن فضل الإيمان لا يعرف تقديماً بسائر الفضل ، بل هي رذل أمام فضل الإيمان .

كما وأن من مقالهم البئس البئس « لو كان خيراً ما سبقونا إليه » (١١: ٤٦) .

وهنا يرد عليهم بما يحفل ويحمل إحيات وإيمآت بصيغة إستفهام

سورة الأنعام / آية ٥٤ ٤٩

الإنكار : « أليس الله بأعلم بالشاكرين » فهو يهديهم إلى إيمان ، وبإيمانهم إلى مزيد وكرامة ، فنعمة الإيمان وكرامته لا تتعلقان بقيم الأرض الزائفة السائدة في الجاهليات ، فانما يختص الله بها من يفحص عنها ويسعى لها ويشكرها مهما كانوا من الموالى الضعاف الفقراء ، ولا يهدي لها الكبراء الرعناء المتأنفون الذين إثنأقلوا إلى الأرض ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة .

ذلك ! وهكذا يستمر التوجيه الرباني لرسول الإسلام والسلام، أن يصبر نفسه مع المؤمنين بادئاً لهم بالسلام :

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥٤) :

هنا « يؤمنون بآياتنا » دون « آمنوا » دليل على حالة الإيمان قبل واقعه ، تحرياً عن صالح الإيمان ، فهم مهما كانوا قبل إيمانهم في شك منه ولكنه شك مقدس لأنهم على وشك منه ، فيحق لهم إستقبال رسول الإيمان بـ « سلام عليكم » إخباراً وإنشاءً ، دعاءً لسلامهم عن الشك إلى الإيقان ، وإخباراً بأنه ليس لهم في ذلك المجيء إلا « سلام » .

« فقل سلام عليكم » ثم قل « كتب ربكم على نفسه الرحمة » ومصبها المكتوب عليه بما كتب : « أنه من عمل سوءً بجهالة » دون إصرار وعناد « ثم تاب من بعده وأصلح » نفسه وأصلح من أفسده وما أفسده « فإنه غفور رحيم »^(١) .

(١) نور الثقلين ١ : ٧٢٢. عن تفسير العياشي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله (ع) قال : رحم الله عبداً تاب إلى الله قبل الموت فإن التوبة مطهرة من دنس الخطيئة ومنقذة من شقاء الهلكة فرض الله بها على نفسه لعباده الصالحين فقال : كتب ربكم

٥٠ الجزء السابع

وترى « من بعده » تعني عاجله وكما « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » (١٧: ٤) وقد تقرب شريطة قرب « من بعده » ؟ .

ولكن « ثم » المراحية لمدخولها تحول « من بعده » إلى الآجل مع العاجل حتى الموت .

ولكن « إنما » في آية النساء تحصر واجب التوبة على الله بالتوبة القريبة ! .

ولأن النساء مدنية وهذه مكة فقد تكون دائرة التوبة المقبولة - قطعاً - فيها أضيق منها في مكة ، وتلك السعة المكية هي قضية سماحة الدعوة في بواديها وكما السماحة في الخطورة الخطورة للحقول الأحكامية واجبة ومحرمة .

ذلك ، ولكن مصب هذه الآية هو « الذين يؤمنون بآياتنا » ولما يؤمنوا ، فالمفروض فيهم « ثم » إذ قد سبق لهم سابقة الكفر المديد ، والضابطة الثابتة فيهم : « قل للذين كفروا إن يتنهدوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين » (٣٨: ٨) (١) .

على نفسه الرحمة أنه من عمل سوء بجهالة ثم تاب من بعده فانه غفور رحيم . ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً .

وفيه عن المجمع روي عن أبي عبد الله (ع) أنها نزلت في التائبين ، أقول : عليهم التائبون عن الكفر ، حيث التائبون عن العصيان حالة الإيمان إنما التوبة لهم على الله إذا تابوا من قريب .

وفي تفسير البرهان ١: ٥٢٧ عن زرارة عن أبي جعفر عليهما السلام قال : إذا بلغت النفس هذه - وأهوى بيده إلى حلقه - لم يكن للعالم توبة وكان للجاهل توبة .

(١) الدر المنثور ٣: ١٤ عن همام قال أتى قوم إلى النبي (ص) فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً عظيماً ، فما رد عليهم شيئاً فأنصرفوا فأنزل الله « وإذا جاءك . . » فدعاهم فقرأها عليهم .

سورة الأنعام / آية ٥٤ ٥١

فسواء أكان ذلك الإيمان في العهد المكي أو المدني أم بعد ذلك وإلى يوم الدين ، فهذه الضابطة الجاذبة إلى كتلة الإيمان واردة بحق الذين يؤمنون .

فأما إذا آمنوا فـ: « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » (٤: ١٧) وأما التائبون من قريب فهم مرجون لأمر الله ، سواء في العهدين أم سواهما .

وحين يبدأ النبي (ص) « الذين يؤمنون بآياتنا » بـ « سلام عليكم » فما ترى - إذا - سلامه للذين آمنوا ؟ لقد « كانوا إذا دخلوا على النبي (ص) بدأهم فقال : سلام عليكم ، وإذا لقيتهم فكذلك أيضاً »^(١) .

وقد تعم « الذين يؤمنون » من آمن من قبل ومن يؤمن فانهما مشتركان في حالة الإيمان وهالته ، فقد « كان النبي (ص) إذا رآهم - أهل الصفة - بدأهم بالسلام ويقول : الحمد لله الذي جعل في أمي من أمرني أن أبدأه بالسلام »^(٢) .

إذا فـ « ثم تاب من بعده » تعني كلا التائب عن الكفر أو الفسق مهما اختلفا في واجب قبول توبتهم على الله إطلاقاً كما في الأولين ، أو إختصاصه بتوبتهم من قريب كما في الآخرين .

فاختصاص الآية بالمؤمنين هو خلاف الظاهر من « الذين يؤمنون » وخلاف النص في آية النبء : « ثم يتوبون من قريب » وليس في آيتنا إلا « ثم تاب من بعده » الشامل للقريب والغريب ! .

(١) المصدر اخبرني ابن المنذر عن ابن جريح قال : اخبرت ان قوله « سلام عليكم » قال : كانوا ...

(٢) تفسير الفخر الرازي ١٣ : ٣ قال عكرمة كان النبي (ص) : ...

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٥):

« كذلك » البعيدة المدى ، العميقة الهدى ، الطويلة الصدى « نفصل الآيات » التربوية ، فإنها نُقَلَّه من جحيم الحياة الجاهلية إلى جنة الحياة الإنسانية السامية ، فليست مجرد مبادئ وقيم ونظريات جافة قاحلة لا تعدوا حدودها إلى الواقع ، وإنما تمثل خطوات واسعة ونقلات شاسعة وضيئة على آفاق الإنسانية ، تحققت في الحياة المشرقة الرسولية ، والله يريد لها للحياة الرسالية على طول خطوطها وخيوطها ، خائفة كل النعرات والشعارات القومية والجنسية والطبقية والطائفية والإقليمية أمهيه ، رافعة للإنسانية من السفح الساحق إلى الرفق السامق .

ذلك ومع الأسى نرى في الحضارة الراقية تراجعاً إلى رجعية الجاهلية وأنحس منها ، نرى عصبية الجنس واللون وما أشبه لا تقل نبتاً عنها أم وتزيد ، « ولتستبين سبيل المجرمين » ! كما تستبين سبيل المؤمنين ، حيث الواو عطف على محذوف معروف هو سبيل المؤمنين ، فإنها الغاية القصوى من تفصيل الآيات .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (٥٦):

هنا نتلمح أن المشركين تخطوا من خطوتهم وخطتهم اللثيمة في طرد المؤمنين ، أن يعبد الرسول معهم آلهتهم التي آلهتهم حتى يعبدوا الله معه ، شركة متساهمة متساهمة في العبودية ، فأمر أن يعلن « إنني نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » مهما عبدتم الله بديلها ، وبصورة جامعة : « قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ » ومنها أن أطرده فقراء المؤمنين « قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا » في ذلك الإتيان الغاوي الخاوي « وما أنا من المهتدين » فكيف أحمل لواء الهدى ؟ ! .

﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ (٥٧):

« على بيّنة من ربي » هي قرآن محمد ومحمد القرآن ، فانهما صنوان تحكمهما آية ربانية واحدة « و » الحال أنكم « كذبتُم به » بربي في بيّنته ، فإن تكذيب محمد البيّنة ، وتكذيب القرآن البيّنة ، تكذيب للرب المرسل ، بيّنة بيّنة ، أم كذبتُم بأصل البيّنة وهو القرآن ، والجمع أجمل كما هو أكمل ، فلو كان القصد إلى « بيّنة » لكان صحيح الضمير « بها » .

« ما عندي ما تستعجلون به » من آية عاجلة أم عذاب عاجل « إن الحكم » فيهما وسواهما من حكم رباني « إلا لله » حيث « يقص الحق » إتباعاً لأثره بعد قصّه عن الباطل وفصله « وهو خير الفاصلين » هنا بين الحق والباطل ، وهناك يوم الدين بين أهل الحق وأهل الباطل .

لفتة إلى الحكم والحق :

والحكم الصالح هو الجمع الصالح بين الفصائل قلت أم كثرت ، من حكمة الدابة التي تربطها عن الإنزلاق والإنحياء ، وكذلك حكم الله في التكوين والتشريع وفي أي حقل من حقوله في الأولى والأخرى حيث « له الحكم واليه يرجعون » .

وكما الله هو الحاكم في التشريع ككل ، كذلك هو الحاكم في الأقضية الخاصة بين المتخاصمين .

و « إن الحكم إلا لله » تحصر الحكم بين الخلق بأسره في الله ، و تطبيق « الحكم » يعم مثله تكويناً وتشريعاً وشرعة في الحكم الزمني والروحي وهما في الحق واحد ، فإن شرعة الله تحمل كل ألوان الحكم بين الخلق .

والحكم المتحلل عن حكم الله ليس إلا حكم الجاهلية مهما كان

٥٤ الجزء السابع

دركات ، كما أن حكم الله فيمن يحمله درجات : « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » (٥ : ٥٠) .

ومهما كان الحكم بزواياه الثلاث لله ، ولكن الزاوية الثالثة : الشرعة - يحملها أهل الله بحكم الله : « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » (٦ : ٨٩) وهذا هو محط الاستدعاء لمن يحق له : « رب هب لي حكماً والحقني بالصالحين » (٢٦ : ٨٣) .

وليس تحكيم الرسل بإذنه إشراكاً في حكمه حتى ينافي : « ولا يشرك في حكمه أحداً » (١٨ : ٢٦) ، حيث الرسول الذي يحمل حكم الله ويحكم بإذن الله ليس مشاركاً لله في حكمه إلا أن يستقل بعضاً ما في حكمه أو يستغل ، والمحاكم بإذن الله بعيد عن أي استقلال أو إستغلال .

ثم الحق الذي يقصه الله ليس إلا ما أحقه هو لا سواه ، فالحق بالنسبة لمن سوى الله هو ما وافق الحق لأنه ليس نفسه ، وهو الله ليس إلا نفسه ذاتياً وفعله ، فالله ذاته حق وصفاته حق وأفعاله حق ، وإرادته حق وعلمه حق ، فكلما وافق حقه فهو الحق ، وكلما خالفه فهو الباطل ، وهذا هو توحيد الحق .

ذلك ! ولكنه ليس ليقص ذاته أو صفات ذاته لخلقه ، إنما يقص ما بالإمكان أن يعرفه الخلق أو يعمل من فعله ومشيته .

فليس « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً » (٢ : ١١٩) وما أشبه ، يعني إرسالاً بما يوافق الواقع المتحلل عن صفات الله وأفعاله ، بل هو الحق المرسل به من نفسه المقدسة كما يراه صالحاً ، ف« الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » (٢ : ١٤٧) .

فأمثال قوله تعالى : « رب أحكم بالحق » (٢١ : ١١٢) لا تعني إلا

سورة الأنعام / آية ٥٧ ٥٥

الحكم بما عنده وكله حق ، لا الحكم بما هو حق عندنا كواقع متحلل عن الخالق والمخلوق .

ثم الحق منه مخلوق كحق التكوين والتشريع المتبين رحمانيته ورحيميته ، ومنه حق غير مخلوق كذاته القدسية وصفات ذاته ، فكما الحق الخالق هو ذاته ، كذلك الحق المخلوق ليس إلا منه وهو فعله .

فالحق كونياً هو ما وافق تكوينه ، والحق شرعياً هو الموافق تشريعه ، والحق إرادياً هو ما وافق إرادته ، وكذلك سائر الحق إلى سائر ما له من الحق .

فالله تعالى هو الحق وهو الحاكم بالحق وليس محكوماً به وكان الحق حقيقة خارجية متحللة عن كلا الخالق والمخلوق ، فكما الخلق يحكمهم الحق كذلك الله ، وعوذاً بالله ، ويكأن الحق إله من دون الله يتحكم على الله كما يتحكم على خلقه .

ذلك ، فلا علينا ولا لنا حين نتحرى عن الحق إلا التحري عن فعل الرب ومرضاته ، لتتابع في حياتنا وحيوياتنا حقه الطليق عن أي باطل .

ولأن الحق الطليق هو الحسن الطليق وسواه هو الباطل القبيح السحيق ، إذا فكل ما هو صادر عن الحق هو حق طليق إلا أن نمزجه نحن بباطلنا أو نحوله إلى باطل من عندنا .

وهذا لا يعني إمكانية الظلم والباطل من الله وأنهما منه حق لو حصلا ، حيث الإمكانية الواقعية لهما بعيدة كل البعد عن ساحة مشيئته ومرضاته ، فلا يفعل إلا صالحاً يناسب ساحة ربوبيته العادلة الكريمة .

فمن ينسب ظلماً إلى الله ، مبرراً إياه أنه بالنسبة له حق وعدل ، إنما ينسب إليه المستحيل عليه بربوبيته ، وإن لم يكن مستحيلاً عليه ذاتياً فلا يقدر عليه .

ولأنه حق في كل أفعاله وحسن فيها محسن ، لذلك « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » (٢١: ٢٣) « له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم » (٢٨: ٧٠) « والله يحكم لا معقب لحكمه » (١٣: ٤١) : « فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون » (١٠: ٣٢) و « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » (١٣: ١٤) .

وفي رجعة أخرى إلى الحق نقول إنه إثنان : حق طليق يخص بالله تعالى شأنه ، وحق غير طليق وهو لأهل الحق من خلقه شرعة وإيماناً ، ولجميع خلقه تكويناً فإنهم كخلق الله حق خلُقوا بحق : « ما خلقنا السماوات والأرض إلا بالحق » .

وهنا « يقص الحق » يعمهما ، فهو يقص حق ذاته وصفاته وأفعاله وتشريعاته عمن سواه ، كما يقصها عن باطل كل المنسوب به إياه ، ويقص رسله عن المدعين رسالته كذباً ، وأحكامه عن سائر الأحكام المنسوبة إليه .

إذا فقص الحق يخصه دون سواه تكويناً وتشريعاً وشرعة ، وما الرسل إلا حملة شرعته دون تشريع أو تكوين .

ثم « يقص » طليقة عن ظرف كـ « عن » وما أشبه ، تعم قص الحق في نفسه وقصه عما سواه ، فله القصص الحق كأصل لا سواه .

﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٥٨) :

« ما عندي » هناك سلبت عنه عنده أية أية طليقة عن الإحالة ،

سورة الأنعام / آية ٥٨ - ٥٩ ٥٧

و « لو » هنا تحليلها بصورة طليقة كما سلبت في « لا أقول لكم عندي خزائن الله ... » .

فـ « لو أن عندي ما تستعجلون به » ثم أنا عجلت به من إتيان آيات مقترحة ليصبح الحق - كما تزعمون - واضحاً وضح النهار ، أم آية مستعجل العذاب « لقضي الأمر بيني وبينكم » وهو أمر الرسالة حين يستأصل المرسل إليهم بعذاب أم ببالغ الحجة التي ليس بعدها إمهال « والله أعلم بالظالمين » فيما يقترحون متعتين ، فليس من الصالح لهم ولا للحق المرام أن يصغي إليهم فيما يطلبون .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٥٩):

« مفاتيح » وهي جمع مفتاح وهو الباب ، تأتي في ثلاث ثانيتها « أو ما ملكتم مفاتيحه » (٢٤: ٦١) والثالثة « وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولي القوة » (٢٨: ٧٦) .

فلا تعني « مفاتيح الغيب » مفاتيحه حيث المفاتيح جمع مفتاح وهو الباب أو الخزينة نفسها ، والمفاتيح جمع مفتاح ، وأين مفتاح من مفتاح ، لا سيما وأن الله الذي لا يُغلق عليه شيء لا تصح له « عنده مفاتيح الغيب » فهي خزائن الغيب فـ « إن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » (١٥: ٢١) .

وهنا « عنده » ظرفاً مقدماً يفيد الحصر ، ثم « لا يعلمها إلا هو » حصر في علمه به ، كما و « الغيب » كأصل ، هذه دلالات ثلاث على ذلك الاختصاص .

فلو كانت « مفاتيح الغيب » عند غيره وإن توكيلاً أو تخويلاً لم تصح

« عنده » ولو يعلمها غيره وإن بتعليمه إياه لم تصح « لا يعلمها إلا هو » حيث إن علم الغيب بأسره مسلوب عن سواء ذاتياً وعرضياً ، كما وأن « ولا أعلم الغيب » سلبتهما عن سواء بدليل « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » ولا يفرق في استكثار الخير ذاتي العلم عن عرضيه .

ولأن « عنده » تعم عنديه العلم والقدرة القيومية لمكان « مفاتيح الغيب » وهي خزائنه ، فـ « لا يعلمها إلا هو » بيان لأحد شقي العندية ، ولكن يعرف منها وبأخرى إختصاص عندية القدرة - أيضاً - به كما العلم ، حيث الجاهل بالخزائن هو - بأخرى - عاجز عنها .

ثم « ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » ثالثة ورابعة في حقل الدلالة على ذلك الإختصاص ، ومن ثم الخامسة المحلقة على كل غيب : « ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » .

وترى إذ تختص مفاتيح الغيب به تعالى ، كذلك المفاتيح لا يعلمها غير الله ؟ طبعاً لا ، حيث العالم والقادر بمفاتيح الغيب عالم وقادر بمفاتيحه مهما كان بمقدمة المفاتيح ، فـ « عنده مفاتيح الغيب » تسلب عن غيره مفاتيحه إلى مفاتيحه .

ثم « الغيب » هو الغيب المطلق المتأني عن الظهور لغير الله ، لا مطلق الغيب الذي قد يظهر لمن سوى الله بوحى وسواء من محاولات خارقة العادة وسواها .

فـ « لا يعلمها إلا هو » سلبية طليقة للعلم بهذه المفاتيح ، بأية صورة من صورها ، ذاتية أو بتعلمها ، إلا لله الذي يعلمها بذاته (١) .

(١) الدر المشور ٣: ١٥ عن ابن عمر أن رسول الله (ص) قال : مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، لا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم متى تغيب الأرحام إلا الله ولا

سورة الأنعام / آية ٥٩ ٥٩

ولأن « ما في البر والبحر » - والكون لا يخلو عن أحدهما - فانهما يشملان إلى بر الأرض وبحرها سائر البراري والبحور - لأنه يعم الظاهر إلى الغيب المطلق ، فلكي يبين علمه المحيط بكل شيء الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ثنى « مفاتيح الغيب » بطلاق العلم : « ويعلم ما في البر والبحر » مجاهل البر وغيابات البحر .

ولكي نعلم أنه لا سقط في ذلك العلم المحيط أبداً ثلثه بـ « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » وقد تعني « من ورقة » كافة الأوراق مادية كورق الشجرة وورق النطفة وورق كل وليد انساني أو حيواني أما ذا من ورقة هي فرع من أية شجرية .

ثم وفي تبين رابع « ولا حبة في ظلمات الأرض » أرض الأرض ككل

يعلم متى يأتي المطر إلا الله ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله .
أقول : للنظر في هذا الحديث مجالات عدة منها « مفاتيح » بدل « مفاتيح » خلافاً لنص الآية ، ومنها أنه اقتباس ومتابعة لآية لقمان « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير » (٣٤) وآية الرعد « الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الأرحام وتزداد » (٨) .

وليس لا يعلم من « ما تغيض الأرحام » و « ما تحمل كل انثى » إلا نفس ما تغيض وتحمل دون « متى تغيض الأرحام » ، كما « وينزل الغيث » اختصاصاً للمقدرة على تنزيل الغيث به تعالى دون علمه « متى يأتي المطر » .

ومن ثم لا تختص مفاتيح الغيب بهذه الأربع المذكورة في آية لقمان ، مهما كانت منها أو من أهمها كعلم الساعة ! .

ذلك وان تفسير « ورقة » بالسقط والحبة بالولد وظلمات الأرض بظلمات الأرحام والرطب بما يحيى من الناس واليابس بما يقبض ، كل ذلك من التأويلات رواها من روى عن الامامين الصادق والكاظم عليهما السلام .

وأراضي الأرحام وما أشبه من ظرف لغائب الحبوب ، ومن ثم خامس يحلق على كل شيء : « ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » وذلك الختام بمناسبة البداية والعنوان بينهما هو كتاب علم الله ، فإنه « مبين » - ما يصلح للكينونة - كونه ، وما يصلح لبيانه بيانه في أي من حقول التكوين والتبيين : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » (٦١: ١٠) وهو اللوح المحفوظ ، وهو الكتاب الحفيظ ، وهو الإمام المبين : « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » (١٢: ٣٦) .

أترى كل هذه الخمسة مغلقة على غير الله تعالى ؟ والعلم بظاهر مما في الأرض والسماء مما يعلمها غير الله ضرورياً أو نظرياً ، كما وأن للمطهرين مسٌ لما في كتاب مكنون ! .

هذه الخمس مشتركة في اختصاصها بالله في خاصة علمه الحقيقي الذاتي ، ومختلفة في طليق العلم بها ، فمنها ما لا يعلمها الله سواء كما لا يعلمها سواء وهي الأولى « مفاتيح الغيب » ومنها ما يعلمها المصطفين من عباده ، المرسلين ، وهم حملة غيب الوحي ، المعنيون في « لا يمسه إلا المطهرون » (٧٩: ٥٦) و « إلا من ارتضى من رسول » (٢٧: ٧٢) ، ولكن ليس مما يعلمه إياهم سقوط كل ورقة وكل حبة في ظلمات الأرض وكل رطب ويابس ، إذ لا تمت بصلة لرسالاتهم ، إلا غيب الوحي رسولياً ورسالياً ، وكما اختص « إلا من ارتضى من رسول » به فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم . . . » .

وقد تشير « مفاتيح » بدلاً عن « خزائن » أنه الذي يفتح من الغيب كما يرى لأنبياءه وملائكته وسائر أهل خاصته من خلقه ، فكل ما يتوصل به إلى فتح المبهم وبيان المستعجم يعبر عنه بالمفتاح : مكان الفتح وطريقته .

ولكن هذا المعنى هو ضمن المعنى من « مفاتيح الغيب » حيث يتطلب

« مفاتيح الغيب » جمع المفتاح ، والمفتاح بمجرده هو الخزينة .

ذلك ، وحتى الآيات الرسولية ليست مما يعلمهم إياها فهـ إنما الآيات عند الله « اللهم إلا التي هي رسالية مع كونها رسولية كالقرآن العظيم حيث علمه رسوله الكريم ، علم الوحي مادة وصيغة ، دون علمه صياغة .

ثم من الغيب ما هو كائن غيبه ككل الكائنات ، وما هو مكُون مستقبل أو كان ماضياً ثم فنى ، وهذه الزوايا الثلاث لمثلث الغيب مختصة بالله إلا ما ليس من الغيب المطلق .

وفي رجعة أخرى إلى الآية نقول : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو » قضية عقلية محلقة على كافة العلوم الغيبية ، شاملة للمحسوس وسواه ، ولكي يقرب ذلك المعقول إلى عقول أهل الحس ثناه بـ « ويعلم ما في البر والبحر » حيث تشمل كافة المعلومات غيبية وسواها ، فهنا إضافة إلى تبين مدى علمه تعالى بالغيب في سعته إضافة للمشهود إليه وبأحرى .

ثم قرب مرة أخرى بصورة مستغرقة لعلمه بالغيب والشهادة « وما تسقط . . . » ثم عممه رابعة جمعاً بين الضابطة العقلية الأولى والمثاليين بعدهما للحيطرة العلمية الربانية : « ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » .

ويا لها من جولة تُدير الرؤوس وتذهل العقول ، جولة في آماذ الزمان وآفاق المكان ، وأغوار من السر والعلن والمعلوم والمجهول ، جولة موزعة مترامية الأطراف تشمل فعلية الكون وإمكانيته ، وكما تعني - في الأصل - ذات الله وصفاته وأفعاله المعلومة - فقط - لديه .

والإنسان - أو أيّاً كان من الخليقة العاقلة العالمة - ليسح في بحر من المجهول فلا تلقف إلا على جُزُر طافية يتخذ منها معالم في الخضمّ فهـ ما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ! .

والغيب في الكون كله يحيط بالانسان كله ، غيب في مثلث الزمان
والمكان ، وغيب في نفسه وفي كيانه ، غيب في النشأة الاولى والاخرى
والعوان بينهما ، وغيب في كل شيء مهما يشهد ظاهراً من الكون قليلاً
ضئيلاً لولا فضل الله ورحمته لحرم منه أيضاً .

وما أجمله بعد جمال القرآن قول الامام علي (ع) التلميذ الثاني للقرآن
في خطبة الأشباح في علمه تعالى وتقدس : « عالم السر من ضمائر
المضمرين ، ونجوى المتخافتين ، وخواطر رجم الظنون ، وعقد عزيمات
اليقين ، ومسارق إيماض الجفون ، وما ضمته اكنان القلوب وغيابات
الغيوب ، وما اصغت لاستراقه مصائح الاسماع ومضائف الذر ، ومشاتي
الهوام ، ورجع الهنين من الموليات ، وهمس الأقدام ، ومنفسح الثمرة من
ولائج غلف الأكمام ، ومنقمع الوحوش من غيران الجبال وأوديتها ، ومختلج
البعوض بين سوق الأشجار والحيثها ، ومفرز الأوراق من الأفنان ، ومحط
الأمشاج من مسارب الأضلاب ، وناشئة الغيوم ومتلاحمها ، ودرور قطر
السحاب في متراكمها ، وما تشقي الأعاصير بذيولها ، وتعنو الأمطار
بسيولها ، وعوم بنات الأرض في كُبان الرمال ، ومستقر الأجنحة بذرى
شناخيب الجبال ، وتغريد ذوات المنطق في دياجي الأوكار ، وما أوعبته
الأصداف ، وحضت عليه أمواج البحار ، وما غشيتهُ سُدفه ليل أو ذر عليه
شارق نهار ، وما اعتقت عليه أطباق الدياجي وسُبُحات النور ، وأثر كل
خطوة ، وحس كل حركة ، ورجع كل كلمة ، وتحريك كل شفة ، ومستقر
كل نَسْمة ، ومثقال كل ذرة ، وهماهم كل نفس هامة ، وما عليها من ثمر
شجرة ، أو ساقط ورقة ، أو قرارة نقطة ، أو نُقاعة دم ومُضغّة ، أو ناشئة
خلق وسُلالة ، لم يلحقه في ذلك كلفة ، ولا اعترضته في حفظ ما ابتدع
من خلقه عارضة ، ولا اعتورته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين ملالة ولا
فترة ، بل نفذهم علمه ، وأحصاهم عدده ، ووسعهم عدله ، وغمرهم
فضله ، مع تقصيرهم عن كنه ما هو أهله » (الخطبة ١٧٥/٤/٨٩) .

سورة الأنعام / آية ٥٩ ٦٣

« خرق علمه باطن غيب السُّرَات ، وأحاط بغموض عقائد السريرات »
(الخطبة ١٠٦ / ٢٠٥) .

« ولا يخفى عليه شخوص لحظة ولا كرور لفظة ، ولا ازدلاف ربوة ،
ولا انبساط خطوة ، في ليل داج ، ولا غسق ساج ، يتفياً عليه القمر المنير ،
وتعقبه الشمس ذات النور في الأفول والكرور ، وتقلب الأزمنة والدهور ،
من اقبال ليل مقبل ، وادبار نهار مدبر ، قبل كل غاية ومدة ، وكل إحصاء
وعدة » (الخطبة ١٦١ / ٢٨٩) .

« علمه بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين ، وعلمه بما في
السموات العلى كعلمه بما في الأرضين السفلى » (١٦١ / ٢٩٠) .

« ولا يعزب عنه عدد قطر الماء ولا نجوم السماء ، ولا سوا في الريح
في الهواء ، ولا دبيب النمل على الصفا ، ولا مقيل الذر في الليلة الظلماء ،
يعلم مساقط الأوراق وخفي طرف الأحداق » (١٧٦ / ٣١٩) .

« فسبحان من لا يخفى عليه سواد غسق داج ، ولا ليل ساج ، في
بقاع الأرضين المتطاطات ، ولا في بقاع السُّفَع المتجاورات ، وما يتجلجل
به الرعد في أفق السماء وما تلاشت عنه بروق الغمام ، وما تسقط من ورقة
تزيلها عن مسقطها عواصف الأنواء وانهطال السماء ، ويعلم مسقط القطرة
ومقرها ، ومسحب الذرة ومجرها ، وما يكفي البعوضة من قوتها ، وما
تحمل الأثني في بطنها » (١٨٠ / ٣٢٥) .

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم

بِالْبَلِّ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ
أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ
حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ
لَا يُفِرُّونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ۖ أَلَا لَهُ
الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ
ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَنْجَلَنَا
مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ
مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ
عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ
أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ
ۚ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾
وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ
بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ ۖ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾
وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ٱيْتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِئَنَّكَ الشَّيْطَانُ

فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا
 عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى
 لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا
 وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ ۚ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا
 كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ
 تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا
 كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
 يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا
 وَلَا يَضُرُّنَا وَنُزِدْ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي
 اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ ۖ أَصْحَابٌ
 يَدْعُونَهُ ۖ إِلَى الْهُدَىٰ آمَنَّا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ
 وَأَمْرُنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ
 وَآتَوْهُ ۚ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٦٠):

التوفي هو الأخذ وافيًا ، إما للروح كله وهو توفي الموت ، أم للروح الإنساني والحيواني باق في البدن وهو توفي النوم ، فالنوم - إذاً - أخ الموت ، وإما توفي الروح والجسم دون فصال بينهما وهو الأخذ وافيًا عن مكان إلى آخر كما في توفي السيد المسيح (ع) .

وفي توفي النوم آيتان أخراهما : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (٣٩: ٤٢) (١) .

وهنا « يتوفاكم بالليل » مسaire مع أغلبية المنام وهي في الليل ، وأنه أصلح من نوم النهار كما هو المستفاد من آيات المنام .

والروح المتوفى في المنام هو الروح الإنساني دون استئصال للحياة بأسرها وكما يروى عن رسول الله (ص) : « مع كل إنسان ملك إذا نام يأخذ نفسه فإن أذن الله في قبض روحه والأرد إليه فذلك قوله : يتوفاكم بالليل » (٢) ، فالنفس هي النفس الإنسانية والروح هو الحيواني ، وهو يجابوب آية الزمر « الله يتوفى الأنفس » وفي « يتوفاكم » لمحة باهرة لأن أصل الإنسان هو النفس الإنسانية ، دون الروح الحيواني فضلاً عن البدن ، فإن « كم » خطاب لنا إنسانياً ، والنفس الإنسانية هي المتوفاة بكاملها حين النوم كما الموت والفارق بينهما الروح الحيواني الباقي في النوم والذاهب مع النفس في الموت .

فحين يطلق الإنسان على مثلث كيانه نفساً وروحاً وجسماً ، فإنما المحور فيه هو النفس والآخران على هامشها .

(١) راجع للإطلاع على فصل القول حول النوم والموت إلى الزمر : ٣٤٤ من الفرقان .

(٢) الدر المنثور ١٥: ٣ - اخرج أبو شيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) : ...

سورة الأنعام / آية ٦٠ ٦٧

والواو في « يتوفاكم ويعلم » حالية تعني : يتوفاكم حال أنه يعلم ما جرحتم بالنهار .

وترى « جرحتم » تعني عمستم ؟ وعبارتها الصالحة الفاصحة : عملتم - أو - كسبتم ! ولم يأت الجرح في سائر القرآن لطلاق العمل صالحاً وطالحاً ، إنما هو العمل الطالح حيث يجرح كيان الإنسان ، ويجرح كيان العبودية ، ويجرح الحياة بأسرها - بالنتيجة - في النشاطين ^(١) .

وليس « جرحتم » تعني : عملتم بالجراحة ، حيث الجرح بالنهار تعم عمل الجراحة إلى عمل الجانحة عقيدة ونية وإرادة وسائر الطوية ، والجرح الطالح يتبنى جراحة الجانحة قبل جراحة الجارحة ، ولم تسم الأعضاء جوارح إلا لأنها الظاهرة في جرحها ، لا لأنها هي الجوارح دون سواها ، أو أنها هي العاملة صالحة وطالحة دون سواها ، فإنما الجارحة هي التي تجرح باطنية أم ظاهرية ، فلا تشمل - في الأصل - الصالحات .

ومن ثم فموقف الآية هو موقف التشديد بجوارح الأعمال والأحوال والأقوال ، والعظة بذلك التمثيل الأمثل للنوم بالموت لكي يتحلل الإنسان عن غفلته وغفوته فلا يعود يعمل الجوارح بالنهار .

ثم « ما جرحتم » تعني كلا الموصولة والموصوفة ، فهو يعلم جرحكم بالنهار ويعلم ما جرحتموه ، ومما يؤيد الاحتمالين إضافة إلى تحمل « ما » إياهما عدم ذكر لضمير الموصول ، فلا يتمحض في الموصولية بل ومعها الموصوفية .

وما هي وفاة النوم حين يأخذنا النعاس ، وفاة في صورة من صورها ، وسيرة من سيرها ، إنقطاعاً عن الحيوية العقلية والإرادية والحسية ، اللهم

(١) والآيات في الحرح هي : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات ... » (٢١: ٤٥) « والجروح قصاص » (٤٥: ٥) « وما علمتم من الجوارح مكلبين » (٤: ٥) .

إلا نمواً كالنبات وحركات حيوية حيوانية بلا إرادة حالة السبات ، والإنسان فيها على أقرب مشارف الموت ، لا يستطيع الرجوع إلى حياة اليقظة إلا ببعث رباني كما توفي : « ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمى » بعثاً عن حدث النوم كما البعث عن جَذْبِ الموت ، وابن بعث من بعث ؟ .

فهنا بعث « ليقضي أجل مسمى » في مدرسة الحياة الدنيا ، وهناك بعث « لتجزى كل نفس بما تسعى » .

وترى ما هو هنا « أجل مسمى » ؟ هل هو المحتوم ؟ وكثير من الآجال معلقة تحصل قبل المحتوم ! أم والمعلق ؟ وليس هو من المسمى ! .

قد يعني « أجل مسمى » كليهما ، مسمى محتوماً كأصل ، ومسمى معلقاً على هامشه ، مهما كان المسمى المحتوم أسمى وأفسح لمجال الإمتحان بالتكليف .

فليس الأجل المسمى - فقط - هو المقضي ، بل والمعلق كذلك من المقضي مهما اختلف قضاء عن قضاء « هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده .. » (٦: ٢) فالقصد هنا من « أجل مسمى » هو الأجل المقضي محتوماً ومعلقاً ، « ثم إليه مرجعكم » بعد قضاء الأجل ، مرجع في مثلث المراحل ، برزخاً وحساباً ونتيجة .

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (٦١):

وترى « عباده » هنا تعني خصوص المكلفين ؟ فـ « إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً » (٩٣: ١٩) قد تختصهم بهم ، كما وكل الآيات التي تحمل « عبد » بكل صيغها تعنيهم .

ولكن العبودية تعم كافة الكائنات ، فـ « إن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (٤٤: ١٧) وذلك التسبيح أيّاً كان هو عبادة

سورة الأنعام / آية ٦١ ٦٩

مهما كانت بأدنى إدراك وشعور ، ثم الحفظ الرباني يعم كل شيء : « إن ربي على كل شيء حفيظ » (٥٧: ١١) ، مهما كان المحور الأصيل في الحفظ العقلاء من عباده ، كما « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » (١١: ١٣) .

وحفظ الله تعالى بين رحماني يعم كل شيء كما في آية هود وأضرابها ، ورحيمي يخص الصالحين ، وهو بين حفظ للإيمان قدر القابلية والفاعلية ، وحفظ للعصمة الربانية على درجاتها ، ومن الرحيمي حفظ الأعمال ليوم الحساب « وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين » (١١: ٨٢) .

وهنا « عليكم » حفظ رباني رحماني يعم كل عباد الله، ورحيمي حفظاً للأعمال : « حتى إذا جاء أحدكم الموت » بأمر الله ، فليس الله - إذا - حفيظاً عما يريد من أجل مسمى « توفته رسلنا » في دائرة توفى الأموات التي يرأسها ملك الموت « وهم لا يفرطون » تقصيراً في كمية الإماتة وكيفيتها، فإنهم ماضون بأمر الله دون تمييز بين الذين جاءهم الموت .

وترى « ويرسل عليكم حفظة » ضماناً تامة للحفاظ علينا فلا علينا أن نحافظ على أنفسنا مما يصطدمنا في حياتنا وحيواتنا ؟ .

أجل ، إن علينا كل المحاولات الممكنة في حفاظنا على نواميسنا الخمسة فانه ضرورة عقلية ورسالية ، إلا أن حفاظاتنا على نواميسنا ليست بالتي تكفيها لولا أن الله يحفظنا ويرسل علينا حفظة ، فمهما ترك لنا الحرية لتتعرف.ومن العلم لتعرف،ومن القدرة لنقوم بالواجب ، ولكنها كلها محدودة بأقدارنا وقدراتنا، فنحن بحاجة ماسة الى حفظة الله ، وهذه هي المعية الربانية المعنية به «وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » (٥٧: ٤) .

ثم وليس حفظ الأعمال بتسجيلها من حفظنا ، وإنما هو الحفظ على ما لا

٧٠ الجزء السابع

يختص به الله من سائر ما أمرنا بالحفاظ عليه من أمورنا الاختيارية الاختبارية .

ولأن الحفظ رحمانياً ورحيمياً يعم حفظ الروح إلى حفظ الجسد ، فلا بد للحفظة بأمر الله من الإطلاع على موارد واجب الحفظ فيهما ، والله هو الذي يُطلعهم على ما أرسلوا لحفظه .

وهل إن هؤلاء « الحفظة » هم رسل الموت أم سواهم ؟ لا تدل الآية على أحدهما ، وقد تلمح « رسلنا » دون « حفظة » أو « توفوهم » إلى أنهم غيرهم ، ويؤيده أن الملائكة العمال درجات ، لكل طائفة منهم عملية كما يأمر الله ، فلا خلط - إذاً - مبدئياً إلا أن يدل عليه دليل .

وكما أن الحفظ الرباني من الغيب كذلك توفيه لنا ، فإذا جاءت اللحظة المرسومة المسماة ، الموعودة لكل نفس وهي غافلة ، أدى رسول الموت مهمته وقام برسالاته هذه بعدما أدى الحفظة رسالة حفظهم دون أي تناحر بين الرسالتين .

﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ (٦٢) :

أتراهم بعد توفيتهم لهم مكوث حتى يردوا إلى الله مولاهم الحق ؟ « ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » قد ينحى ذلك الرد إلى يوم البعث ، وأما البرزخ ففيه حكم وحساب مؤقت ، فـ « ثم » المراخية لردهم لمحة إلى الحساب المترaxي يوم الحساب ، ثم و « هو أسرع الحاسبين » على وفر العباد المحاسبين ، وقد روي أنه سبحانه يحاسب جميع عباده على مقدار جلب شاة ^(١) ، ولو شاء لأسرع أسرع من حلبة شاة .

(١) مجمع البيان وروي . . وروي عن أمير المؤمنين (ع) أنه سئل كيف يحاسب الله سبحانه الخلق ولا يروونه ؟ قال : كما رزقهم ولا يروونه .

سورة الأنعام / آية ٦٢ - ٦٤ ٧١

أجل إنه ليس مردُّهم جميعاً إلّا إلى « مولا هم الحق » دون سائر
الموالي فإنها باطلة كلها في حقل الربوبية المزعومة لها .

والرد هنا هو الرجوع ، فلأنهم ، بلا شعورهم وعقلهم وإختيارهم كانوا
عند الله في كل حول وقوة ، ثم الله نقلهم إلى عالم الإختيار ، ومن ثم
يرجعهم إلى ما كانوا بفارق الحساب والأحساب ، لذلك فقد يصح التعبير
عن هذه النقلة بالرد والرجوع إلى الله .

ولأن الله هو نفسه ليس منتهى غاية زماناً أو مكاناً أو وصولاً إلى ذاته أم
أفعاله وصفاته، فالرد إليه هو الرد إلى ربوبية جزاءه منذ الموت ، بعدما عاشوا
ربوبية تكليفه رَدَحَ التكليف .

وهنا « ألا له الحكم » يضم كأهم موارده حكم الرد والحكم الحساب
بعد الرد ، فلا حساب إلّا على الله وكما لا رد ولا رجوع إلّا إلى الله ،
فهـ إياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم « تُردُّ أو تؤوّل بما يناسب إنحصار
الإياب والحساب في الله يوم الإياب والحساب ، ككونهم موازين
الأعمال ، فبهم - كأمثولات عليا ويرأسهم الرسول (ص) - توزن الأعمال ،
ثم يردون إلى الله لعدل العقاب أم فضل الثواب .

ذلك ، ومن ثم يحاكمنا ربنا إلى فطرنا العارفة إياه حيث تلتجىء إليه
في ساعة العسرة :

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ
أُنْجَاكُمْ مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ
كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ (٦٤) :

« ظلمات البر » هي ظلمات الليل فيه وظلمات الظلمات ليل نهار ،
أضافة إلى ظلمات السحاب .

وظلمات « البحر » كذلك إضافة إلى ظلمات أعماقها حين تغرقون

فيها ، ومن أظلم ظلمات البحر ظلمة الليل وظلمة السحاب الغاشية وظلمة غور الماء ، إضافة إلى ظلمة الظلم حين يحكم هذه الظلمات ممن يستغل فرصها .

ففي هذه الظلمات - وقد تقطعت الأسباب وحارت دونها الأبواب - يرجع الإنسان إلى فطرته حيث تزول غباراتها المختلفة المختلفة بزوال أسبابها الغاشية المتخيلة حيث يغيب كل سبب ومسبب .

وقد يعني تخصيص الظلمات هنا بالذكر أخص الحالات المضطربة حيث تخفى الأسباب المتخيلة مهما كانت كائنة ، فهي - إذاً - أيأس الحالات عن كافة الأسباب ، حيث لا يبقى في الدور إلا مسبب الأسباب .

إذاً - وبطبيعة الحال - « تدعونه » لا سواء، حيث ضل من كنتم تدعونه إلا إياه ، « تدعونه تضرعاً » إليه لا سواء « وخفية » وهي من آداب الدعاء كما يروى عن النبي (ص) قوله : « خير الدعاء الخفي وخير الرزق ما يكفي ، ومر بقوم رفعوا أصواتهم بالدعاء فقال : إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً وإنما تدعون سميعاً قريباً » (١) .

أجل « خفية » كأدب لو خلي الداعي وطبعه ، ولا سيما إذا كان وحيداً ، فقد يتعرض الدعاء جهراً للرثاء كما في جمع ، أم للجهالة كأن يخيل إلى الداعي كأن بالمدعو صمماً ، ثم الخلو منهما يرجع فيه « خفية » إلا إذا تعني تعليم من معك ، أو تلتذ برفع صوتك بالضراعة والدعاء حينما تأمن الرثاء فأحرى لك إذا أن تدعوا جهراً .

فالدعاء في أصله تضرع في خفية : « أدعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا

(١) مجمع البيان « من فوقكم » السلاطين الظلمة و « من تحت أرجلكم » العبيد السوء ومن لا خير فيه وهو المروي عن أبي عبد الله (ع) « أو يلبسكم شيعاً » يضرب بعضكم بما يلقيه بينكم من العداوة والعصية وهو المروي عن أبي عبد الله (ع) .

سورة الأنعام / آية ٦٥ ٧٣

يحب المعتدين « (٥٥: ٧) لأنه بالنسبة للمدعو : « سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » (١٣: ١٠) ، ولكن دعاء الخفية قد يراد منه الإخفاء عمن يسمعه ، تستراً عن حكم الفطرة بهذه الحالة الانقطاعية .

وهنا « تدعونه تضرعاً وخفية » قد تعني « وخفية » للدعاء والتضرع فيه لكي يخفى على من يعرفونكم بحالة الإشراف ، تستراً عن إيمان الفطرة وفطرة الإيمان ، إذا فالخفية في الدعاء خفيتان صالحة كأصلحها وطالحة كأنحسها وبينهما عوان ، وكل ذلك إعتباراً بمختلف الملابس الطارئة .

وهنا « قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب » إجابة من الفطرة يقولها فاطرها لأنها باهرة غير خفية « ثم أنتم » الساجون بدعاءكم ، الواعدون : « لنكونن من الشاكرين » - « أنتم » أنفسكم أيها الخونة الكاذبون « تشركون » .

و « كل كرب » هنا تحلق الإنجاء على كل المحاور مهما كانت هناك أسباب ظاهرة ، فإنها ليست لتعمل إلا بمشيئة الله .

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (٦٥) :

تهديد شديد بالمتخلفين عن شرعة الله بعذاب غامر من فوق أو نابع من تحت أو آت من بينكم ، ثالث من العذاب من نواح ثلاث تغمر الناس في خضمها ، وقد تدل على اختصاصها بالمسلمين في هذا الخطاب « أو يلبسكم شيعاً » حيث المشركون وسائر الكفار هم ملبسون شيعاً قضية مبدئهم ، وأما المسلمون فقضية مبدئهم الإسلام هي الوحدة إعتصاماً بحبل الله جميعاً .

ولكن لا تحديد في ذلك التهديد إلا بالمتخلفين الشرسين عن شرعة الحق ككل وقد سبق الخطاب المشركين المتعنتين .

إلا أن المحور - ولا سيما في يلبسكم شيعاً - هم غير المشركين فإنهم شيع بإشراكهم : « ولا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون » (٣٠: ٣٢) ولكن ليس الشيع كعذاب من العذابات يوم الدنيا ، يشمل كل من يستحقه ، سواء المشركين فبمزيد الشيع ، أو المسلمين المتوحدين فأصل الشيع ، أو المتفرقين كما هو دأبهم الدائب فبمزيده كما المشركين مهما كانوا دركات .

وقد تعني « من فوقكم » إضافة إلى عذاب السماء إلهياً وبشرياً « السلاطين الظلمة » و « من تحت أرجلكم » إضافة إلى مثل الخسف والعذابات البشرية « العبيد السود » ثم « أو يلبسكم شيعاً » لبس الخلافات بين المسلمين أنفسهم كما وهو سوء الجوار (١) .

فقد يعذبون بمن فوقهم وما فوقهم ، أو بمن تحتهم وما تحتهم ، أو بمن معهم وهم في مستواهم ، عذابات لا قبل لهم بها . . . « أنظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » .

وهل « أن يبعث » تختص عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم بما ليس للإنسان فيه صنع ؟ والعذابات الخلقية كذلك مما يبعثها الله قضية توحيد الربوبية ! فهناك ثالوث من « عذاباً من فوقكم » وأخرى « من تحت أرجلكم » والسابع : « أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض »

(١) المجمع قيل هو سوء الجوار عن أبي عبد الله (ع) وفي الدر المنثور عن ابن عباس في « عذاباً من فوقكم » قال : يعني من امرائكم « أو من تحت أرجلكم » يعني سفلكم « أو يلبسكم شيعاً » يعني بالشيع الأهواء المختلفة « ويذيق بعضكم بأس بعض » قال يسلط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب .

سورة الأنعام / آية ٦٥ ٧٥

أبواب سبع من جحيم العذاب يفتحها ربنا على من لا يفقهون وهم متخلفون عن جادة الصواب .

وقد يفوق لبسهم شيعاً وذوق بعضهم بأس بعض كافة العذابات من فوقهم أو من تحت أرجلهم ، إذأ فهو الدرك الأسفل من الدركات السبع للعذاب ، وهو الذي يخلف سائر العذابات الفوقية والتحتية .

ففي إنقسام المسلمين شيعاً وأحزاباً مذهبية أو سياسية أماهيم ، فيه ضعفهم وفشلهم ، فيسيطر عليهم السلطات الفوقية بل والقوات التحتية .

فحين يأمرنا الله تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . . . » يعني الحفاظ على كوننا وكياننا في أنفسنا وأمام سائر الناس المتربصين بنا كل دوائر السوء .

وحين نترك ذلك الاعتصام نلبس شيعاً فيذوق بعضنا بأس بعض على قدر تحليلنا عن ذلك الإعتصام .

ولقد أخذ لبسهم شيعاً منذ السقيفة منذ أن ارتحل الرسول (ص) ثم توسعت الخلافات المذهبية وتعرفت بين المسلمين مما جعلتهم شذر مذر أيادي سبا لا تحكمهم إمرة صالحة واحدة ، فهم - على كثرتهم - عائشون تحت إمرة المتأمرين الظالمين من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، المتأمرين عليهم ، المخططين ضدهم كل الخطط الخاطئة الساحقة .

ذلك ! وكما يتعوذ الرسول (ص) من هذه العذابات (١) قائلاً : أما إنها

(١) الدر المنثور ٣: ١٧ عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله (ص) « اعوذ بوجهك » أو من تحت أرجلكم » قال : اعوذ بوجهك » أو بلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » قال : هذا أهون وأيسر » اقول : أيسر في وجهه نفسه وهو أيسر لأنه يخلف عذاباً من فوقكم ومن تحت أرجلكم .

كاثنة ولم يأت تأويلها بعد ^(١) وما ورد من إجارة هذه الأمة من الأولين بدعاء الرسول (ص) معارض بمثلث المعارضات كتاباً وسنة ^(٢) .

إذاً فالأمة الإسلامية مهددة بهذه العذابات الثلاث المنقسمة إلى سبعة وعوداً بالله كما استعاذ رسول الله (ص) ، مهما شملت هذه التهديدات غيرهم بأحرى منهم .

ذلك ، وكما نرى قسماً من هذه العذابات التي يروى إجارة هذه الأمة عنها ، واقعة فيهم كـ « وسألته ألا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها » ^(٣) ! وهم في الأكثرية الساحقة يعيشون كثيراً من القرون

(١) المصدر عن سعد بن أبي وقاص عن النبي (ص) في هذه الآية : أما انها .
(٢) ما يروى عنه (ص) انه قال : اللهم لا ترسل على امتي عذاباً من فوقهم ولا من تحت أرجلهم ولا تلبسهم شيعاً ولا تلقى بعضهم بأس بعض فأتاه جبرائيل فقال : ان الله قد اجار امتك ان يرسل عليهم عذاباً من فوقهم او من تحت أرجلهم « كما في نفس المصدر ، انه يعارض « أما انها كاثنة » ولا يلائم الآية ، بل وتعارضها : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون « وليس الرسول فينا ثم وظرف العذاب الموعود عدم الاستغفار ! .

(٣) المصدر عن ابن مردويه عن ثوبان انه سمع رسول الله (ص) يقول : إن ربي زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها واعطاني الكنزين الأحمر والأبيض وإن امتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها واني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة فأعطانيها وسألته ألا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها وقال يا محمد إني إذا قضيت قضاءً لم يرد إني اعطيت لامتك أن لا أهلكها بسنة عامة ولا أظهر عليهم عدواً من غيرهم فيستبيحهم بعامة ولو اجتمع من بين اقطارها حتى يكون بعضهم هو يهلك بعضاً وبعضهم هو يسيء بعضاً واني لا أخاف على امتي إلا الأئمة المضلين ولن تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من امتي بالمشركين وحتى تعبد قبائل من امتي الأوثان وإذا وضع السيف في امتي لم يرفع عنها الى يوم القيامة وانه قال : كلها يوجد في مائة سنة وسيخرج في امتي =

الإسلامية حتى الآن تحت أنيار الذل من السلطات الكافرة .

فالروايات المروية عنه (ص) بإجارة الأمة عن سلطة عدو عليهم من غيرهم - على كثرتها - مخالفة للقرآن وللواقع المعاش لهم ، اللهم إلا أن تعني من الأمة حقهم وحقهم الآتين بشروط الإسلام .

وترى هذه الآية المهددة بلبسنا شيعاً تمنعنا عن إقامة البراهين الصادقة لإثبات المذهب الحق لأنها تعارضها براهين من آخرين ؟ .

كلاً وإنما ما تمنعنا عن ترك الإعتصام بحبل الله جميعاً ، فإن القرآن هو رمز الوحدة العريقة الدينية ، وما اختلاق المذاهب عقيدية وفقهية أماهيه إلا من مخلفات البعد عن حجة القرآن حقها وكما في خطبة الرسول (ص) : « إذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن ... » .

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبِيٍّ

مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٦٧) : تحقيق كتاب ميرزا علوم راسخ

« كذب به » إذ لا مرجع لضميره سالفاً يرجع إليه بخصوصه ، وقد ذكر توحيد الله والرد إليه والقرآن ، فكل منها مرجع له « به » على الأبدال ، وقد يشمل الرسول (ص) نفسه فإنهم كذبوه كرسول لهذه الأصول ، ولا تنافيه « قومك » إلا إذا عني هو بخصوصه فإن عبارته الصالحة إذاً : وكذب بك قومك وأنت الحق .

ثم « وهو الحق » دون « هو حق » يفرد الله تعالى بكونه المحور هنا لأنه الحق المطلق كله ، وتحت ظلاله كتابه ورسوله ويوم الحساب ، فذلك

كذابون ثلاثون كلهم يزعم انه نبي الله وأنا خاتم الأنبياء لا نبي بعدي ولن يزال في امتي طائفة يقاثلون على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي امر الله

٧٨ الجزء السابع

المربع تصلح عنايته هنا على الأبدال ، ومن ثم خامساً علّه التكذيب بواقع وعد العذاب (١) .

وهنا « قل لست عليكم بوكيل » يرد عليهم زعم استقلاله بجنب الله أو تخويله من قبل الله أن يستجيبهم في كل الآيات المقترحة ، فه لست عليهم بوكيل » تنفي عنه مستأصلاً وكالته عليهم ، حفاظاً لهم ، أو حملاً لهم على الإيمان ، أو إستجابتهم فيما يهوون .

ثم « لكل نبي مستقر » تحليق للأنباء الربانية ومنها « ... على أن يبعث ... » لمحة إلى واقع لمثلث العذاب في مسبعة حين تستحقها الأمة الإسلامية بتخلفاتها .

« وسوف تعلمون » مستقر الأنباء هنا أو يوم يقوم الأشهاد ، إستقرارها ومكانه ، فان هذه الثلاث معنية مستقرة بطلاق « مستقر » مصدراً واسم زمان ومكان .

إذاً فلا خلف لوعده في أنباءه بمستقراتها في نشأتها الثلاث إذا كانت محترمة كهذه الثلاث .

ذلك ، وإنها تحمل الطمأنينة الواثقة بالحق ، وثوقاً بنهاية الباطل مهما تبجح ، أخذاً لأهله يوماً ما في الأجل المرسوم .

وما أحوج الدعات إلى الله أمام المكذبين الجفات إلى هذه الطمأنينة

(١) الدر المنثور ٣: ٢٠ - اخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن اسلم قال : لما نزلت « قل هو القادر .. » قال رسول الله (ص) : لا ترجعوا بعدي كافراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف ، فقالوا : نحن نشهد ان لا إله إلا الله وانك رسول الله قال : نعم فقال بعض الناس لا يكون هذا ابداً فأنزل الله : « انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون وكذب به قومك وهو الحق » .

الوائفة ، مع ما فيها من تهديده دامغة لهؤلاء الأنكاد .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٦٨) :

« وإذا رأيت » أنت الرسول ^(١) أو أي من المرسل إليهم ^(٢) فإنها رؤية المسؤولية السلبية « الذين يخوضون في آياتنا » خوض التشكيك والتكذيب والتجديف والتجديل والتحريف ، إثارة لأحاديثها ليستشفوا بواطنها ويعلموا حقائقها ، تحميلاً عليها ما يهونها تكذيباً لها وتشكيكاً فيها كالخابط في غمرة الماء لأنه يثير قعرها ويسبر غمرها فيغرق في اعماقها وأغوارها .

« فأعرض عنهم » حين لا تنفعهم الذكرى التي بها ينتفعون إهداءً أو يتركون بقاءً على كفرهم دون خوض ودعاية على آياتنا .

وجامع الخوض في آياتنا « يكفر بها ويستهزأ » بها كما في آية النساء : « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله

(١) الدر المنثور ٣ : ٢٠ - اخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريح قال : كان المشركون يجلسون إلى النبي (ص) يحبون أن يسمعوا منه فإذا سمعوا استهزأوا فنزلت « وإذا رأيت ... » قال : فجعلوا إذا استهزأوا قام فحذروا وقالوا : لا تستهزأوا فيقوم فذلك قوله : لعلهم يتقون أن يخوضوا فيقوم ونزل : « وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ... » وفي تفسير العياشي عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية قال : الكلام في الله والجدال في القرآن .

(٢) المصدر اخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : لما هاجر المسلمون إلى المدينة جعل المنافقون يجالسونهم فإذا سمعوا القرآن خاضوا واستهزأوا كفعل المشركين بمكة فقال المسلمون لا حرج علينا قد رخص الله لنا في مجالستهم وما علينا من خوضهم فنزلت بالمدينة « وإذا رأيت ... » .

٨٠ الجزء السابع

جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً» (١٤٠) والنازل في الكتاب هناك هو النازل هنا في الأنعام ، و«عليكم» فيها تحول الخطاب هنا إلى غير الرسول (ص).

ذلك ، و«الكفر على أربع دعائم ، على التعمق والتنازع والزيف والشقاق ، فمن تعمق لم يُنب إلى الحق ، ومن كثر نزاعه بالجهل دام غمّه عن الحق ، ومن زاغ ساءت عنده الحسنة وحسنت عنده السيئة وسكر سُكر الضلالة ، ومن شاقَّ وعُرت عليه طريقه ، وضاق عليه مخرجه» (٣١/ح/٥٧٠).

فالقعود مع الخائضين في آيات الله تسالماً أو إستسلاماً نفاق مع هؤلاء الرفاق ، اللهم إلا عند الضرورات التي تبيح المحضورات تقية على الأهم بترك المهم .

«وإما ينسينك الشيطان» تعني - فقط - من قد ينسيه الشيطان ، وليس منهم رسول الهدى فإنه ليس له عليه سلطان نسياناً وغير نسيان ، وهو خارج - كأصل - عن ذلك الخطاب وكما دلت عليه آية النساء «عليكم» ولا نجد آية تحمل ذلك النهي إلا هي ، «فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين» .

وترى كيف تتجاوب «إما» الشرطية المخالفة للبت مع «ينسينك» ؟ . إنها شرطية يحاول صاحب شرطها مؤكداً للإنساء ، فليحاول كفاحاً صارماً من يُنسيه الشيطان ألا ينسيه ، وإذا أنساه فليجبره ألا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ، ف«إما» تشكيك حيث واقع الإنساء غير محتوم بل وسلبه محتوم للمخلصين .

وترى النسيان هنا بإنساء الشيطان هو نسيان الحظر بعد علمه ؟ فعنده يسقط التكليف ! إنه في الأصل نسيان التناسي فإنه من عمل الشيطان ،

دون أصل النسيان ككل، الذي هو طبيعة الحال في الإنسان ، مهما شملته « إما ينسينك » فإن إنسائه محظور القعود معهم ليس إلا بتساهل المكلف عن مسؤوليته وإلا فكيف ينساها ! ولذا ذكر بعد النسيان آياً كان سبب رباني هو الرجوع إلى الله^(١) ثم ترى « أعرض عنهم » هل تختص بالقيام عنهم خروجاً عن جمعهم - فقط - وكما تدل عليه « فلا تقعد بعد الذكرى » ؟ .

ولكن « أعرض » يعم القيام عنهم إلى سائر معارض الإعراض ، فالقعود المحظور معهم هو المتحلل عن الإعراض ، فإن قمت عنهم دون إعراض فقد تركته إلى القعود معهم في مسايرتهم مهما قمت عنهم .

وهنا « الظالمين » توسعة لحكم التحريم ببيان حكمته ، أن القعود معهم محظور مهما كانوا خائضين في آيات الله مكذبين ومستهزئين كأنحس الظلم ، أم كانوا فاسقين ، فالقعود في مجلس الظالمين محظور في كل

(١) نور الثقلين ١: ٧٢٨ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى داود بن القاسم الجعفري عن محمد بن علي الثاني عليهما السلام قال أقبل أمير المؤمنين (ع) ذات يوم ومعه الحسن بن علي عليهما السلام وسلمان الفارسي وأمير المؤمنين (ع) مثلك على يد سلمان فدخل المسجد الحرام فجلس إذا أقبل رجل حسن الهيئة واللباس فسلم على أمير المؤمنين (ع) فرد عليه فجلس ثم قال يا أمير المؤمنين اسألك عن ثلاث مسائل ان أخبرني بهن علمت أن القوم ارتكبوا من امرك ما قضى عليهم انهم ليسوا بمؤمنين في دنياهم ولا في آخرتهم وان تكن الأخرى علمت انك وهم شرع سواء فقال له أمير المؤمنين (ع) سلني عما بدا لك قال : أخبرني عن الرجل إذا نام أين تذهب روحه ؟ وعن الرجل كيف يذكر وينسى ؟ وعن الرجل كيف يشبه الأعمام والأخوال ؟ قال : فالتفت أمير المؤمنين (ع) إلى أبي محمد الحسن ولده (ع) فقال يا أبا محمد أجبه فقال (ع) أما ما ذكرت من أمر النسيان فإن قلب الرجل في حق وعلى الحق طبق فإن صلى الرجل عند ذلك على محمد وآل محمد صلاة تامة انكشف ذلك الطبق عن ذلك الحق فأضاء القلب فذكر الرجل ما نسيه وإن هو لم يصل على محمد وآل محمد أو نقص من الصلاة عليهم انطبق ذلك الطبق على ذلك الحق فاطلم القلب ونسي الرجل ما كان ذكر . . .

دركات الظلم (١) إلا نهياً عن المنكر فمجبور (٢) ، فإنما المحذور هو قعود النفاق وما أشبه من سائر الوفاق معهم كالرفاق ، سواء تأثر بخوضهم وظلمهم فأنحسه ، أم لا يتأثر كما لا يؤثر فدونه نفاقاً ، فلا يبرر القعود في

(١) نور الثقلين ١: ٧٢٥ في اصول الكافي بسند متصل عن ابي عبد الله (ع) قال : ثلاثة مجالس يمقتها الله ويرسل نقمته على أهلها فلا تقاعدوهم ولا تجالسوهم ، مجلساً فيه من يصف لسانه كذباً في فتياه ومجلساً ذكر أعدائنا فيه جديد وذكرنا فيه رث ومجلساً فيه من يصد عنا وأنت تعلم ، ثم تلا (ع) ثلاث آيات من كتاب الله كأنما كن في فيه - أو قال - كفه : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم » - « وإذا رأيت .. » - « ولا تقولوا لما تصف السستكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب » .

اقول : هذه مصاديق ثلاث من مجالس الظلم ، وهي تؤيد تطبيق الظلم في الآية . وفي نور الثقلين ١: ٧٢٦ عن العلل عن علي بن الحسين عليهما السلام قال : ليس لك ان تقعد مع من شئت ... ثم استند الى هذه الآية « وإذا رأيت .. » وفيه عن تفسير القمي بسند متصل عن عبد الأعلى بن أعين قال : قال رسول الله (ص) : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس في مجلس يسب فيه امام او يغتاب فيه مسلم إن الله يقول في كتابه : « وإذا رأيت .. » وفيه عن الكافي عن ابي عبد الله (ع) قال : ما اجتمع ثلاثة من الجاحدين الا حضرهم عشرة اضعافهم من الشياطين فان تكلموا تكلم الشياطين بنحو كلامهم وإذا ضحكوا ضحكوا معهم وإذا نالوا من اولياء الله نالوا معهم فمن ابتلي من المؤمنين بهم فإذا خاضوا في ذلك فليقم ولا يكن شرك شيطان ولا جليسه فإن غضب الله عز وجل لا يقوم له شيء ولعنته لا يرد لها شيء ثم قال (ع) : « فإن لم يستطع فليذكر بقلبه وليقم ولو حلب شاة أو فواق ناقة » .

وفيه في الفقيه قال امير المؤمنين (ع) في وصيته لابنه محمد بن الحنفية : ففرض على السمع ان لا تصنى به إلى المعاصي فقال عز وجل : « وإذا رأيت .. » ثم استثنى موضع النسيان فقال : « وأما ينسيك .. » .

(٢) المصدر عن الكافي عن ابي عبد الله (ع) قال : لا ينبغي للمؤمن ان يجلس مجلساً يعصى الله فيه ولا يقدر على تغييره .

مجلس الظلم إلا واجب النهي عن المنكر أو محذور الإضرار فيما يتقدم على محذور القعود معهم .

ثم وليس فحسب ، بل ومجالسة العصاة وإن فيما لا يعصون الله فيه محذور مهما كان أقل حظراً من مجلس الظلم ^(١) فإن في ترك مجالستهم مرحلة حاسمة من النهي عن المنكر ، ومن ثم فـ « مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار » و « إياك ومصاحبة الفساق فإن الشر بالشر ملحق » ^(٢) فـ « مجالسة أهل الهوى منسأة للإيمان ومحضرة للشيطان » ^(٣) .

وترى « حتى يخوضوا في حديث غيره » تسمح للقعود معهم إذا تركوا الخوض بالفعل مهما ظلوا ظالمين ؟ الظاهر نعم ، ولكن بالنسبة لشديد

(١) المصدر عن الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن بكر بن محمد عن الجعفري قال سمعت أبا الحسن (ع) يقول : مالي رأيتك عند عبد الرحمن بن يعقوب ؟ فقال : إنه خالي ، فقال : إنه يقول في الله قولاً عظيماً يصف الله بما لا يوصف فإما جلست معه وتركتنا وإما جلست معنا وتركته فقلت هو يقول ما شاء أي شيء عليّ منه إذا لم أقل ما يقول ؟ فقال أبو الحسن (ع) أما تخاف أن تنزل به نقمة فتصيبكم جميعاً ؟ .

وفيه عن الفقيه روى محمد بن مسلم قال : مر بي أبو جعفر وأنا جالس عند القاضي بالمدينة فدخلت عليه من الغد فقال لي : ما مجلس رأيتك فيه أمس ؟ قال قلت : جعلت فداك ان هذا القاضي لي مكرم قريباً جلست إليه فقال لي : وما يؤمنك ان تنزل اللعنة فتعمك معه .

(٢) المصدر ينقل الحديث الأول عن عيون الأخبار بإسناده إلى عبد العظيم بن عبد الله الحسيني قال قلت لأبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام يا ابن رسول الله (ص) حدثني عن آباءك عليهم السلام قال : قال أمير المؤمنين (ع) : مجالسة . . . والثاني عن نهج البلاغة عنه (ع) .

(٣) نهج البلاغة الخطبة ١٥٢/٨٤ .

الحظر المهدد بكونه نفاقاً عارماً ، وأما حظر مجالسة الظالمين نهياً عن المنكر فهو عنوان آخر له حكمه دون تناحر بينهما .

ذلك ، وهل على الذين يتقون الخوض والقعود مع الخائضين من حسابهم من شيء وكما قد يخيل إليهم ، كلاً ، فإنما عليهم الذكرى لعلهم يتقون :

﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (٦٩) :

ليس من حساب هؤلاء الخائضين شيء على الذين يتقون كل المحاذير ، « ولكن ذكرى » أن يذكروهم عظة وحكمة نهياً عن المنكر « لعلهم يتقون » فإذا تأكدوا من إصرارهم فلا ذكرى أيضاً فلا قعود معهم لذكراهم فإنهم لا يتقون .

فمن لا يجد من نفسه احتمال التأثير ، أم يوجد محتمل التأثير لنفسه من مجلس الظلم ، فقعوده محذور ، ومن يجد من نفسه محتمل التأثير ، وإن بمزيد البلاغ وبيان الحجة لهم فقعوده معهم محبور ، فالقعود مع الظالمين تائراً أو تأثيراً بين محذور ومحبور ، فحتى إذا لم يتأثروا ولم يؤثروا فهو أيضاً محذور لأنه مسايرة معهم فيما هم يعملون .

ذلك وكضابطة - إلا ما يستثنى - القعود مع الظالمين وإن في غير ظلمهم محذور ، فإنه مجارة معهم ، ثم التأثير بظلمهم هو طبيعة الحال من عشرتهم ، ولا أقل من أن يصبح الظلم هيناً في نظره ومنظره ، وإن يكسب الظالم شرفاً ومدداً من عشرته ، وأن يتهم عند المتقين منها ، وأنها ترك لمرحلة أخيرة من النهي عن المنكر .

وكل من هذه الزوايا الخمس من مخمس عشرتهم ، تكفي بنفسها لحظرها ، اللهم إلا أن تجبر بالنهي عن المنكر وإلقاء الحجة وإنارة

المحجة ، القاضية على هذه الزوايا ، الماضية في الدعوة إلى الله .

ذلك ، وكما « ما على الذين يتقون من حسابهم من شيء » فعلى الذين لا يتقون ، قعوداً معهم وتركاً لنهيهم « من حسابهم شيء » وكما في آية النساء « إنكم إذا مثلهم » وشيء حسابهم الذي هو عليهم ليس نفس حسابهم ، فإنما هو مثله قدر ما اكتسبوا من الإثم معهم حيث « لا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . . . » .

وهنا احتمال ثان أن ضمير الجمع في « من حسابهم » راجع إلى « الذين اتقوا » أنهم لا يحاسبون على أعمالهم أبداً إكراماً لتقواهم ، وكما : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً » (٤ : ٣١) ولكنه معنى هامشي على أصله المذكور .

فالذين حياتهم حياة التقوى كأصل لا يحاسبون على شيء من أعمالهم مهما تفلتت منهم سيئات ، وهم في صورتهم الوضاعة الخاصة أخرى من عامة مجتنبى الكبائر .

ومن حسابهم الذي ما عليهم منه من شيء هو القعود مع الظالمين إذا اتقوا ظلمهم وملابسات القعود معهم ، ولا سيما إذا تركوه بعدما نسوه : « وإما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » وبالأخص إذا كان القعود معهم لأداء فريضة أو سنة إسلامية دون تقصّد لمجالستهم ، كالدخول في المسجد الحرام للطواف والسعي ، والذهاب إلى سائر المشاعر لأداء سائر المناسك فـ « ما على الذين يتقون من حسابهم من شيء » حين يكون جلوسهم معهم بطابع التقوى « ولكن » يبرز ذلك القعود « ذكرى » لهم « لعلم يتقون » .

ولأن الآية تحتل المعنيين - إذا - فهما معاً معنيان ، إلا أن « يتقون » في الأول أوسع من الثاني حيث شملت التقوى عن القعود مع الظالمين ،

ولكنه - شرط أن يتقوا عن ظلمهم بملايساته - خارج عن الكبائر فداخل في الصغائر المكفرة بترك الكبائر ، كما وهم يتقون بنفس الدخول معهم لتحقيق فرائضهم .

ذلك ، وترى الرسول حين يؤمر ألا يقعد مع الخائضين ، كذلك يؤمر بترك تذكيرهم ، المأمور به « عذراً أو نذراً » فمهما كان « سواء عليهم » أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون « ولكنه ليس سواء عليه ، فعليه الإستمرار في الإنذار مهما كان عليهم سواء ولكنه لا يقعد معهم فيه فينذرهم من هذه الناحية ولا يذرهم في حقل الإنذار ، وهو لأقل تقدير لا يقدر أن يترك المسجد الحرام لأنهم فيه كما المسلمون^(١) .

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٠) :

البسّل في الأصل هو المنع والحبس ، ومنه يقول العرب للحرام بسّل ، كما البسالة : الشجاعة هي المناعة ، فـ « أن تبسل نفس » تعني أن تحرم نفس وتحبس عما تعني وترهن فـ « كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين » (٧٤ : ٣٩) - إذا - فـ « ذكر به » تمحور غير أصحاب اليمين ، المرتهين بما كسبوا حتى يصبحوا منهم فلا يرتهنوا .

والإبسال بالكسب هو أن يحرم نفسه من الصلاح والفلاح بمكاسب

(١) نور الثقلين ١ : ٧٢٨ عن المجمع قال أبو جعفر عليهما السلام لما نزل « فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » قال المسلمون كيف نصنع ان كان كلما استهزأ المشركون بالقرآن قمنا وتركناهم فلا ندخل إذا المسجد الحرام ولا نطوف بالبيت الحرام فأنزل الله « وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء » - « امر بتذكيرهم وتبصرهم ما استطاعوا » .

سورة الأنعام / آية ٧٠ ٨٧

السوء ، التي ترين القلب : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (٨٣: ١٤) : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٢: ٨١).

فذر الذين اتخذوا دينهم لعباً لهواً وغرتهم الحياة الدنيا « متحكماً بهم عليهم ذلك الثالث المنحوس التي هي من أشر وأخطر مكاسب سوء .

ذرهم أن تقعد معهم ، ولكن لا تذرهم عن الذكرى ، بل « وذكر به » : القرآن ، مهما لا يتذكر به إلا من يخاف وعيد .

« ذكر به أن تبسل نفس بما كسبت » قطعاً لها وحرماناً بأشدّه قضية ما كسبت من سوء فإن للذكرى محاصيلها في كل الظروف والملايسات اللهم إلا ! وهي لأقل تقدير حجة متواصلة على هؤلاء الذين « سواء عليهم » أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » ، فإنما على المنذرين إلقاء الذكر متواصلاً دون إلغاءه « فالمليقيات ذكراً . عذراً أو نذراً » (٧٧: ٦).

إذاً فعليه (ص) بالنسبة لهؤلاء الأغباش الأوباش جامع الإعراض عنهم عشرة وملاطفة وقعوداً معهم ، تركاً لمسائرتهم وتحفظاً على كرامة الإيمان ونهياً عملياً عن منكراتهم ، ثم وذكرهم رغم إعراضهم عنها كمسؤولية رسولية ، وأما الرسالية فهي أخف وطأة منها .

وترى « الذين اتخذوا دينهم . . » يختص بالمشركين بدينهم الإشراك ؟ والنص يعمهم إلى سواهم ، فالذين يدينون دين الحق في ظاهر الحال ولكنهم يتذرعون بها إلى أهواءهم الساقطة الماقتة ، يلعبون بدينهم ويلتهون عنه إلى أهواءهم « وغرتهم الحياة الدنيا » عن الحياة العليا « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » ولكن لا تترك ذكرهم « أن تبسل نفس بما كسبت . . . » .

« أن تبسل » إقفالاً على نفسه وإغفالاً عما يعنى لها « بما كسبت » من

أسباب الإغفال الإقفال ، وهي حال إبساله « ليس لها من دون الله ولي » من دون الله فالله هو الولي « ولا شفيع » عند الله إذ لا يشفعون إلا بأذنه و « إلا لمن ارتضى » « وان تعدل كل عدل » وفداء عما أبسلت بما كسبت « لا يؤخذ منها » أي عدل وفداء ، فإن « أولئك » هم « الذين أبسلوا بما كسبوا » لا بما فعل الله ، فـ « لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » بالله ، أو « يكفرون » بنعمة الله ، كفرأ أو كفراناً قد تعنيهما « يكفرون » .

صحيح أن مصب هذه الآيات - الأصيل - هم المشركون الوثنيون ، ولكن سائر المشركين كتابيين كانوا أو مسلمين أليسوا هم مبسلين بما كسبوا من تطرفات إلى الإشراك ؟!

سواء أكان إشراكاً بتقديم شعائر تعبدية لأحد مع الله كأن يسجدوا أو يركعوا لغير الله إحتراماً فإنه اخترام لساحة الله ، أو بتقبل الحاكمية والشرعة من أحد مع الله ؟ .

﴿ قُلْ أُنذِعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٧١) :

« قل » لهؤلاء الداعين من دون الله « أندعوا من دون الله » من أو « ما لا ينفعنا » حتى ندعوه تحبياً « ولا يضرنا » حتى ندعوه تجنباً « ونرد على أعقابنا » من جاهلية الإشراك بالله .

« بعد إذ هدانا الله » الذي ينفعنا ويضرنا ، فمثلنا إذاً في السقوط في هوات الضلالة والمتاهة الحائرة المائرة « كالذي استهوته الشياطين » من الجن والإنس « في الأرض » أرض المسؤولية والتكليف حالكونه « حيران »

سورة الأنعام / آية ٧١ ٨٩

من ذلك الإستهواء الإستغواء ، وحال أن « له أصحاب يدعونه إلى الهدى »
بمختلف الدعوات الصالحة قائلين « إئتنا » كما كنتم ردحاً معنا ، رجوعاً
إلى ما كنتم من الهدى « قل » لهؤلاء وهؤلاء « إن هدى الله » لا سواه « هو
الهدى » لا سواه « وأمرنا لنسلم لرب العالمين » فإنه الهدى .

فالرجوع إلى دعوة غير الله هو الرجعية السوداء مهما كان من
الحضاريين ، والإنقلاب إلى دعوة الله هو التقدمية البيضاء مهما كان من
القدامى الماضين .

وترى « نرد على أعقابنا » تدل على أعقاب الشرك لهم وفيهم
الرسول (ص) الذي ما زال ولم يزل موحداً كأحسنه وأكمله ؟ .

كلأ ! فإن « أعقابنا » قد تعني الانقلاب إلى واقع الشرك الماضي ،
وأخرى إلى حالة الشرك مهما لم تسبق له سابقة حيث يقال لكل معرض عن
الحق أنه رجعي راجع إلى الوراء ، فإن الوراء لا تعني - فقط - كونه في
زمنه ، بل وكيانه ، وهو الإنتقاص بعد الكمال والإنتقاص بعد الإستحكام
في النوال .

ذلك ، وكما تعني « قل » القول الرسالي عن المجموعة المؤمنة ، دون
القول الرسولي عن نفسه المقدسة التي كونت على التوحيد الوطيد ، وذلك
قضية إصطفائه على العالمين ، فكيف يُصطفى من له سابقة إشراك على
من لم تسبق له من الناشئين، على التوحيد الحق وحق التوحيد .

فهنا « بعد إذ هدانا الله » تعم هدى الفطرة والعقلية والوحي ،
المجتمعة في رسول الهدى (ص) منذ ولاده ، والمتفرقة فيمن سواه ممن
آمن ثم كفر ، أو كان كافراً ثم آمن، أو من يمكن في حقه الانقلاب من
إيمان إلى كفر أو من كفر إلى إيمان ، وليس منهم رسول الهدى (ص) ومن
يخذوا محذاه ويرمي مرماه .

والإستهواء هنا من كلا الهويّ والهوى ، فما لم يستهو الشيطان هوى لم يكن ليستهوي هويّاً ، فالخطوات الأولى من الشياطين هي تتركز على إستهواء الهوى ، طلباً لها لكي تهوى ما تهوى ، ثم تتبع هوى الشياطين ومن ثم تستهوي هويّاً في الأرض من كلّ علٍ إلى كل سفلى : « ... ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق » (٢٢ : ٣١) .

إذاً فـ « استهوته الشياطين في الأرض » هويّاً ، هي تطلب سقوطهم من المكانة العالية الانسانية والايمانية الى هوات ساقطة وهيدة بعيدة في ظلمات الأرض ، فهم - إذاً - سيقّة الشيطان وكرة لأقدامه ، أينما يستهويهم يهوونه، وذلك هو الضلال البعيد، والحيرة الحائرة المائرة ، والأرض تعني أرض حياة الأهواء والشهوات .

ذلك ، وأخيراً نسأل أدبياً : كيف « هو الهدى » و « هدى الله » مؤنث لغويّاً ؟ والجواب أنه يجوز أدبياً حين يكون الضمير ضمير فصل و « هو » هنا فصل ، ومن ثم لا سؤال إعتراضاً على الله فيما يفعل أو يقول حيث القرآن هو المحور الأصيل لكل أدب وأديب أريب ، فإنه الصادر عن خالق الإرب الآداب ، فهو المصدر لكل أديب وآداب .

فحتى إن لم يكن « هو » هنا ضمير فصل لكان برهاناً أدبياً على سماح رجوع ضمير المذكر إلى مرجع مؤنث مجازي ، وقد قال الله : « وقال نسوة في المدينة ... » مما يسمح لتذكير الفعل للمؤنث الحقيقي فضلاً عن المجازي .

ذلك ، ومن ثم « أمرنا لنسلم » متحولة إلى أمرنا بالإسلام لرب العالمين ، تقديراً لـ « أن » الناصبة .

ولأن الإسلام لله درجات فالمسلمون لله - كذلك - درجات « ولكلّ

سورة الأنعام / آية ٧٢-٧٣ ٩١

درجات مما عملوا» إسلام للوجه بكل الوجوه : الظاهرة والباطنة « الله رب العالمين » .

ذلك ، وكما أمرنا - كأبرز مصاديق الإسلام جانحة وجارحة - :

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٧٢):

فإقام الصلاة إقام لكل الصلوات بالله ، زلفى إليه بالصلاة التي هي أقرب الصلوات .

ويا للصلاة من وسط بارع بين « لنسلم » و « واتقوه » فالصلاة تضم في جنباتها إسلاماً لله وتقوى الله ، فهي خير موضوع حين تقام بكل قواماتها في صورتها وسيرتها .

ثم « وهو الذي إليه تحشرون » دون من سواه وإن كان رسول الله (ص) فإنه أيضاً من المحشرين إلى الله .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (٧٣):

فلأنه « هو الذي خلق السماوات والأرض بالحق » ف« هو الذي إليه تحشرون » فلولا الحشر إلى الله لكان خلق السماوات والأرض باطلاً : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » (٢٧: ٣٨) - « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين » (٣٨: ٤٤) .

فذلك الخلق الشاسع الواسع ، بذلك النظام البارع ، وتلك المظلمات الواقعة غير المنجبرة من أحسن المخلوقين ، إنه - لولا الحشر إلى ربهم - لعاطل باطل ، ولعب لاغ بالخلق ما حل ! .

« ويوم يقول كن » بعد قيامة التدمير للكون ، يقول قولاً تكوينياً لما دُمّر « كن » كوناً لصالح الحشر والحساب « فيكون » كما قال ، كما « فيكون قوله الحق » الذي قاله وعداً قبل الحشر زمن التكليف ، والذي يقوله في قيامة التعمير ، حقاً في واقعه كما كان حقاً في نبأه .

« وله الملك » هنا وهناك ، ولكنه لا يبرز لأهل الحشر تماماً إلا فيه ، فهو « مالك يوم الدين » مهما كان مالكا يوم الدنيا ، والفارق هو الخفاء يوم الدنيا والبروز يوم الدين : فـ « له الملك يوم ينفخ في الصور » نفخة الإحياء في الناقور : « فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير » (٩: ٧٤) .

ولا تعني « الصور » هنا الصُور وهي جمع الصورة ، لمكان رجوع ضمير الأفراد إليه « ثم نفخ فيه أخرى » (٦٨: ٣٩) وكما الأولى وهي نفخة الإمامة لا تناسب النفخ في صُور الأحياء في نفخة الإحياء كما هنا ، ولا صُور لمن في الأجداث حتى ينفخ فيها الأرواح ؛ « ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون » (٥١: ٣٦) (١) : « وكيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحتى جبهته وأصغى بسمعه ينتظر متى يؤمر فينفخ . . » (٢) .

« عالم الغيب » كله « والشهادة » كلها « وهو الحكيم » بما يفعل « الخبير » بما يفعل .

(١) راجع ح ٣٠ : ٣٤ - ٣٦ تجد تفصيل البحث حول النفخ في الصور والنقر في الناقور.

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٢ عن أبي سعيد عن النبي (ص) قال : كيف أنعم . . . قالوا فما نقول يا رسول الله (ص) ؟ قال : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » وفيه عن عبد الله بن عمر قال : سئل النبي (ص) عن الصور فقال : هو قرن ينفخ فيه .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

لِأَبِيهِ أَزْرَأُ اتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهَةً إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ
فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَبِئْسَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا أَفْلَحَ
جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ
قَالَ لَا أَحِبُّ إِلَّا فِيلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ
هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ
الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا
رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَلْقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ

قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ
 مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي
 كُلَّ شَيْءٍ عَلَيَّ أَفَلَا تُتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ
 مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
 عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ
 أُولَئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ جَنَّاتُ
 ءَاتِبْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّسَاءِ
 إِنْ رَبُّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ
 وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ
 نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ
 كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ
 وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنَ ءَابَائِهِمْ

وَذَرِيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ^{٨٦} وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ءَمَنُ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ ء وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ^{٨٩}
 فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِآءٍ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا
 بِكَافِرِينَ ﴿٩٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنَاهُمْ
 أَقْنَدِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا^{٩١} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٩٢﴾

مركز تحقيق كتاب تيسر علوم رسلي

هذه أربعة عشر آية هي بجملتها تتناول موضوعاً متصل الفقرات في بناء
 العقيدة ، تعريفاً شاملاً عريفاً عريقاً بالالوهية الحققة الحقيقية وحق العبودية
 الصالحة وما بينهما من صلات ، تعالجهما هذه الآيات في أسلوب
 قصصي .

وهذا الدرس البالغ لقمته ، فيه عرض لموكب الإيمان الرسالي منذ
 نوح إلى خاتم المرسلين محمد (ص) طالعاً في مطلعته مشهداً رائعاً للحجة
 الإبراهيمية الراسمة لحكم الفطرة السليمة ، تحريراً عن رب العالمين ، هو
 بظاهره تعلم في سيرة التعليم إذ كان موحداً منذ بزوغه ، لم يكفر به
 - ولن - طرفة عين :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٧٤):

هنا «أبيه آزر» ولا ثانية لها في القرآن إلا «أبيه» دون «آزر»^(١) والقصد منه غير والده كما هو المتأكد من آيات عدة ، فقد بدأ قومه ومنهم آزر المسمى بـ «أبيه» بالتنديد على عبادة الأصنام «اتخذ اصناماً آلهة إنني أراك وقومك في ضلال مبين» ورغم الحظر عن الاستغفار للمشركين يعده الاستغفار حين يتلمح من كلامه معه انه في حالة التحري : «قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً . قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيأً» (٤٨: ١٩) ولقد انجز له وعده قبل ان يتبين له انه عدو لله : «واغفر لأبي إنه كان من الضالين» (٨٦: ٢٦) إذ «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم اصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواهٌ حليم» (١١٤: ٩).

ذلك ، فقد تبرأ منه حتى آخر عمره وانجاز أمره ، ولكنه نسمعه حين يرفع القواعد من البيت هو واسماعيل يدعو لوالديه: «ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب» (٤١: ١٤).

إذا فوالده هنا غير أبيه هناك ، فهو عمه دون والده ، ولا جده من أمه لأنه أيضاً والده ، وإلا لكان نقضاً لعصمة الجليل والخليل حيث أنبأ: «فلما تبين انه عدو لله تبرأ منه» وقضية طليق التبرئ ألا يستغفر لآزر ، فلما استغفر لوالديه في آخر عمره ونهاية أمره وقد تبين أن آزر عدو لله نتأكد أن

(١) كما في ١١٤: ٩ و ٤٢: ١٩ و ٥٢: ٢١ و ٢٦: ٧٠ و ٨٥: ٣٧ و ٤٣: ٢٦ و ٤: ٦٠.

والده غير المعني بأبيه^(١).

و... « اتخذ أصناماً » منكراً ، هي من صنع المصنوعين ، تتخذها « آلهة » كما الله ، إشراكاً لها بالله « إني أراك وقومك » التابعين لك « في ضلال مبين » يبين ضلاله لأصحاب الفطر والعقول .

هنا « أصناماً » منحوتة بأيديهم وما أشبه من المصنوع ، تنكير لتكثير الأصنام ، تنكيراً فطرياً وعقلياً بل وحسياً لاتخاذها آلهة ، فهو إستفهام انكاري بأشده ، منقطع النظير بأشده ، يستأصل الأصنام وأضرابها عن كافة شؤون الألوهية .

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٧٥) :

« وكذلك » البعيدة المدى ، العميقة الصدى لملكوت الأصنام وما شابهها من السماوات والأرض « نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض .. » حيث استطاع أن يتغلب في كل حقول الحجاج مع أبيه ومع قومه ومع نمرود الطاغية ليكون .. « وليكون من الموقنين » ونتيجة لهذه الإرادة الربانية « فلما جن عليه الليل ... » .

أجل ، وكلما زادت رؤية ملكوت الكون وكيانه تعلقاً بالله ، زاد الرائي يقيناً أكثر بالله ، فلأن التعلق بالله درجات ، فملكوته أيضاً في أنفس معتقديها درجات ، كلما كان السلب أقوى وأعمق كان الإيجاب - على ضوئه - أعمق وأقوى ، بل ولا نصيب للمخلوق في معرفة الله إلا مجالات

(١) راجع لتفصيل المبحث الى آية التوبة (١١٤) والممتحنة (٤) ج ٢٨ : ٢٧٥ وإبراهيم (٤١) ج ١٣ ومريم (١٦ : ٣٣٣) تجد قولاً فصلاً حول ان أزر لم يكن والده عليه السلام ، ووجه التعبير بالأب عن غير الوالد في آيات عدة .

السلب ، فـ « لا إله » تنفي الألوهة عن كل الكائنات بحذافيرها ، ثم « إلا الله » تثبت حق الألوهة له تعالى ، ولكن ما هو وما هي صفاته وأفعاله ؟ لا نصيب له هنا إلا السلب ، موجود يعني ليس بمعدوم ، عالم يعني ليس بجاهل وهكذا الأمر . . فـ « سبحانه الله عما يصفون . إلا عباد الله المخلصين » .

وهنا تساؤلات عدة حول هذه الآية ، منها ما هي الملكوت ، وأخرى ألم يكن إبراهيم قبل هذه الرؤية من الموقنين بالله ، وإذا فكيف كان يؤنب أباه وقومه بشركهم أنهم في ضلال مبين ، وثالثة بماذا يعطف العاطف في « وليكون . . » ولا معطوف عليه ظاهراً يعطف عليه ؟ .

قد يكون المعطوف عليه « ليحتج على المشركين » كأصل في حجاجه « وليكون من الموقنين » الأولين في تلك الراءة الملكوتية ، إيقاناً فوق إيقان فإيماناً فوق إيمان، حيث الإيقان فالإيمان درجات حسب درجات رؤية الملكوت ، فما أريه إبراهيم من الملكوت له جانبان اثنان ثانيهما وهو الأعمق « ليكون من الموقنين » والأول وهو الممكن تفهمه لمتحري الحق فقر الكائنات كلها إلى ربها ، « وليكون من الموقنين » الرساليين وهم أفضل الرسل والنبیین ، لا كل الموقنين بل الموقنين القمة كإبراهيم (ع) .

ذلك ، ولرؤية الملكوت خلقياً - وهي مفروضة على كل السالكين إلى الله - درجات ، رؤية الفطرة ، ورؤية العقلية الإنسانية على ضوء الفطرة والرؤية الحسية والعلمية ، ورؤية بالوحي يكملها كلها ، كما ولكل درجات ، فليست رؤية الملكوت - إذاً - نَسَقاً واحداً وشكلاً فارداً ، ومن ثم رؤية خالقية ربانية علمياً وقيومياً خاصة بالله .

والنظرتان الأوليان إلى ملكوت السماوات والأرض هما المفروضتان على كافة المكلفين ، ذوي الفطر والعقول ، والأبصار والبصائر ، وقد يندد بمن لا ينظر بها إلى الملكوت : « أولم ينظروا في ملكوت السماوات

سورة الأنعام / آية ٧٥ ٩٩

والأرض وما خلق الله من شيء... » (١٨٥:٧) وهذه هي الملكوت العامة التي يجب النظر إليها بعين الفطرة والعقلية الإنسانية ، بعين البصر ثم البصيرة .

وهذه الرؤية لا تتجاوز علماً بماهية الكون من تعلقه بالله ، فلا إله إلا الله ، ثم هناك رؤية علمية وقبومية تختص بالله وهي رؤية أخص الخاص : « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » (٨٣:٣٦) « قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون الله قل فأنى تُسحرون » (٨٩:٢٣) .

هذه وتلك ملكوتان بينهما بون كبير ، ثم بينهما وسيطة تختص بإراءة الوحي ، وهي رؤية الخاص ، كرؤية إبراهيم ملكوت السماوات والأرض^(١) فأيقانه أيضاً هو المناسب لرؤيته ، إيقان بعصمة ربانية ليس كسائر الإيقان الحاصل بفطرة وعقلية إنسانية مهما بلغت ما بلغت من قممها ، فإنها ليست لتصل إلى عصمة طليقة تحصل بإرادة الله ، المعبر عنها ببرهان الرب : « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » (٢٤: ١٢) اللهم إلا كنموذج تصديقاً لرؤية الملكوت^(٢) وبقدر ما يتقي العبد ربه يُرزق رؤية

(١) نور الثقلين ١: ٧٣٢ عن هشام عن أبي عبد الله (ع) قال : كشط له عن الأرض ومن عليها وعن السماء ومن فيها والملك الذي يحملها والعرش ومن عليه وفعل ذلك كله برسول الله (ص) وأمير المؤمنين (ع) وفيه عن كتاب الاحتجاج حديث طويل عن النبي (ص) يقول فيه : يا أبا جهل أما علمت قصة إبراهيم الخليل (ع) لما رفع في الملكوت وذلك قول ربي « وكذلك نرى إبراهيم... » قوى الله بصره لما رفعه دون السماء حتى ابصر الأرض ومن عليها ظاهرين ومستترين .

(٢) نور الثقلين ١: ٧٣٠ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب جابر بن يزيد قال سألت أبا جعفر عليهما السلام عن قوله تعالى : « وكذلك نرى إبراهيم... » فرفع أبو جعفر (ع) بيده وقال : ارفع رأسك فرفعته فوجدت السقف متفرقاً ورمق ناظري في -

للملكوت ، ولكنها على أية حال ليست إلا دون العصمة الرسولية والرسالية في هذه الرؤية ، وكما يروى عن النبي (ص) قوله : طوبى للمساكين بالصبر وهم الذين يرون ملكوت السماوات والأرض ^(١) وقال (ص) : « لولا تكثير في كلامكم وتمريج في قلوبكم لرأيتكم ما أرى ولسمعتكم ما أسمع وقد قال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

وعن الصادق (ع) : « لولا أن الشياطين يحمون حول قلوب بني آدم لرأوا ملكوت السماوات والأرض » .

وهنا في إرادة إبراهيم ملكوت السماوات والأرض نتائج عدة رسولية ورسالية ، أهمها المذكور هنا : « وليكون من الموقنين » فإنه المحور الأساس في بناء الرسالة رسولياً ورسالياً .

وهذه الإراءة لإبراهيم - هنا - الخاصة بمعرفة الله كما تناسب محتده ، تثني في أخرى هي الإيقان بحقيقة المعاد : « إذ قال إبراهيم رب انني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن

ثلمة حتى رأيت نوراً حار عنه بصري فقال : هكذا رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وانظر إلى الأرض ثم ارفع رأسك فلما رفعته رأيت السقف كما كان ثم اخذ بيدي وأخرجني من الدار والبسني ثوباً وقال : غمض عينيك ساعة ثم قال : أنت في الظلمات التي رأى ذو القرنين ففتحت عيني فلم أر شيئاً ثم تخطى خطاً فقال : أنت على رأس عين الحياة للمخضر ثم خرجنا من ذلك العالم حتى تجاوزنا خمسة فقال : هذا ملكوت الأرض قال غمض عينيك وأخذ بيدي فإذا نحن بالدار التي كنا فيها وخلع عني ما كان ألبسني فقلت جعلت فداك كم ذهب من اليوم ؟ فقال : ثلث ساعة .

(١) نور الثقلين ١ : ٧٣٣ عن الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله (ع) قال قال النبي (ص)

قلبي .. » (٢: ٢٦٠) وقد كان موقناً أنه تحيي الموتى ، ولكنه هنا يتطلب الايقان بـ « كيف تحيي الموتى » ايقاناً معرفياً بفعل الرب على قدر دون كل الأقدار الخاصة بالله

فابراهيم الخليل كان عارفاً ربه الجليل « من قبل » وعلمه منذ ولاده : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » (٢١: ٥٢) والحجة التالية عرض لموقف الفطرة والعقلية السليمة بمعرض قومه المشركين ، نبهة لهم لعلم يذكرون .

اجل « وكذلك نرى » إراءة متواصلة لا انقطاع لها ، ولأنها أصل العصمة الربانية لإبراهيم الخليل ، فلا تعني « نرى » إراءة لاحقة ، ولا - فقط - حكاية حال ماضية ، بل هي إرادة استمرارية طول عمره ولا سيما في طائل أمره الرسالي ، إراءة تحلق على كيانات العصمة رسلاً وأئمة يخلفونهم ، ولا سيما محمد (ص) والمعصومون من عترته عليهم السلام^(١) .

(١) المصدر في الخرائج والجرائح عن ابن مسكان قال : قال ابو عبد الله (ع) في قوله تعالى : « وكذلك نرى ابراهيم .. » قال : كشط الله لإبراهيم السماوات حتى نظر الى ما فوق الأرض وكشطت له الأرض حتى رأى ما تحت نجومها (تخومها) وما فوق الهوى ، وفعل بمحمد (ص) مثل ذلك وإني لأرى صاحبكم والأئمة من بعده فعل بهم مثل ذلك ، وسأله أبو بصير هل رأى محمد (ص) ملكوت السماوات والأرض كما رأى ذلك ابراهيم (ع) ؟ قال : نعم وصاحبكم والأئمة من بعده .

وفيه عن كتاب الخصال عن يزداد بن ابراهيم عمن حدثنا من اصحابنا عن ابي عبد الله (ع) قال سمعته يقول قال امير المؤمنين (ع) والله لقد اعطاني الله تبارك وتعالى تسعة اشياء لم يعطها أحداً قبلي خلا النبي (ص) : فتحت لي السبل وعلمت الأسباب واجري لي السحاب وعلمت المنايا والبلايا وفصل الخطاب ولقد نظرت في الملكوت باذن ربي جل جلاله فما غاب عني ما كان قبلي وما يأتي بعدي ... » .

« كذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض » بما فيهما من أصنام وأوثان وطواغيت وسواها من الكائنات ، فإن رؤية حق الخلق وحقه رؤية لحق فعل الخالق قَدَرها ، مهما كانت الرؤية الطليقة خاصة بالله ، فلا يعرف نفسه كما هو إلا هو ، ثم من يعرفه نفسه بما يُريه من ملكوت خلقه ، فإن ملكوته نفسه لا ترى إلا لنفسه ، وكما يروى عن أول العارفين والعبادين : « ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك » .

صحيح أن رؤية الفطرة الأصيلة ، غير المحجوبة ، هي أصل الرؤية ، ثم رؤية العقل الذي يتبناه هي فصل الرؤية عن إجمالها ، ولكنها مع رؤية العلم والحس لا تكفي عصمة طليقة في أصل الرؤية وفصلها ، اللهم إلا قدر ما كلف العباد بما وهبوا من طاقات للمعرفة ، و« لولا أن الشياطين .. » .

فإبراهيم الخليل هو من أولئك المعصومين الأكارم الذين أراهم الله ملكوت الكائنات بأسرها كما يمكن لمخلوق ، مهما كانت هذه الإرادة أيضاً درجات ، من علم اليقين إلى عين اليقين وإلى حق اليقين ، كما ولكل درجات .

ولأن صور الرؤية الملكوتية للكون والمكون درجات ، فقد رأى محمد (ص) ربه في أحسن صورة^(١) رؤية معرفية بقلبه وكما رأى من آيات

(١) في الدر المنثور اخرج احمد وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الرحمن بن عائش الحضرمي عن بعض اصحاب النبي (ص) قال سمعت رسول الله (ص) يقول : رأيت ربي في أحسن صورة فقال : فيم يختصم الملاء الأعلى يا محمد ! قلت : أنت اعلم أي رب فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي قال فعلمت ما في السماوات والأرض ثم تلا هذه الآية : « وكذلك نرى إبراهيم .. » .

سورة الأنعام / آية ٧٦ ١٠٣

ربه الكبرى ببصره وبصيرته في معراجہ « ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (١٨: ٥٣) .

ولأن « كذلك نرى . . . » تحمل إراءة دائمة لإبراهيم وهذه الحجة طرف من أطرافها فليست « هذا ربي » تصديقاً ولا شكاً فإنهما ينافيان الإيقان دون العصمة فكيف يجتمعان مع إيقان العصمة ؟ ، كما وأن « تلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه » دليل أنها من إراءة الملكوت ، ولم تكن حجة على نفسه ، لسابق توحيده وسابغه .

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ (٧٦):

موقف حاسم جازم من مواقف حجاجه على المشركين في حفلة سماوية ، فلئن قضى على ألوهة آلهة السماء - التي هي الأصلية عند عبديها ، وأصنام الأرض ليست إلا ممثلة لها ، كما هي تمثل إله السماوات والأرض - فهو القضاء بأحرى على آلهة الأرض .

ذلك وكما له موقف آخر في حفلة أرضية مع آلهة الأرض « فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون » ، وكذلك مواقف أخرى تثبتاً لوحدة الإله « لعلهم إليه يرجعون » .

في ذلك الحجاج نرى حسماً لألوهة النجم والقمر والشمس ، مما يدل على أن الخليل يُحاج هنا عبدة الأجرام السماوية ؛ « فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً » وهو أول ظاهرة من الكواكب بداية الليل ، فهي الزهرة « قال

أقول : « صورة » هنا هي كما تناسب رؤية الرب وهي الصورة العليا المعرفية ، ويده تعالى هي يد الإراءة للملكوت ، فإين صورة من صورة وإراءة من إراءة ؟

هذا ربي « على الإنكار والاستخبار »^(١) لا التصديق والإخبار أو سؤال الإنكار ، بل على المجارات في الحجة التي توغل الخصم في اللجة ، كيف وقد أري ملكوت السماوات والأرض ، ورمى أباه آزر وقومه المشركين من قبل بضلال مبين ، ومن بعد « إني بريء مما تشركون » دون « برئت » أو مما تشرك ، ثم « وما أنا من المشركين » دون « لا أشرك » « فلما أفل قال لا أحب الآفلين » . إنه غاب في نفسه وغاب عن الخلق .

فمن ذا الذي يرعى مربوبيه إذا كان الرب يغيب ، لا - إنه ليس رباً

(١) نور الثقلين ١ : ٧٣٥ في عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرضا (ع) عند المأمون في عصمة الأنبياء ويسند متصل عن علي بن الجهم قال حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا (ع) فقال له المأمون يا بن رسول الله (ص) أليس من قولك ان الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى ، قال : فأخبرني عن قول الله تعالى في حق إبراهيم (ع) : « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي » فقال الرضا (ع) : ان إبراهيم صلى الله عليه وقع على ثلاثة اصناف صنف يعبد الزهرة وصنف يعبد القمر وصنف يعبد الشمس وذلك حين خرج من الشرب الذي أخفى فيه « فلما جن عليه الليل » رأى الزهرة قال هذا ربي على الانكار والاستخبار . فلما أفل الكوكب « قال لا أحب الآفلين » لأن الآفل من صفات المحدث لا من صفات القديم « فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي » على الانكار والاستخبار فلما أفل قال لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين ، يقول : لو لم يهديني ربي لكنت من القوم الضالين فلما أصبح رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر من الزهرة والقمر على الانكار والاستخبار والاقرار فلما افلت قال للاصناف الثلاثة من عبدة الزهرة والقمر والشمس « يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » وإنما أراد إبراهيم بما قال ان يبين لهم بطلان دينهم ويثبت عندهم ان العبادة لا تحقق لمن كان بصفة الزهرة والقمر والشمس وإنما تحقق العبادة لخالقها وخالق السماوات والأرض وكان ما احتج به على قومه ألهمه الله وآتاه كما قال الله تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه » فقال المأمون : « الله درك يا الحسن » .

حيث الرب لا يغيب ، وإنه منطق الفطرة بعيداً عن الجدليات المنطقية والفلسفية المصطلحة ، منطق يفهمه كل ذي فطرة سليمة .

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ (٧٧) :

وهذا هو شأن المتحري عن ربه الذي عرفه بفطرته وعقليته انه الوجود الطليق الذي لم يزل ولا يزال فلا أقول له ولا أية حركة ، فلأنه يعرف ربه يسأله ملتصقاً في تحريره « لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين » الذين ضلوا عن ربهم في التيه ، ضلالاً عن ميثاق الفطرة^(١).

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٧٨) :

فلأن هذا أكبر فعله لا يأفل كما أفل صاحبه « فلما أفلت » ثم لم يجد أكبر منها فاستأصل - إذاً - في ذلك الحجاج ربوبية أجرام السماء « قال يا قوم إني بريء مما تشركون » أنتم بالله وليست أنا منكم .

وعلى « هذا » هنا بدل « هذه » رعاية لـ « ربي » ورعاية لهم تماشياً منهم في ربوبية الشمس فقد عني « هذا » الكائن النير « ربي » .

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٧٩) :

« إني » متأكداً دون ارتياب « وجهت » منذ عرفت نفسي لا فحسب من الآن « وجهت وجهي » بكل وجوهه واتجاهاته « للذي فطر السماوات

(١) نور الثقلين ١ : ٧٣٦ في تفسير العياشي عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليهما السلام

في قول إبراهيم صلوات الله عليه « لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين » اي : ناسياً للميثاق ورواه مثله عنه (ع) مسعدة .

والأرض « حيث المحدودية والأفول دليل الإنفطار ، والفطرة المتحرية عن الله لا يصدق محدوداً آفلاً أنه هو الله ، فكما الفطرة تتحرى عن الفاطر غير المنفطر ، كذلك الخلق المنفطر دليل على الفاطر غير المنفطر ، تجاوباً بين كتابي الآفاق والأنفس في توحيد الله .

وهنا « فطر » لمحة لأمعة إلى قضية دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وأنها تحكم بانفطار الآفلين ، فانفطار المنفطرين دليل فطر الفاطر وما أحسنه دليلاً ! فقد فطر الله الإنسان على معرفته ، وفطر الكائنات دليلاً على ربوبيته ، وهي كلها آياته : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . . . » .

فإبراهيم الخليل يصور هنا في حجاجه صورة التحري عن ربه في مظهر الشاك بديلاً عما كانوا يعبدون هذه الإجرام ، فـ « هذا ربي » هي من مقاتلهم وهو ينقلها لينقلهم منها إلى الذي فطر السماوات والأرض .

فمهما كانت « هذا ربي » إشراكاً ممن يعتقدونه ، « فلم يكن من إبراهيم شرك وإنما كان في طلب ربه وهو من غيره شرك »^(١) « وإنه من فكر من الناس في مثل ذلك فإنه بمنزلته »^(٢) .

فالشك المتحرى عن يقين هو شك مقدس فيعتبر من الإيمان ، والشك المدنس هو الجامد الجاحد دون أي تحرٍ إلا تجريباً على الحق المبرم .

(١) نور الثقلين ١ : ٧٣٧ من تفسير القمي وسئل أبو عبد الله (ع) عن قول إبراهيم « هذا ربي » اشرك في قوله : هذا ربي ؟ فقال : لا . بل من قال هذا اليوم فهو مشرك ، ولم يكن . . .

(٢) المصدر ٧٣٨ في تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال في إبراهيم (ع) إذا رأى كوكباً قال : إنما كان طالباً لربه ولم يبلغ كفرأ وأنه من فكر . . .

ثم إن هذه الطريقة هي أقرب إلى الدعوة والإنصاف في الحجاج ، وأبعد عن الشغب والإعتساف، وليس كذباً محرماً لأنه في مقام الإصلاح والإفصاح عن الحق المرام ، ثم وقصد الإستنكار وإن لم يظهر يخرج من الكذب إلى التورية حيث ورى بصورة الإخبار والقصد هو الإستنكار .

ثم وهذه الأفولات الثلاث كانت براهين على بطلان ثالوث الربوبية للنجم والقمر والشمس بحكم الفطرة الحكيمة الحاكمة في كل قليل وجليل .

فلأن الفطرة تحب الكمال المطلق حباً في حقل الربوبية ، ولا تجد مطلوبها في هذه الكائنات ، فليكن مطلوبه خارجاً عن عالم الحس والحيطة العقلية .

فإبراهيم المتحري عن ربه في مجالة الحوار ، لمأ لا يجده في كوكب يلمع ولا في قمر يطلع ، ولا في شمس تسطع ، فبأحرى لا يجده فيما دون هذه المشرقات مهما شرق وغرب ، فهو واجده في فطرته أنه لا حد له ولا أفول ، فليس هو ماله حد وأفول .

وهكذا يلقي إبراهيم عصاه في حران بين عبدة الأصنام عساه يجد آذاناً مصغية وعقولاً ناضجة غير معقولة بطوع الهوى ، فاخترار لرشد هم حجاج التجاوب بين الفطرة والعقل والإحساس ، « فلما جن عليه الليل » وستره ظلامه « رأى » كوكباً « مما كانوا يعبدون ، فجاءهم في زعمهم دون مجابهة عليّة ، حاكياً مقالهم « هذا ربي » كأنه صلوات الله عليه منهم « لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين » أي : ناسياً للميثاق طريق في الحوار طريف حكيم ، ومنهج في الحجاج قويم ، وهذه أدعى إلى إنصاتهم لمقالتة فإنها مقالتهم ، ثم كراً على المقالة من طريق خفي ينبيء عن سداد رأيه ونفاذ بصيرته ، فلما أفل هذا الكوكب تحت الأفق فتفقدته فلم يجده ، ويبحث عنه فلم يره قال « إني لا

أحب الآفلين « فكيف يكون الإله آفلاً غافلاً عن خلقه ، فذاتية الأفل دليل على ذاتية الحاجة والحدوث ، والفطرة الإنسانية تتطلب إلهاً لا يأفل ولا يغفل ، بل هو إله لا أزلي أبدي لا أول له ولا آخر وهو الأول والآخر .

« فلما رآ القمر بازغاً » وهو أسطع نوراً من ذلك الكوكب ومن كل كواكب السماء ، وأكبر منه حجماً « قال هذا ربي » تدرجاً في تحريره إلى الحق المُرَام وهو الكمال المطلق ومطلق الكمال ، إستدراجاً لهم واستهواءً لقلوبهم تمشياً بأقدام الفطرة في تحريرها « فلما أفل » هذا الأنور والأكبر كما الأصغر « قال لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين » عما فطرهم عليه من معرفة اللامحدود ، تبياناً أن الله هو مصدر الهدى ومانع التوفيق لها عن الردى « فلما رآ الشمس بازغة » يتألق نورها وينبعث منها شعاعها وقد كست الأفق جمالاً وملأت الأرض زينة ودلالاً « قال هذا ربي هذا أكبر » فلأنه أكبر قد لا يأفل والفطرة متحررة عن الكبير الذي لا يصغر « فلما أفلت » كسائر الآفلين حكم على جماعة عبدة الكواكب وأمثالها من الآفلين - وكل الكائنات آفلة مهما اختلفت المظاهر - حكم عليهم بالإشراك وبراءته عنه « قال يا قوم إني بريء مما تشركون » « إني وجهت وجهي » بكل وجوهه الفطرية والعقلية والقلبية « للذي » فطرهن و« فطر السماوات والأرض حنيفاً » معرضاً عما سواه ومسلماً إياه « وما أنا من المشركين » .

أجل و« إني بريء مما تشركون » - « وما أنا من المشركين » ثم « ولا أخاف ما تشركون به » ومن قبل « لئن لم يهديني ربي » وفي أخرى « لقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » هي عساكر من البراهين على أنه لم يكن يعتقد ما كان يكرره: « هذا ربي » فإنما كان مجاراةً في حجاجه بالتي هي أحسن حتى يجرحهم إلى ما هو عليه .

ذلك ، وليست الربوبية المنكورة لغير الله ربوبية المخالفة حيث المشركون لا يعتقدون في مخالفة ما يشركونه بالله ، فإنما يعتقدونه في

سورة الأنعام / آية ٧٧ - ٧٩ ١٠٩

ربوبيات تتفرع عن ربوبية الله ، أم إن الله خالق والربوبية مخولة إلى بعض خلقه .

وإبراهيم (ع) في هذه الحجة يستأصل الربوبية بأصلها وفصلها عما سوى الله ، أن الرب الآفل كيف يكون رباً ودوام المربوبين لزامه دوام الربوبية وهو لا يناسب أقول الرب .

ذلك وكما يلوح له « هذا ربي » لا « رب العالمين » حجاجاً مع هؤلاء الذين يربون هذه الأشياء في حقول خاصة من الربوبيات ، دون الربوبية المحلقة على كل شيء فإنهم لا يعتقدونها في غير الله مهما فصلوا عنه الربوبية ، فإن لهم شركاء متشاكسين في مختلف الربوبيات .

وفي رجعة أخرى إلى هذه الآيات نقول : أصل الحجة في إبطال ربوبية هذه الأجرام هو أقولها وصغرها بمعنى محدوديتها ، والآفل غير محبوب للفترة كآله مهما كان محبوباً في غير حقل الربوبية قضية الضرورة المعيشية .

فذاقية الأقول ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً ، المحلقة على كافة الكائنات هي التي تسلب عنها الربوبية ، وتخلع عنها رداء الربانية : « لا أحب الآفلين » .

وأنها تجمع في نفسها خط المواصلة مع المشركين وأضرابهم وخط المفاصلة ، مواصلة حيث خطت في كتاب الفطرة والعقلية السليمة والحس السليم والعلم السليم ، ومفاصلة حيث تخلف المتخلفون عن ذلك الخط المواصل في حاضر العقيدة والعمل ، فـ « لا أحب الآفلين » نبهة لهم ككل تعرفهم خطاهم فيما هم عليه من الإشراك بالله .

يقول في المخطوطة الأولى من حججه « لا أحب الآفلين » والكوكب الآفل نموذج منهم ، وجمع العاقل هنا ليجمع الآلهة العاقلة إلى غير العاقلة

فتضم كل ما سوى الله ومَن سوى الله .

وفي الخطوة الثانية « لئن لم يهديني ربي » فالهداية التامة هي حصيلة الإهتمام بالفطرة وسائر الآيات الآفاقية والآنفسية ، ومدَّ الهدى الربانية ، فكما الضال عن هدى الفطرة في ضلال ، كذلك المهتدي بها غير المؤيد بهدى الله ، فهنا يقول إبراهيم (ع) حاكياً عن كتاب الفطرة ، إنني أتحرى عن ربي جاداً كاداً دون فتور. فليهدني ربي بما اهتديت فـ« الذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » (١٧: ٤٧).

وفي الخطوة الثالثة زيادة « هذا أكبر » والفطرة ناحية في حبها منحى الأكبر فالأكبر ، وهي في عمق حبها في حقل الربوبية تحب الكبير المتعالي عن كل أفول ، فلما لم يجد في الشمس بغيته من الحب الفطري للكمال اللامحدود ، وهي أعظم شارق في المنظر ، فهناك البراءة التامة عن كل شارق وغارب ، وكل متحرك ومتغير محكوم بعوامل ، مسيرة تحت رحمة حوامل ، فـ« يا قوم إني بريء مما تشركون » .

فالتصرم زمانياً أفول ، والتغير أفول ، والحركة أفول والتركب أفول ، فالكائنات كلها آفلة في مثلث كيائها ، قبل تكوينها وبعد زوالها وهي حال كونها آفلة عن حق الوجود والوجود الحق إذ لا تملك لأنفسها شيئاً .

وفطرت الله التي فطر الناس عليها تتحرى عن الكمال المطلق ومطلق الكمال الذي ليس له حد ولا زوال ولا أي أفول .

وذاتية الأفول في الكائنات تحت رحمة مربعة الحالات زماناً وحركة وتغيراً وتركباً ، هي برهان قاطع لا مرد له لفقرها عن بكرتها وأسرها تحت طائل القدرة الخارجة عنها بأسرها « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله اني لكم منه نذير مبين » (٥١: ٥٠).

فحين نجد واقعاً من هذه الأربعة وإمكانية منها في كائن فهو - إذا -

سورة الأنعام / آية ٧٧ - ٧٩ ١١١

محكوم بالإمكان والحدوث وكل أفول هو قضية الحدوث .

وليس « إني لا أحب الأفلين » محصورة في حصار العقلية العامة ، بل هي تحلّق على كافة العقول ساذجة وناضجة ، كما هو قضية الواجهة العامة للدعوات الرسالية ، حيث تواجه كل العقول في كل الحقول .

وأحسن كلام وأجمله ما يشتمل على الحصص الثلاث ، فحصة الخواص هنا عناية الإمكان من الأفول ، وحصة الأوساط عناية مطلق الحركة الدالة على الإمكان والحدوث ، وحصة العوام هو - فقط - الأفول الغروب .

ولا يرد على عامة « الأفول » أن الله الذي يُستدل لكونه وتوحيده بأفول الكائنات هو أيضاً آفل : « غائب » لا يرجى حضوره ، حيث البون بين في هذا البين ، فأفل الخلق هو ذاتي الأفول حتى عن نفسه ، وهو متحول في أفوله ، وليس أفوله إلا من ذاته .

ولكن الله سبحانه ليس أفلاً بأيّ من هذه وسواها من أبعاد الأفول ، فهو ظاهر لذاته وظاهر لخلقه بآياته ، وما غيابه عن الخلق في كنهه إلا لقصورهم دونه ، فغيب الذات له سبحانه - خلاف أفول غيره - دليل ألوهيته ، وظهور ذوات الممكنات كأفولها همادليل مألوهيتها .

فالأفول بعد الظهور كما الظهور عد الأفول هما دليل الحدوث قضية الحركة التي هي أبرز ملامح الحدوث ، وأما الغائب في ذاته الظاهر بآياته فليس أفلاً بل هو الظاهر الباطن والباطن الظاهر « يا من هو اختفى لفرط نوره ، الظاهر الباطن في ظهوره .

ذلك إضافة إلى محدوديتها الحاكمة كبرهان ثان على أفولها ، ولا ينبئك مثل خبير .

وهذه الحجة الإبراهيمية تستأصل الربوبية أصلية وفرعية عن كافة

الكائنات المخلوقة ، فلا تحويل لشأن من شؤون الربوبية إليها ولا تحويل ، ولا لعباد الله المخلصين إذ لا ولاية لهم تكوينية ولا تشريعية ، بل هي فقط - ولاية شرعية بإذن الله ، فلا تأثير لهم في الكون إلا بأمر الله ومشيئته .

وهذه من أنجح الحوار مع الناكرين أن يتبنى ما يعتقدونه حجر الأساس في الحوار ثم يقضى عليه بما ينقضه ، ومن ثم حوار يتبنى ما يعتقدونه الطرفان ، ثم حوار يتبنى فقط ما تعتقده أنت المحاور ، فالثالثة ساقطة على أية حال ، والأولى ناجحة على أية حال ، والوسطى عوان بينهما .

ذلك لأنه ليس نجاح الحوار - فقط - في قوتها ، بل وقبلها في الحصول على جو الاستماع لها والاصغاء إليها ، فالخطوة الأولى في نجاح الحوار محاولة المحاور لكامل إصغاء محاوره لقوله ، ثم المحاولة في اتقان الحجة وإيضاح المحجة .

وهنا نسمع إبراهيم الخليل يبدأ بما يقوله خصمه « هذا ربي » ثم ينقضه بنقصه وأفوله الذي لا يناسب ربوبيته ، وكما حاج عبدة الأصنام الأرضية أن كسرها وجعل الفأس على كبيرها خلقاً لجو التساؤل بناءً على معتقدهم في ألوهيتها حيث أجاب عن « من فعل هذا بآلهتنا . . » ؟ « بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » (٢١: ٦٣) فعله . . ان كانوا ينطقون ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون » .

وكما تماشى مع قولة نمرود : « أنا أحيي وأميت » انتقلاً إلى حجة أظهر « فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذي كفر . . » دون أن يصر على الحجة الأولى ببيان أوضح إذ لم يجد في نمرود بحاشيته تلك الذكاء اللائقة لفهم الحجة الأولى ، حيث القصد من الحجاج إفهام الخصم إفحامه كما يفهم بلا لجاج .

فالحجة مهما كانت بالغة ، يجب أن يحتج بها بلغة يفهمها المحاج

سورة الأنعام / آية ٧٧ - ٧٩ ١١٣

له ، فلكل مقال مجال كما لكل مجال مقال ، رعاية لكمال القول تجاوباً مع كمال المقول له .

وليست هذه الحجج حججاً عامة تقنع - فقط - العوام ، بل هي حجج صارمة ناتجة من إراءة الملكوت ، فمن الملكوت قضاء الفطرة السليمة « إني لا أحب الآفلين » في حقل الربوبية ، و « لا أحب » هذه لا خلاف فيه بين المحبين ولا تخلف عنه ، فهو أقوى حجة بين الحجج ، فحين تقل الحجج أو تكل يأتي دور حجة الفطرة التي لا نكير لها .

لذلك يعتبر القرآن « فطرت الله التي فطر الناس عليها » انها « الدين القيم » التي لا تفلت عنها مهما تلفت عنها كثير ، فهي أقوى من كافة الحجج المنطقية والعقلية والعلمية والحسية أماهيه من حجة .

ولا حجة لاية حجة إلا ما تتبنى حكم الفطرة الكائنة عند الكل ، والمقبولة لدى الكل ، ولأن شريعة الله لا تختص بحقل الفلاسفة والعلماء العقلين والحسين ، فلتكن محتجة بأقوى الحجج وأعمها وأتمها وهي حجة الفطرة ، مهما يزودها بسائر الحجج رعاية لمختلف القطاعات من المكلفين .

وإنما احتج بالافول دون البزوغ وكلاهما مشتركان في ذاتية الحركة المستلزمة للحدوث ؟ لأن دلالة الأفول أظهر ونصيب العوام من حجته أبهر ، ثم و « لا أحب » لا يتعلق صراحاً بالبزوغ ، إنما هو الأفول

فـ « لا أحب » بصورة طليقة تجتث كل حب ليست إلا لآفل أو ميت ، دون بازغ أو حي ، فمهما لم يتعلق بهما الحب المطلق ، فقد يشملهما مطلق الحب وهو مدار الحياة المعيشية ، كما أن الحب المطلق مدار الحياة الايمانية ، فعلى مدار حب الله وضوءه يحب المؤمن وسائل عيشته الايمانية .

ثم الأفول - على أية حال - انتقال من قوة إلى ضعف ، وعبدية الأجرام السماوية الذين كان يحتج عليهم إبراهيم ، هم كانوا يرون قوة لها لنورها وبهورها وعظيم تأثيرها ، فحين تأفل هذه الظاهرة الزاهرة فقد فلتت الوهيتها المزعومة لديكم .

فإذا احتج بالزوغ كانت حجة عليه من ناحيه مهما كانت له من أخرى ! .

ذلك ، وأخيراً « اني وجهت وجهي . . » وهو وجه الفطرة كأصل ، ثم الوجوه التي تتبناه كوجه العقل والصدر واللب والقلب والفؤاد ، نفسياً ، ووجه الحس بدنياً وكما أمرنا « فاقم وجهك للدين حنيفاً . . . » .

ولماذا « للذي » دون « إلى الذي » كيلا تلمح « إلى » إلى غاية مكانية أماسيه من غايات محددة محدودة ، فكما « أقم وجهك للدين » لا « إلى الدين » كذلك « للذي فطر . . » وجه لزام للفاطر ، تلازم المنفطر مع الفاطر .

فهناك توجيه لوجه الإنفطار للفاطر ، ووجه العبودية للمعبود ، ووجه التربية للرب ، فلا يبقى وجه للعبد إلا وهو واجب التوجيه لله الواحد القهار .

رخصيلة البحث هنا أن مراتب الإيقان والإيمان بالله هي قضية مراتب رؤية الملكوت ، فللرؤية الفطرية نصيبها من إيقان وإيمان ، ثم للرؤية العقلية المستوحاة منها ، ثم المزودة بالرؤية الحسية والعلمية ، ثم برؤية السوحي العام ، ومن ثم بإرادة خاصة ربانية للمخلصين من عباده كمحمد (ص) وإبراهيم وضرابهما ، لكل من هذه قضاياها من إيقان وإيمان .

فهـ كذلك نري إبراهيم « على طول خط حياته الرسالية بما قبلها

سورة الأنعام / آية ٨٠ ١١٥

« وليكون من الموقنين » القمة بإراءة الملكوت الربانية الخاصة الحادثة على المعرفة التوحيدية القمة السامقة .

﴿ وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٨٠) :

« و » بعد ذلك الحجاج القاطع القاصع ما ازدادوا إلا اللجاج فالاعوجاج إذ « حاجه قومه » في الله بعد ما جاءهم الهدى وتبين لهم الحق ، « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » .

« قال أتحاجوني في الله » أن أشرك به كما تشركون ، وتخوفوني عما تشركون كما تخافون « وقد هدان » ربي فأنى تؤفكون ، أفكأ آلهة دون الله تريدون ؟ .

« ولا أخاف ما تشركون » : إشراككم ولا ما تشركونه بالله ، لا أخاف .. إلا أن يشاء ربي شيئاً .. أخافه ، فمن خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء .

وهنا يخوفونه من غضب الآلهة فإنه عندهم السبب الأول لعبادتهم إياها ، مهما كان لهم منها - كذلك - رجاء الرحمة .

ذلك ، وكما الإنذار في الحقول الرسالية يحتل الموقع الأول الذي يعم من يؤمن إلى من لا يؤمن ، حيث إن تأثير التبشير أقل بكثير من تأثير الإنذار .

وهنا الإجابة عن حجتهم تنحل إلى أمور :

١ - « وقد هدان » فحصلت لي حجة الحق فيمن أعبدته ، فلا أخاف غيره .

٢ - « وسع ربي كل شيء علماً » فهو الذي ينجيني عن المخاوف بسعة

علمه وقدرته ورحمته للمؤمنين به .

٣ - « وكيف أخاف . . . » فحتى إذا صَحَّ الخوف عن الآلهة فكيف أترك الخوف عن إله الآلهة فقط دونها؟! .

هنا « وقد هدان » هي أقوى الحجج ، فإن من شؤون الربوبية هي هداية المربوبين « وقد هدان » ربي بحجته ، وليست عندكم حجة الهدى من آلهتكم ، فنفس الهدى هنا والإستغناء بها عما سوى الله ، هما حجتان مطويتان في « وقد هدان » إضافة إلى أن الحاصل على بغيته بحجته ليس ليتحرى بعد عن حق هو عارفه ، فهذه حجج ثلاث مطوية في « وقد هدان » ، وقد تفرعت عليها الحجتان الأخريان فهي - إذا - خمس حجج .

وهنا « إلا أن يشاء ربي شيئاً » من الخوف عما تشركون بالله ، حجة سادسة ، أن لو أراد الله أن أخاف الآلهة - ولن يرد - فذلك - إذا - خوف بإرادته دون إرادتها ، فيرجع حجة أخرى على ربوبيته دونهم ! .

« وسع ربي » الذي رباني هكذا ورب العالمين كلاً على قدره « كل شيء علماً » فعلمه محيط بكل شيء فلا تخفى عليه خافية ولا تدق عنه غامضة ، فكل الأشياء عنده وامضة ، فلا يصيبني أمر كما تزعمون ، فربي هو الواسع علماً فهو يذود عني .

فه « وسع ربي » تختلف عن سائر السعة ، فإنها من سعة المحدود على المحدود ، حيث تطلق على الأجسام وأشباهها التي فيها الضيق والإتساع والحدود والأقطار ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فإنما هي سعة ربوبية علمية كما هنا ، وسعة في كافة مراحل القيومية كما في غيرها .

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨١):

فهذه ضابطة عالمة عاقلة في كل الأعراف أن اتباع الحق لا يُخيف ،

سورة الأنعام / آية ٨١-٨٢ ١١٧

وإتباع الباطل مخيف يحيف ، وأنتم الأغبياء تعاكسونها حيث ترجون أن
أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ، وقد نزل سلطاناً على
توحيده ولم ينزل أي سلطان على ما تشركون .

« فأبي الفريقين أحق بالأمن » واقعياً وفي أي من الحقول « إن كنتم
تعلمون » أن الحق أولى من الباطل إتباعاً وتخوفاً من تركه ..

وهكذا تنجلي الفطرة وتنجلي في ضفة الإيمان ولا سيما المتأيدة بوحى
الله بإراءتها ملكوت السماوات والأرض .

وهكذا تنحرف فتنجرف في ضفة الكفر المعاند ، ومن الفاصل بينهما
التحري عن الحق في الأولى والتجري على الحق في الثانية .

إن الفطرة حين تنحرف وتضل ثم تنمادى في ظلالها وتتسع الزاوية
الهاوية وتبعد نقطة الإنطلاق على ممشائها عن نقطة الإبتداء ومحطة
الإنهاء ، إذاً يصعب عليها أن تتوب وتשוב إلى الحق المرام الذي هو
قضيتها كما فطر الله .

هناك وجدان لله بكل الوجود والوجود كله ، فكيف يخاف غير الله من
وجد الله ؟ وكيف لا يخاف من لم يجد الله ؟ ماذا فقد من وجد الله
وماذا وجد من فقد الله ؟ « أ يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون
هو المظهر لك ، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك . . عميت
عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك
نصيياً » (١) .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ
مُهْتَدُونَ ﴾ (٨٢) :

(١) من دعاء الامام الحسين (ع) في عرفات يوم عرفة .

وكما الإيمان درجات ، كذلك الأمن الناتج عنه درجات أعلاها
 له الذين آمنوا « بالله ورسالاته » ولم يلبسوا إيمانهم بظلم : « عقيدي
 كإشراك بالله ، فـ ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » (١٢: ١٠٦) ولا
 عملي كأبي عصيان ، فإن « بظلم » تحلق على كافة أنواع الظلم التي تُناحر
 عقيدة الإيمان أو عمل الإيمان .

« أولئك » الأكارم « لهم الأمن » كله « وهم مهتدون » كامل الإهداء .

وذلك الإيمان الآمن الطليق هو الحسنة الطليقة : « من جاء بالحسنة
 فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون » (٢٧: ٨٩) وهم المتقون : « إن
 المتقين في جنات وعيون . أدخلوها بسلام آمنين » (١٥: ٤٦) : « إن
 المتقين في مقام أمين . . . يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فاكهة آمنين » (٤٤: ٥٥) .

أجل إن « المؤمن المهيمن العزيز الجبار » يؤمن هؤلاء المؤمنين
 المتقين عن كل بأس وبؤس يوم الدنيا ويوم الدين ، ولأن الإيمان والتقوى
 وترك الظلم درجات ، فكذلك الأمن الناتج عنه درجات ، ولأن قضية
 الإيمان الآمن تطبيق قضاياه ككل ، في حق التوحيد والنبوة والمعاد
 وفروعها ، وفي حق كافة المسؤوليات الإيمانية فردية وجماعية ، فقد تشمل
 « بظلم » كل إنتقاص من أي من هذه البنود الإيمانية .

خلطاً « بشك » ^(١) ككل ، أو خلطاً لولاية الإيمان رسالة وخلافة ^(٢) أو
 خلطاً لعمل صالح بطالح ، أو خلطاً لنية صالحة بغيرها ، أم أي خلط
 خارج عن قضية الإيمان .

(١) نور الثقلين ١ : ٧٤٠ في اصول الكافي باسناده الى ابي بصير قال سألت ابا عبد الله
 (ع) عن هذه الآية « . . . بظلم » قال : بشك .

(٢) فيه عن المصدر عنه (ع) في « بظلم » قال : بما جاء به محمد من الولاية ولم
 يخلطوها بولاية فلان وفلان .

فه ليس كل من وقع عليه إسم الإيمان كان حقيقاً بالنجاة مما هلك به الغواة ، ولو كان كذلك لنجت اليهود مع اعترافها بالتوحيد وإقرارها بالله ونجى سائر المقرين بالوحدانية من إبليس فمن دونه في الكفر . . . »^(١)

وتفسير « بظلم »^(٢) أنه « شرك » تعبير عن أنحس الظلم وأتعسه ، أم يؤول بأي شرك جلي أو خفي ، عقيدي أو عملي ، وأما عبادة الأوثان فلا يخلط مع إيمان أيأ كان ، فإنما هو دون عبادة الأوثان : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » والعبارة الصالحة لغاية الشرك هي الشرك نفسه ، أم ولأقل تعبير « بالظلم » دون « بظلم » الشاملة لكل ظلم .

ذلك ، أو أنه يعني من « الأمن » مطلق الأمن ، لا الأمن المطلق وقد تتحملة الآية تأويلاً ، وقد يروى عن النبي (ص) « إنما هو الشرك » انه قال : « من ابتلي فصبر وأعطي فشكر وظلم فغفر وظلم فاستغفر » أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »^(٣) .

مركز تحقيق كتاب موير علوم إسلامي

(١) المصدر في الاحتجاج عن امير المؤمنين (ع) حديث طويل وفيه « وأما قوله : ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن » وقوله « وإنني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » فإن ذلك كله لا يعني إلا مع الاهتداء وليس . . . وقد بين الله ذلك بقوله : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » ويقول : « الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » .

(٢) الدر المنثور عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : انه ليس الذي تعنون الم تسمعوا ما قال العبد الصالح « ان الشرك لظلم عظيم » ؟ إنما هو الشرك .

أقول : الشرك المرسوم وهو عبادة الأوثان خارج هنا عن « ظلم » مهما كان اظلم الظلم ، حيث الايمان وان في ادنى درجاته لا يجتمع مع هذا الشرك .

(٣) المصدر في الشعب عن سنجرة قال : قال رسول الله (ص) : . . . ثم سكت ففيل له يا رسول الله (ص) ما له ؟ قال : « أولئك . . . » .

إذاً فحين يُعنى من « الأمن » الأمن المطلق فـ« بظلم » نعم كل ظلم ، وهذا هو ظاهر التنزيل ، وأما حين يعنى منه مطلق الأمن فـ« بظلم » تعني أظلم الظلم وهذا من باطن التأويل .

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٨٣):

و « تلك » البعيدة المدى ، العميقة الصدى ، الباهرة الهدى ، من حجج التوحيد « حجتنا آتيناه إبراهيم » على ضوء إراءته ملكوت السماوات والأرض ، وتلك درجة لا ينالها إلا من أخلصه الله مهما كانت درجات حيث « نرفع درجات من نشاء » : فمن الدرجات التي أوتىها إبراهيم الخليل من ربه الجليل النبوة ثم الرسالة ثم النبوة ثم الإمامة ، وقد أوتي معها رؤية ملكوت السماوات والأرض حجة لتوحيد الله ، وملكوت إحياء الأموات إطمئناناً لقلبه بهذه المعرفة القمة وهي عين اليقين بحقيقة الإحياء ، وإخماداً لنار نمرود ، درجات سبع في أصولها وفيها مزيد بتقاسيمها ، ثم في الأخرى درجات أخرى هي أخرى بكونها درجات .

وقد تلمح جمعية « حجتنا » لجامعة الحجة الربانية التي أوتىها إبراهيم لما تحتاج إلى حجة من محجة .

١ - ولأن الرب لا يؤتي حجة لمربوبه النبي ذي الدرجات ، فيها تشكك لتوحيده .

٢ - ومن ثم هي « على قومه » .

٣ - ثم « إني أراك وقومك في ضلال مبين » قبل إلقاء الحجة .

٤ - و « لئن لم يهدني ربي » ضمن إلقاءها .

٥ - و « إني بريء مما تشركون » كحالة دائبة لإبراهيم .

٦ - ثم « وما أنا من المشركين » .

٧ - ومن قبل « لقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » (٢١: ٥٢) .

هذه العساكر السبعة مجندة لأن « هذا ربي » منه في حجاجه لم تكن إلا مجارة على الإنكار والاستخبار ، دون تصديق وإقرار « إن ربكم حكيم عليم » : « حكيم » في حجته لا يتخللها شك وريبة ، ولا تغلب بأية حجة « عليم » بإلقاءها في مواتية ظروفها .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٨٦) :

هنا يذكر ثمانية عشر من الأنبياء ^(١) من ذرية إبراهيم إلا نوح ، من أجداده ، وهو نفسه حجر الأساس في ذلك التعريف العريف، وترك ثمانية ، منهم من هم من جدوده وهم آدم وإدريس ، أم سواهم كهود وصالح ، ومنهم من هو إمام الأئمة في سلسلة الرسالات وهو محمد (ص) .

وترى كيف لم يذكر إسماعيل كأول وهبة لإبراهيم وهو بكر ولديه ، وقد تأخر في الشطر الثالث من هذه الشطرات الثلاث الرسالية ، وهو جد محمد خاتم النبيين (ص) ؟ .

لقد ذكر إسماعيل اثني عشر مرة في القرآن ، في ثلاث منها يذكر هو - فقط - مع إبراهيم دون إسحاق ^(٢) وفي خمس يتقدم على إسحاق مع

(١) الدر المنثور ٢٨: ٣ عن قتادة وهم الأنبياء الذين قص الله على نبيه الثمانية عشر الذين قال الله « فبهداهم اقتده » .

(٢) كما في ١٢٥: ٣ و ١٢٧ و ١٣٣ .

إبراهيم^(١) وفي أربع يذكر دون إبراهيم وإسحاق (ع)^(٢) وهنا مرة يتيممه يتقدم - بفصل أنبياء على إسماعيل - إذا فليس في تأخير ذكره تأخير عن محتده الرسولي ، فمن الملاحظ أن ترتيب المقامات الرسالية هنا غير وارد كما تأخر نوح أول أولي العزم عن إسحاق ويعقوب ، وتأخر موسى وعيسى عن تأخر عنهم وهما أفضل منهم^(٣) .

فهنا الترتيب غير مراعى لا زمنياً ولا رتبة ، وإنما القصد عرض موكب رسالي بمختلف الدرجات والأزمنة ، هم كلهم إلا نوح من الوهبة الربانية لإبراهيم (ع) ، اللهم إلا وهبة في سلسلة الجدود فإن « وهبنا » لا تختص بهبة الذرية .

وقد تقدم اسحاق فيمن تقدم هنا كمرة يتيمة على إسماعيل حيث القصد ذكر الأنبياء الإسرائيليين من ولد إسحاق ، فلي تأخر إسماعيل إلى أخريات ذكرى النبيين هنا ، ولأنه - فقط - جد آخر النبيين ، كما ولم يذكر هنا محمد (ص) لأنه المحور الأساس في هذه الذكريات ، فإنهم له تقدمات ، ثم ويخاطب « فبهدهم اقتده » .

فذلك الترتيب - على غير ترتيب الحد الرسولي وزمته - ترتيب قاصد لا يعني رتبة زمنية أم رسالية ، فمن المقصود هنا - فيما قصد - عرض موكب الأنبياء الإسرائيليين بمعرض الكتابيين حتى يأنسوا إلى ذكراهم ، وعلاً في تقديم داود وسليمان ويوسف تذكيرهم بسابغ نعمة الملك إلى نعمة الرسالة في الأنبياء الإسرائيليين ، ومن ثم يذكر « موسى وهارون » كأصل الرسالة

(١) كما في ١٣٦: ٢ و ١٤٠ و ٨٤: ٣ و ١٦٣: ٤ و ٣٩: ١٤ .

(٢) في ٥٤: ١٩ و ٨٥: ٢١ و ٤٨: ٣٨ وهنا إسماعيل واليسع .

(٣) الدر المنثور ٢٨: ٣ عن قتادة وهم الأنبياء الذين قص الله على نبيه الثمانية عشر الذين قال الله « فبهدهم اقتده » .

الإسرائيلية ، ومن ثم « زكريا ويحيى وعيسى » حسب الترتيب الرسالي بما كان الأولان مقدمة للأخير ، ثم إسماعيل بن إبراهيم يتأخر حتى لا تحصل لهم حزاة وابتعاد ، ويذكر من بعد اليسع ويونس ولوط وقد كان لوط نبياً مع إبراهيم وإسماعيل ابنه ثم اليسع ويونس بعدهما .

ذلك ، وقد تنحل بهذه الآية بعض المسائل التي هي من معارك الآراء بين النافين والمثبتين أن ابن البنت يعتبر من ذرية والد البنت أم لا ؟ فقد تقول جماعة أنه لا ، وهي قولة ناشئة من الجاهلية التي ما كانت تعتبر البنت من الذرية فضلاً عن إنها ، واستند لذلك إلى الشعر الجاهلي (١) والرواية الجاهلية القائلة أن أبناء البنات من الأدياء فـ « أدعوهم لأبائهم » (٢) .

(١) هو « بنونا بنو ابناؤنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأبعد .

(٢) وسائل الشيعة ٦: ١٨٨ مرسل الكليني عن العبد الصالح في حديث طويل قال : ومن كانت أمه من بني هاشم وأبوه من سائر قريش فإن الصدقات تحل له وليس له من الخمس شيء فإن الله يقول : « ادعوهم لأبائهم » . . أقول : ونحن نقول ادعوا هؤلاء المختلفين لمثل هذه الرواية لأبائهم ، فكيف يعتبر أبناء البنات من الأدياء ؟ فهل الحسنان عليهما السلام من الأدياء ؟! فـ ما جعل ادعاءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق . . .

يقول صاحب الجواهر في ١٦: ٩١ عن هذه المرسلة في كتب المحمدين الثلاثة يكفي اتفاقهم على روايته جبراً لإرساله فضلاً عن شهادة النظر في متنه والتأمل فيه وفيما اشتمل عليه من الأحكام المخالفة لمن جعل الله الرشد في خلافهم وعن عمل كافة الأصحاب عداه به - المرتضى - وإن ذكر في بعض الكتب مستنداً غيره الذين فيهم من لا يعمل بالقطعيات .

أقول : والموجود في اخبار الخمس هو الآل والذرية والعتره وذوي القرابة واهل بيت النبي (ص) ويقول في الجواهر بعد النقض والابرام في استحقاق الخمس للمتسبين بالأمهات الى هاشم أو الى الرسول « ومن هنا كان الإحتياط في ترك أخذه الخمس =

ولا ينقضي العجب من هؤلاء الذين يستندون إلى مثل هذه الرواية المخالفة لنص القرآن والموافقة لسنة جاهلية ، ولا سيما بشبه ضرورة إجماعية ! .

هنا يعد عيسى (ع) في عداد ذرية إبراهيم وليس إلاً إبناً لحفيدته مريم عليهما السلام ، وهكذا يحتج أئمتنا عليهم السلام أنهم من ذرية محمد (ص) فكيف يكون عيسى بن مريم عليهما السلام - على بُعد البعد عن إبراهيم (ع) - من ذرية إبراهيم ، وليس الأئمة منذ الحسنين عليهما السلام على قربهم إلى محمد (ص) من ذريته (١) ؟ .

والزكاة وإن كان الأقوى في النظر ما عرفت - يعني عدم استحقاق الخمس لهذه المرسلة الغريبة - ثم يشنع على صاحب الحقائق بقوله : لكن المحدث المزبور قد بالغ في اختيار ذلك لاختلال طريقته مشدداً للإنكار على الأصحاب بتسجيع شنيع وخطاب فضيع حتى انه تجاوز ما يجب عليه من الآداب مع حفاضة السنة والكتاب . أقول : وطبيعة الحال في نصاب الخمس يقتضي استيعابه لكل المنتسبين إلى الرسول أو الهاشم باب اوام وبذلك يحتل اصحاب الخمس القسم العظيم ، وإذا اختص بالمنتسبين بالآباء فقد نسأل كيف يختص نصف الخمس من كل الافادات بعشر الفقراء ثم الزكاة التي معدلها ١٠/٦ من تسعة من الأموال تقسم بين ١٠٠/٩٠ من الفقراء .

(١) في الدر المنثور ٣: ٢٨ - اخرج ابن ابي حاتم عن ابي حرب بن ابي الأسود قال ارسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال بلغني انك تزعم ان الحسن والحسين من ذرية النبي (ص) تجده في كتاب الله وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ، قال : ألسن تقرأ سورة الأنعام « ومن ذريته . . ويحيى وعيسى » قال : بلى ، قال : اليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب ؟ قال : صدقت .

وفي الدر المنثور ١: ٧٤٣ في عيون الأخبار في جواب موسى بن جعفر عليهما السلام عن سند آل هارون الرشيد عن معنى الذرية قال : « ومن ذريته . . ويحيى وعيسى » من أبو عيسى يا أمير المؤمنين ؟ قال : ليس لعيسى أب ، فقلت : إنما الحق بلذاري

لقد ذكر من ذكر هنا وأشير إلى غيرهم بمثلث : « ومن آباءهم وذرياتهم وإخوانهم » بعد ، واختص لكل شطر من الشطرات الثلاث المذكورة مواصفة خاصة ، فلأولي : « وكذلك نجزي المحسنين » وللثانية « كل من الصالحين » وللثالثة « وكلاً فضلنا على العالمين » .

هكذا يظهر في بادئ الأمر ، ولكن الثلاث مشتركة في هذه الثلاثة ، فـ « كذلك نجزي المحسنين » دون « نجزيهم » يعمم الجزاء لكل النبيين ، ثم « كل من الصالحين » تشمل معهم من قبلهم وكلاً من الصالحين المذكورين بعد وغير المذكورين ، ثم « وكلاً فضلنا على العالمين » يشمل كل الشطرات الثلاث ومن سواهم من المفضلين .

﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاهْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٨٧) :

وبعضاً من آباءهم وذرياتهم وإخوانهم ، أيضاً هم من الموهوبين لإبراهيم (ع) اللهم إلا نوحاً ومن آباء آدم وشيث وإدريس ، ومن ذرياته الأنبياء الذين كانوا قبل إبراهيم ، اللهم إلا في سعة نطاق هذه الوهبة لتشمل الآباء إلى الذرية .

فلأن الأكثرية الساحقة من النبيين هم من ذرية إبراهيم فقد يصح « ووهبنا له » بل وكما تصح هذه الوهبة له في غير ذريته فإنهم من شذات سلسلة النبوة الربانية في تاريخ الرسالات ككل ، فإنها وهبة لكل منهم مساندة ومساعدة في هذه الدعوة الرسالية ، ولا سيما إبراهيم (ع) لأنه عمود في موكب الرسالات إلا خاتم المرسلين .

هنا « واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم » تعم كافة الرسل عن

الأنبياء عليهم السلام من طريق مريم عليها السلام وكذلك ألحقنا بذرياري النبي (ص) من قبل امنا فاطمة سلام الله عليها .

بكرتهم ، فإنها قضية كل رسالة ربانية .

وإنما نكر « صراط مستقيم » دون تعريف ، خلاف « إهدنا الصراط المستقيم » لأنه مشترك فيه بين كافة المهديين الرساليين ، وهم درجات في « صراط مستقيم » .

وأما « الصراط المستقيم » فهنا « الإجتباء » مقدمة للهدي إلى صراط مستقيم ، حيث الجباية هي الجمع الجيد الجاد ، ومنه جباية الخراج ، و « يُجبي إليه ثمرات كل شيء » (٥٧: ٢٨) .

وهنا مثلث من الإجتباء تعنيه « واجتبيناهم » .

١ - اجتباء كل في نفسه ونفسياته أن جمع الله متفرقاته ومتشقاته ، إخلاصاً لفطرته وعقليته وحسّه ، إخلاصاً شخصياً .

٢ - ثم اجتباءه من بين نظراءه تفضيلاً فضيلاً .

٣ - ثم اجتباء الكل بين العالمين في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، موكب رسالي مجتبي بين العالمين من الجنة والناس ومن سواهم من المكلفين أجمعين .

ومن ثم « وهديناهم إلى صراط مستقيم » فلكل هدى على حده ، ولكل هدى رسالية هي قضية رسالته في أبعادها .

﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٨٨) :

« ذلك » التوحيد الحق دون أية ممارات ومجارت أو أنصاف حلول بينه وبين الشرك « ذلك » فقط « هدى الله يهدي به » الله « من يشاء » الهدى في شاء له الهدى^(١) « من عباده » « ولو أشركوا » على فرض الحال « لحبط

(١) عن تفسير العياشي عن العباس بن هلال عن الرضا (ع) أن رجلاً أتى عبد الله بن =

سورة الانعام / آية ٨٨ - ٨٩ ١٢٧

عنهم ما كانوا يعملون « حال توحيدهم ، إذ لا فارق في إخطاط الإشراك بين سابق سابغ سامق وسابق خائق ماحق ، ولكن :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ (٨٩):

أترى « هم » في « آتيناهم » هم المذكورون هنا بأسماءهم ؟ ومن غير المذكور منهم من هم أهم منهم محتداً كالرسول الأعظم محمد (ص) !

إنهم « هم » و « من آباءهم وذرياتهم وإخوانهم » ومحمد (ص) هو رأس الزاوية ، فهم الموكب الرسالي العالي ، الجامع بين مثلث « الكتاب والحكم والنبوة » فليس كل رسول نبياً ، ولا كل نبي له كتاب ، فهم - إذاً - الرعيل الأعلى من الرسل الجامعين لهذه المميزات الثلاث : كتاب شرعة مهما كانت فرعية كسائر كتابات السماء غير ما لأولي العزم منهم ، والحكم روحياً وزمناً مهما صُدَّ الكثير منهم عن مظاهر الحكم الزمني ، والنبوة وهي هنا الرفعة بين المرسلين .

ولقد جمع هذا المثلث في حقل النبوة الإسرائيلية : « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة » (١٦: ٤٥) واختص من بينهم المسيح بقول فصل : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ... » (٣: ٧٩).

الحسن فسأله عن الحج ؟ فقال له : هذا جعفر بن محمد عليهما السلام قد نصب نفسه لهذا فأسأله فأقبل الرجل إلى جعفر (ع) فسأله فقال له : قد رأيته واقفاً على باب عبد الله بن الحسن فما قال لك ؟ قال : سألته فأمرني أن آتيك وقال : هذا جعفر بن محمد عليهما السلام قد نصب نفسه لهذا فقال جعفر (ع) نعم ، أنا من الذين قال الله في كتابه « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » سل عما شئت فسأله الرجل فأنبأه عن جميع مسأله .

وأخص الخواص في هذا الحقل الثلاثي هو الرسول الأعظم محمد (ص) وكما تدل عليه آيات كآية الميثاق : « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » (٣: ٨١).

هؤلاء الرهط الكرام هم حقيقة حققة قديمة امتدت شجرتها ، وموكب موصول تماسكت حلقاته ، ودعوة واحدة حملها نبي بعد نبي ، رسالة واحدة وأمة واحدة مهما اختلفت صور من طقوسها العملية عبادية وسواها .

« أولئك . . فإن يكفروا بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين » :
 « بها » هنا تعني مثلث « الكتاب والحكم والنبوة » « فإن يكفر بها هؤلاء » الكفرة الأنكاد من قوم لُذٍّ « فقد وكلنا بها » إيماناً بها « قوماً ليسوا بها بكافرين » وهم غيرهم من الناس ، كالأنصار المدنيين ، ومنهم من أسلم من الفرس وقد مدحهم رسول الله (ص) فيمن مدح في مختلف المجالات ، ومن أقواله فيهم : « رحم الله إخواني . . » ومنهم - كأفضلهم - أصحاب المهدي عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه ، وسائر المؤمنين به .

فالدولة المهدوية العالمية هي الموكلة بصورة مطبقة مطلقة بالإيمان والتطبيق لهذه الرسالة السامية ، فهي بشارة للمؤمنين بها على طول الخط « إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين . وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهْ قُلْ لَا أُسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٩٠) :

وترى الرسول إلى الرسل ورأس زاوية الرسالة والنبوة والإمامة كيف يؤمر أن يقتدي بهؤلاء النبيين الذين هم بأجمعهم أدنى منه في كل شيء ؟ .

هنا « هداهم الله » تختص المقتدى به بهدى الله ، التي يحملها أنبياء الله ، تبيناً أن الرسل موكب واحد في حمل هدى الله ، ليس أحد منهم يدعاً فيها اللهم إلا في ميزات بدرجات « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض . . . » .

ومن هداهم الربانية عدم سؤالهم أجراً على أعباء الرسالة ، فـ « قل » أنت الحامل الأخير لشرعة الله « لا أسألكم عليه أجراً » اقتداءً بسنة الرسالات الإلهية مهما كان المقتدى أقوى هدى من كل الرسل في كل الرسالات ، فـ « إن هو » الرسول « وإن هو » القرآن « إلا ذكرى للعالمين » وليس للذكرى أجر فانها واجب أهله .

ذلك ، وبصورة عامة « لا طريق للأكياس من المؤمنين أسلم من الاقتداء ، لأنه المنهج الأوضح والمقصد الأصح قال الله تعالى لأعز خلقه محمد (ص) : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » فلو كان لدين الله مسلك أقوم من الاقتداء لنذب أولياءه وأنبياءه إليه » (١) فـ « أحسن الهدى هدى الأنبياء » (٢) لأنها هدى الله .

فلما يؤمر رسول الهدى (ص) ان يقتدى بهدى الذين هداهم الله ، فأحرى لسواه وأوجب أن يقتدى بهداه فإنها أفضل الهدى وأكملها فانها خاتمة الهدى الرسالية من الله ، ثم الذين يحملون هداه الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

(١) في مصباح الشريعة قال الصادق (ع) ولا طريق . . .

(٢) نور الثقلين ١: ٧٤٤ في تفسير القمي خطبة له (ص)، وفيه عن النهج « فاقندوا بهدى نبيكم فانه افضل الهدى » .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ
 اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۚ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي
 جَاءَ بِهِ مَوْعِنٌ نُّورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ۚ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ
 تُبَدُّ وَنَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعَلَيْتُمْ مَالَهُ تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ وَلَا
 ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ۚ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾
 وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
 وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
 يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ وَمَن
 أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ
 إِلَيْهِ شَيْءٌ ۚ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ
 إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا
 أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ أَهْلُونَ
 بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ
 تَسْكِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ

أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى
مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُذِّبُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ
لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩١﴾

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٩١):

هنا « ما قدروا الله حق قدره » في ربوبيته برحيميته المقتضية لزماً بعث رسله ، وفي الحجج (٧٤) والزمر (٦٧) « ما قدروا الله حق قدره » في توحيده والّا شريك له في ألوهيته ، وهذه الآية بما بعدها مربوطة النياط بما قبلها من آيات الحجاج على المشركين الناكرين لرسالة البشر ، وأهل الكتاب الناكرين لهذه الرسالة الأخيرة ، وينكر ثالث أن النبوة وحي من الله على بشر سواء أكان النازل به ملكاً أو بشراً ! .

إذا فـ « ما أنزل الله على بشر من شيء » تحمل ثلوثاً من النكران .

فمن الناس - وهم ثالث ثلاثة - من يخيل إليهم أن الوحي إرتقاء عقلي للإنسان ، دون إحياء إلهي خاص ، فالنابغ من الإنسان نابغ من عقلية الباردة ما يتسمى وحيّاً ، فما هو إلا وحي العقل بنضوجه وارتقائه إلى مرقى الكمال الطليق لحد المعرفة الطليقة حيث لا يبقى له حاجب وستار عن الحقائق .

ولكنهم غفلوا عن أن ذلك خاص بنطاق الكليات العقلية ، فليس

للعقل مهما نضج وعرج معارج الكمال أن يعرف جزئيات الموضوعات والأحكام الموحيات إلى الرسل ، ثم الأحكام لا تتبع كلها المصالح الواقعية فإن قسماً منها إبتلائية ، إضافة إلى سائر البراهين القاطعة إلى واقع الوحي الرسالي إلى الرسل .

وكما أن قدرُ الله حق قدره درجات ، كذلك عدم قدره حق قدره دركات ، تعم كافة التقصيرات بجانب الله عقيدياً وعملياً وفي لفظ القول .

فقدر الشيء أو الشخص هو منزلته المتميز بها عن غيره ، والمنزلة الربوبية قضيتها ألا يسوى به سواه في أي من الأقدار ، فليوحد في ألوهيته وكافة شؤون ربوبيته المقتضية إرسال رسله وابتعاث خلقه يوم الحساب لتحقيق كامل عدله بينهم .

فحق قدره ليس إلا كما عرّف نفسه وبين في شرعته ، دون أن يوصف بقدر « فلا يوصف بقدر إلا كان أعظم من ذلك » (١) .

إذاً « إن الله عز وجل لا يقدر أحد قدره » (٢) في ذاته وصفاته وأفعاله ، والواجب على عباده أن يقدروا قدره فيما عرف به نفسه وفيما فرضه أو حرمه .

فحق قدره هو حق وصفه بما حققه تعالى من أوصافه دون انتقاص منها ولا مساس من كرامته ، وصفاً معرفياً ووصفاً لفظياً ووصفاً عملياً ، وفي هذا المثلث يقدر الله حق قدره أم لا يُقدر ، فلا نكلف بمعرفته كما هو ، ولا

(١) نور الثقلين ١ : ٧٤٤ عن اصول الكافي عن الفضيل بن يسار قال سمعت ابا عبد الله

(ع) يقول : ان الله لا يوصف وكيف يوصف وقد قال في كتابه « وما قدروا الله حق

قدره » فلا يوصف . . وفيه عن أبي جعفر عليهما السلام مثله .

(٢) المصدر عن اسحاق بن عمار قال قال ابو عبد الله (ع) ان الله . . .

سورة الأنعام / آية ٩١ ١٣٣

وصفه كما هو ، بل وعبادته كما يستحقه ، وذلك حق قدره بكماله وتماحه وما دونه عوان بين « قدروا » و « ما قدروا » ومن حق قدره فيما أنزل أن يحتل الموقع الأعلى من الدراسة فيه دون أن يجعل درساً جانبياً كما فعلته الحوزات الاسلامية ، فقد مركزوا كل كتاب وما قدروا كتاب الله حتى هامشياً يفكر فيه ويتدبر .

فهم « إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » مسؤوا من كرامة ربانيتها كأنه يجهل حاجة المكلفين إلى وحيه ، أو يبخل على علمه ، أو يعجز على علمه وسماحته ، أو يظلم على قدرته وسماحته وعلمه ، والقائلون « ما أنزل الله على بشر من شيء » التاركون له ، هم أتباع لهم بل هم أضل منهم وأنكى . هنا « ما قدروا الله » تعم كل القائلين « ما أنزل الله » ثم برهان ثان يخص أهل الكتاب منهم « قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ... » (١) وغير بعيد عن هؤلاء الأنكاد أن يتقولوا هذه القولة تعصباً ضد الإسلام وهم المفضلون المشركين على المسلمين بنفس العصبية : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت و يقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً » (٤ : ٥١) ، وهذه هي طبيعة الحال المتخلفة الشرسة للعصبية الجهلاء الحمقاء على حاضر الحال ، قومية أو طائفية أو إقليمية أماهيم ، أنها إذا أصبحت حجة على أصحابها ، ذريعة لتقبل أشباهها أنكروها عن بكرتها نكراناً للزاماتها .

فقد ينكر الكتابي كتابه إذا كان حجة لتصديق كتاب آخر ، كما قد ينكر حسه أو فطرته أو عقلية أو علمه إذا كانت ذريعة لما يتنكره من جديد .

ذلك وقد يدعون - كما اليهود - أن الرسول السابق على رسولهم كان

(١) المصدر عن تفسير القمي في الآية قال : لم يبلغوا من عظمة الله ان يصفوه بصفة « إذ قالوا ... » .

منهم في شرعتهم ، رداً على النصارى وثبيتاً لأصالتهم طول التاريخ الرسالي ، حتى نزل التنديد الشديد بهم : « يا أهل الكتاب لِمَ تحتاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون... ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » (٣: ٦٧) .

ذلك ، فغير بعيد عن هؤلاء الأنكاد - في سلبياتهم وإيجابياتهم الحمقاء - أن ينكروا نزول الوحي على بشر بأسره ذريعة إلى نكران أفضل الوحي على محمد (ص) ، فهنا تبرز الحجة البالغة الإلهية تكذيباً لقولتهم : « قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ... » ؟!

ومكية الآية لا تنافي التعرض لأهل الكتاب إذا انتشرت دعوة الإسلام في الجزيرة وفيها أهل الكتاب ، كما وكانوا يشنون دعايات ويدسون بين المشركين المختلطين بهم سفيراً وحضراً ، ثم الدعوة القرآنية عالمية تقتضي عامة الخطابات إن في مكة أو في المدينة .

لقد قال الأولون « ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء » (٣٦: ١٥) استبعاداً لرسالة البشر ، وأنكر الآخرون نزول كتاب بعد موسى وعيسى عليهما السلام كأن الله عاجز عنه بعدهما فـ « قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى » (١) وقد تركتم نوره وهداه وراء

(١) الدر المنثور ٣: ٢٩ - اخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبیر قال جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فخاصم النبي (ص) فقال له النبي (ص) اتشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة ان الله يغيض الحبر السمين وكان حبراً سمياً فغضب وقال : ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له اصحابه ويحك ولا على موسى ؟ قال : ما أنزل الله على بشر من شيء فأنزل الله « وما قدرُوا الله حق قدره ... » .

وفيه اخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : جاء ناس من يهود الى =

ظهروكم « تجعلونه قراطيس » فاضية عن الوحي وهي فائضة بالوحي « قراطيس تبدونها » حيث لا يظهر فيها وحي إذ حرفتوه « وتخفون كثيراً » منها ، الذي لم تقدروا على إمحائه وتحريفه ، « وعلمتم ما لم تعلموه أنتم ولا آبائكم » في ذلك الوحي النور والهدى ، وسائر الوحي قبل التورات .

وهنا الخطاب في « تجعلونه » هو قضية الخطاب في « قل »
 « تجعلونه قراطيس » غياباً لا تناسب الخطاب ولا سيما العتاب الذي هو قضية الخطاب ! .

« علمتم .. » برهان قاطع آخر على إنزال كتاب الوحي ، فإن من العلم ما ليس يكتسب بأية وسيلة متعمدة وقد علمتموه ، وهو الفاصل بينكم وبين المشركين الذين لا يعلمون ما علمتم ، فالصيغة الحاكية عن المشركين في القرآن هي : « الذين لا يعلمون » والحاكية عن سواهم « أهل الكتاب » فلا سبيل لهؤلاء إلى نكران الوحي ، بحجة أولى « من أنزل ... » ولا ثانية « وعلمتم » ، ف : من أنزل ومن علم ؟ :

« قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » ، « قل الله » عنهم إذ يعتقدون ولا يلفظون به ذريعة لنكران ما ينكرون .

« قل الله » ثم لا تحفل جدالهم ولجاجهم ومراءهم واهتراءهم ، « ثم ذرهم » إلى نعمة الله « في خوضهم يلعبون » .

وهكذا يواجه من يعاند الحق في حجاجه اللجاج أن يُترك في خوضه الغامر دون أن يؤسف عليه ويؤسى له ، حيث « جحدوا بها واستيقنتها

النبي (ص) وهو محتسب فقالوا يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى الواحاً ؟ فأنزل الله تعالى : « يسألك أهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء .. » فجثا رجل من اليهود فقال : ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئاً فأنزل الله « وما قدرنا الله .. » .

أنفسهم ظلماً وعلواً» ، وذلك لا يقتضي ترك محاربتهم ، فإن « ثم ذرهم » هي فقط امرٌ بتركهم في حقل الحجاج .

ذلك ، وكل جملة من هذه مستقلة في حقولها ، فـ « قل الله » تستقل في كافة الحقول ، توحيدية وشركية وإلحادية ، وفي حقل التوحيد توكلأ على الله لا سواء ، واستعانة بالله لا سواء ، أن يعيش الموحّد « قل الله » قولاً بالقال والمحال والأعمال « ثم ذرهم » تركاً لما سوى الله .

وفي حقل الإلحاد والإشراك « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » .

فحين لا ينفع قول الحق لا تترك أنت قول الحق بل « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » ، وعلى أية حال أثر القول الحق أما أثر فـ « قل الله » قولاً في نفسك وقولاً في حقل الدعاية ، فعلى الدعاية أن يعيش « قل الله » دون أن يتركه على أية حال .

ذلك ، فقد نرى أن لـ « ما أنزل الله » أعداء جاهرين ظاهرين وآخرين يتقبلونه ولا يقبلون إليه .

فالقائل « ما أنزل الله من شيء » ينكره أولاً، يتقلص ليتخلص منه على طول الخط ، ثم يوجه نكرانه بأن الله جلّ قدره هو فوق أن ينزل شيئاً لهذا الخلق الضئيل .

ثم القائل « أنزل الله » قد يحرفه كما يحب واقعياً أم دعائياً كما فعله المحرفون الكلم عن مواضعه في كتاب موسى والمسيح عليهما السلام ، وفعل معهم القائلون أن القرآن محرف ! .

ثم القائل « أنزل الله » دون تحريف ، القائل بأن القرآن هو الدليل الأول يتركه قائلاً : أين نحن وتفهم كلام الله ، إن له أهلاً خصوصاً لا يحل تفسيره إلا لهم .

سورة الأنعام / آية ٩٢ ١٣٧

ثم القائل « أنزل الله » مع التصديق أنه « بيان للناس » يحمل عليه الآراء تقديساً للأجلاء المفتين بخلافه ، فليعن ما عنوه منه !.

وهكذا نرى « ما أنزل الله » ظليماً أسيراً بأيدي الناس النسناس على مدار الزمن الرسالي ، فلو أن « ما أنزل الله » كان هو المحور الأصيل لمُدرء شرعة الله والمتشرعين بها ، دونما جَوْلٍ عنه لم تحصل هذه الخلافات العارمة والإختلاقات المتشعبة .

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (٩٢) :

« وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أُمَّ القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير » (٤٢: ٧) (١) .

.. تلك كتب للماضين ، ماضين على مناهجها وغير ماضين « وهذا » القرآن العظيم « كتاب أنزلناه مبارك » وكل كتب الله مباركة ولكن أين مبارك من مبارك ؟ .

فهذا المبارك تتم بركته، وتطم كافة المكلفين في كل حقول العلم والمعرفة والعمل الصالح إلى يوم الدين ، ثم وليس بدعاً من الكتب بل هو « مصدق الذي بين يديه » من كتب الوحي ، تصديقاً لصديق وحيها وتكذيباً للكاذب من تحريف أو تجديد .

وقد تلمح « بين يديه » إضافة إلى وحدة السلسلة الكتابية للرسول ، أن هذا الكتاب ناظر إليها مهيم عليها ، تصديقاً لصادقها وتكميلاً ، وتكذيباً لكاذبها « مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه » (٤٨: ٥) ، ثم :

(١) راجع الفرقان ٢٥: ١١٥ تجد تفصيل البحث حول امنية الدعوة القرآنية .

« ولتنذر أم القرى ومن حولها » فمكة أم القرى في أصل التكوين اعتباراً بالكعبة المباركة حيث دُحيت الأرض من تحتها ومُكَّت ، فكل القرى طارئة عليها وهي أمها ومُخها ، فقد اشتقت « مكة » من تمككت العظم أخرجت مخه ، فهي مخ الأرض وأصلها ومنشأها ، كما وأنها أول بيت وضع للناس : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدي للعالمين » .

ذلك وكما أن الأرض هي أم الكرات كلها بمعنى سبقها عليها في خلقها فصبغها بسايف المكان والمكانة لأصول المكلفين بين العالمين كما فصلت هذه السابقة السابقة في فصلت .

فهي أم القرى الرسالية في الكون كله ، أعم مما هي أم القرى الأرضية ، تحليقاً لواجهتها الروحية الرسالية على مكانات الرسائل كلها أرضية وسماوية .

فلأن « القرى » في حقل الانذار في القرى الرسالية ، وانها جمع محلي باللام وهو يفيد الاستغراق ، إذا فمستغرق القرى الرسالية أرضية وسماوية كلها تظل في ظل هذه الرسالة العالمية الكبرى دون إبقاء .

فلئن كان النص « مكة ومن حولها » لكان ظاهراً في الجزيرة العربية ، ولكنه « أم القرى ومن حولها » فـ « القرى » الشاملة لكافة المجتمعات المكلفة بالرسالات في الكون كله ، تفسر « من حولها » بمن حول هذه العاصمة الرسالية العالمية .

فبسة « القرى » هي فسحة هذه الدعوة ، ولأن « القرى » لا تختص بما حول مكة حيث تشمل ما تسمى قرية في أرض أو في سماء ، فـ « حولها » تعني نفس « القرى » ومكة أمها كلها ، دون مثل الطائف^(١)

(١) في تفسير العياشي عن علي بن أسباط قال قلت لأبي جعفر عليهما السلام لم سمي =

سورة الأنعام / آية ٩٢ ١٣٩

بل ان ما حولها طائف على العالمين اجمعين ، دون « طائف » ولا طائفة خاصة من العالمين .

فكما يعنى مما حول عاصمة الجمهورية الاسلامية كافة البلاد فيها ، ويعنى مما حول عاصمة الدولة المهدوية كافة من في الأرض وسائر المكلفين في أرجاء الكون ، كذلك - وبأحرى - « أم القرى وما حولها » في هذه الرسالة السامية ، فإن « القرى » التي هي حول « الأم » : العاصمة-هي مستغرق المجتمعات من كافة المكلفين من كل العالمين من أهل السماوات والأرضين .

هنا وفي الشورى (٧) « لتنذر ام القرى ومن حولها » وفي أخرى « لأنذركم به ومن بلغ » تشملان في ذلك الإنذار كافة البالغين من القرى المكلفة بشرائع الله ، وليس الإنذار إلا بالقرآن كما التذكير « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » فلا تختص الدعوة القرآنية بالعرب ، أم عرب الجزيرة ، أم القرى المجاورة لأم القرى في الجزيرة ، بل هي للناس كافة : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (٢٨:٣٤) « قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً » (١٥٨:٧) بل ولكل العالمين : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (١٠٧:٢١) .

فقد تصيّد أعداء للإسلام من المستشرقين أن تقصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها ، مقتطعين آية أم القرى من القرآن كله ليخيلوا إلى البسطاء أن هذه الدعوة كانت في بدايتها محصورة بهؤلاء الأميين ومجاوريهم ، ثم توسعت في الجزيرة كلها ثم همّ محمد (ص) أن تتخطاها إلى الناس كافة

النبي الأمي ؟ قال : نسب إلى مكة وذلك من قول الله « لتنذر ام القرى ومن حولها » وام القرى مكة ومن حولها الطائف « أقول : هذا تفسير باقرب المصاديق فلا تضيق به الآية الطليقة الشاملة لكل القرى في الكون كله .

وذلك بعد هجرته إلى المدينة وقيام دولته بها .

ولكنهم تغافلوا عن المعنى من القرى في أم القرى ، كما تغافلوا ان آيات الأنبياء وسبأ والأعراف من أوليات المكيات بداية الدعوة .

وحين تكون الدعوة الإسلامية للناس وللعالمين كافة، فالمتخلف عنها زعم اختصاصها بغيره خارج عن الناس وعن العالمين اجمعين ، فهو - إذا - في زمرة النسناس .

وهنا نقول لمثل « الحداد » يا حداد قف على حدك وخفف عن جزرك ومدك فما كتاب الله لعبة تلعب بها أنت وأمثالك ^(١) .

فالقرآن هو وسيلة الدعوة الخالدة إلى يوم الدين ، دعوة بأهله الرساليين ، رسولاً وأئمة معصومين ، ومن ثم علماء ربانيين دارسين في مدرسة القرآن العظيم ، محصورة الدعوة والدعاية في هذا المثلث ، إضافة إلى السنة الشارحة ، وكل ذلك لمكان « ولتنذر » دون « لينذر » هنا و « ذكر بالقرآن » وما أشبه في غيرها ، فكامل الإنذار هو أن يكون بكتاب معصوم بمنذر معصوم آمن يتلو تلوّه ويحذو محذاه ويرمي مرماه .

ذلك ! فلا تعني « ما حولها » الحول المجاور لها ، ولا - فقط - مشارق الأرض ومغاربها ، لأن أم القرى هي العاصمة الكبرى للمملكة الرسالية ، فـ « ما حولها » تعم كل قراها في الكون كله .

وهنا براهين اربعة تثبت وحي القرآن ، أولاها « مبارك » حيث يحمل كافة البركات المرجوة من عند الله تعالى ، فلا تجد بركة ربانية صالحة

(١) الاستاذ الحداد البيروتي رئيس مطارنة بيروت هو الذي ألف على إشرافه أربعة عشر كتاباً رداً - بزعمه - على القرآن ومنها « الكتاب والقرآن » حيث ذكر فيه شطحات مثل أن القرآن دعوة عربية وليست عالمية .

صادقة إلا ويحويها ذلك الكتاب المبين والبرهان المتين .

فهو مبارك في صيغة التعبير بلاغة وفصاحة في القمة العليا ، مبارك في الدلالة والتدليل ، مبارك في وَفْق الفطرة والعقلية السلمية وقضية الواقع المُعاش السليم دون أي دَغْل أو دَخْل أو دَجَل ، فلا مزرعة فيه في أي حقل من الحقول ، ولا مَمْسِك عليه علمياً أو عقلياً أو واقعياً أم في أي سؤل أو سؤل للمكلفين ، وفي جملة واحدة « ولو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

وثانيتها : « مصدق الذي بين يديه » فالكتاب غير الإلهي ليس ليصدق الوحي - كما لا يصدقه الوحي - ولا يصادقه لاختلاف الصادر والمصدر ، فلا يَصْدُقُ الوحي إلا الوحي لتطابق المغزى ، وتوافق المعنى .

فلسلة الوحي الرباني مرتبطة بحلقات متماثلة مهما تفاصلت في طقوس أو تفاضلت ، فانها تتفاضل حسب المصالح ولا تتعاضل ، وسائر السلسلة غير متماثلة وهي متفاصلة متعاضلة ، قضية وحدة المصدر وطلاق العلم هناك ، وعديد المصدر وخذ العلم هنا .

ذلك ، كما وأن تصديق الذي بين يديه حجة على أهل الكتاب تحرضهم على الإيمان به ، ولا سيما في الزمن القاحل الجاهل الذي سيطر فيه الجهل ، وحرقت كتب الوحي عن جهات أشراعتها .

لا سيما وأن القرآن يذكرهم بما في تلك الكتابات من بشارات في تصريحات وإشارات إلى هذه الرسالة الأخيرة .

كما وأن بلاغة التعبير وتلائم المعبر عنه دون تصادم - حال ان كتبهم أدنى تعبيراً وهي محرفة - يدلهم على أنه بأحرى منها في صبغة الوحي وصيغته وصياغته .

وثالثها « لتندر أم القرى » حيث إن مسؤولية إنذار أم القرى وفيها ألد

١٤٢ الجزء السابع

الأقوام في التأريخ الرسالي ، هذه بواقعية تأثيره كما حصلت ، مما يبرهن على بارع وحيه وقارع وقعته .

ورابعتها « ومن حولها » حيث الرسالة العالمية تتطلب معدات أقوى مما سواها ، والنظر الصائب الشاقب يفيدنا أن قابلية هذه الرسالة وفاعليتها تناسب الإنذار الطليق في العالمين أجمعين ^(١) .

ذلك ، « والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به » حيث الإيمان بالآخرة إيمان بالحساب ، فالثواب والعقاب ، ولزامه الرسالة الإلهية الحاملة لتكاليف الشرعة الحافلة لسؤل المتشرعين ، فلولاها لكانت الآخرة عاطلة ، إذاً فالإيمان بذلك البعث يوم الأخرى إيمان بالبعث يوم الأولى ، ومن ثم إنه هو الداعي إلى أمن شامل في الآخرة بما يبين من شروطات الأمن الواجب تحقيقها يوم الدنيا .

فالمؤمن بالآخرة حساباً وثواباً وعقاباً يفتش عن أصلح المعدات لحياة سعيدة فيها، وقضية ذلك التحري الصالح هي الوصول إلى كامل الإيمان بالقرآن ورسوله ، وكلما كان الإيمان بالآخرة أقوى فذلك التحري أكثر وأقوى ، وكلما كان أضعف كان صاحبه أفسل وأغوى .

صحيح أن من قضايا الإيمان بالآخرة هو الإيمان بشرعة سماوية تعم كل كتب السماء ، إلا أن صالح الإيمان بعد تحرف الكتب السالفة ونزول كتاب جديد مهيم عليها ، غير محرف عن جهات أشرعها ، إن ذلك يقتضي - فقط - الإيمان بالقرآن تطبيقاً له في كافة ميادين الحياة ، مهما كان التصديق بكل كتب السماء أيضاً من قضاياها ، تصديقاً لأصل الوحي فيها ، وتصديقاً لانقضاء دورها ، فتصديقاً بهذا القرآن كآخر منشور من ولاية الله .

(١) لتكملة البحث حول « أم القرى ومن حولها » راجع تفسير آيتها الثانية ٢٥: ١١٥ -

سورة الأنعام / آية ٩٣ ١٤٣

فلأن إيمان الكثير من أهل الكتاب بالآخرة قليل ضئيل قصوراً منهم وقصوراً في كتبهم لتحرفها عن الآخرة ، الصالحة للإيمان ، لذلك فهم لا يؤمنون بالقرآن تصلياً على شرعتهم القومية ، مصلحية الحفاظ عليها بالمنظر الأدنى إخلالاً على هذه الأدنى .

أجل وليس الإسلام هو الشرعة الوحيدة التي يؤمن بها من يؤمن بالآخرة لأنها فقط شرعة التوحيد الصالح والرسالة الصالحة وما أشبه كما يقوله قوالون ، إنما هو المهيمن على ما بين يديه من كتاب ومصدق لصديق الوحي فيها ، ولا يندد القرآن إلا بالمحرف المجدف فيها ، فليحذر الكتاب والقارئون ذلك المزلق الخطير الذي يخيّل إلى البسطاء أنه خدمة للإسلام .

« وهم على صلاتهم يحافظون » لأنها أفضل الصلوات إلى مرضات الله وأحوط الحياض على حرمان الله .

فإفراد الصلاة بالذكر بعد التوحيد والمعاد صراحاً والإيمان بالقرآن بينهما ، ذلك دليل الأهمية البالغة للصلاة بين كافة الصلوات ولكن شرط المحافظة عليها بكل المتطلبات المعرفية والعملية فيها ، فإنها - إذا - عمود الدين ، وقد اعتبرت إيماناً بين سائر العبادات : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » (٢: ١٤٣) فإنها واردة في حقل الصلاة عند غيار القبلة ، كما ولم يعبر عن سائر المعاصي بالكفر وقد عبر به لترك الصلاة فـ « من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر » .

هنا تختتم هذه الجولة المتلاحقة الأشواط بمشهد شاخص حي مكروب رعيب - مشهد الظالمين - والله من ورائهم رقيب :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ :

هنا عرض لثالوث منحوس من مظالم الإفتاء في حقل الوحي ، وأنها أظلم الظلم بحق الوحي :

١ - « من إفتري على الله كذباً » أنه ما أنزل على بشر من كتاب وما أرسل بشراً رسولاً ولا يحيي الموتى ليوم الحساب ، وما أشبه من سلبيات وإيجابيات كافرة مفترية على الله ، ومن أكفرها اتخاذ الشركاء لله وعبادتها كما الله، وهو مفتاح كل فرية على الله .

٢ - « أو قال أوحى إليّ ولم يوح إليه بشيء » كسائر المدّعين الوحي بكل إدغال واضلال ودون أي برهان ودليل .

٣ - « ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله » ترفيعاً لرتبته إلى مرتبة الربوبية ، أو تخفيضاً له تعالى إلى خافض منزلة العبيد ، وكما قاله مشركون : « لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين » (٨ : ٣١) .

وهنا الرواية القائلة أن الرسول (ص) كان يمضي ما يغيره بعض كتاب الوحي ^(١) إنها فرية قاحلة عليه (ص) تجهيلاً لساحته، ونسبة الخيانة في الوحي إلى سماحته ! .

(١) نور الثقلين ١ : ٧٤٥ في اصول الكافي ابو علي الأشعري عن محمد بن عبد الجبار عن صفوان بن يحيى عن ابن مسكان عن ابي بصير عن احدهما قال : سألته عن قول الله عز وجل : « ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً . . » قال : نزلت في ابن ابي سرح الذي كان عثمان استعمله على مصر وهو ممن كان رسول الله (ص) يوم فتح مكة هدر دمه وكان يكتب لرسول الله (ص) فإذا أنزل الله « ان الله عزيز حكيم » كتب « ان الله عليم حكيم » فيقول له رسول الله (ص) دعها فان الله عليم حكيم وكان ابن ابي سرح يقول للمنافقين : اني لأقول من نفسي مثل ما يجي به فما يغير علي فانزل =

ومما يحير العقول نقل أمثال هذه الأحاديث في كتب التفسير وسواها تصديقاً لمحتوياتها دون رعاية لحرمة القرآن ورسوله أو دراية لما يروى ! .

وهكذا ابتلي الإسلام بروايات مختلفة تروى وتقع موقع القبول،

الله تبارك وتعالى فيه الذي انزل .

وفيه عن تفسير القمي حدثني ابي عن صفوان عن ابن مسكان عن ابي بصير عن ابي عبد الله (ع) قال : ان عبد الله بن سعد بن ابي سرح كان اخا عثمان من الرضاعة اسلم وقدم المدينة وكان له خط حسن وكان إذا نزل الوحي على رسول الله (ص) دعي فكتب ما يمليه عليه رسول الله (ص) فكان إذا قال له رسول الله (ص) : « سميع بصير » يكتب « سميع عليم » وإذا قال : « والله بما تعملون خبير » يكتب « بصير » ويفرق بين التاء والياء وكان رسول الله (ص) يقول : هو واحد فارتد كافراً ورجع إلى مكة وقال لقريش : والله ما يدري محمد ما يقول : أنا اقول مثل ما يقول فلا ينكر عليّ فأنا انزل مثل ما ينزل فانزل الله على نبيه في ذلك « ومن اظلم . . » فلما فتح رسول الله (ص) مكة امر بقتله فجاء به عثمان قد اخذ بيده ورسول الله (ص) في المسجد فقال يا رسول الله (ص) اعف عنه فسكت رسول الله (ص) ثم اعاد فسكت ثم اعاد فقال (ص) هو لك فلما مر قال رسول الله (ص) لأصحابه : ألم أقل من رآه فليقتله فقال رجل كان عيني اليك يا رسول الله (ص) ان تشير لي فأقتله فقال رسول الله (ص) ان الأنبياء لا يقتلون بالاشارة فكان من الطلقاء .

وفي رواية ابن عباس انه ابن سعد ابن ابي سرح وكان اسلم وكتب السوحي لرسول الله (ص) وانه لما نزلت الآية في « المؤمنون » ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين « دعاه النبي (ص) فاملأها عليه فلما انتهى الى قوله « ثم انشأناه خلقاً آخر » عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان فقال : تبارك الله احسن الخالقين « فقال رسول الله (ص) : هكذا نزلت علي . . فشك عبد الله حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقاً لقد اوحى إليّ كما اوحى إليه ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال فارتد عن الاسلام ولحق بالمشركين (رواه الكلبي عن ابن عباس) .

اقول : في هذه الروايات مس من كرامة الرسالة وامانتها وكرامة الوحي ومحتدة فهي من المختلقات الزور اعاذنا الله منها .

مناقضة صريحة لكتاب الله الناطق بالحق ! .

وهذه الآية تندد - فيمن تندد - بهؤلاء المجاهيل الأغبياء ، الراوين
لأمثال هذه المختلقات الزور ، ثم البسطاء الذين يتقبلونها آخذين لها بعين
الإعتبار ، لا لشيء إلا لأن فلاناً روى وفلتانا هوى .

ذلك ! وابن أبي سرح المختلق فيه - في هذا المسرح - ما اختلق ،
كان - لو كان - يكتب الوحي في المدينة وآية التنديد مكية ، ثم وكيف
يستأمن النبي الصادق الأمين مثل هذا الخائن اللعين المصرح بخيائنه ثم
يقره عليها ، ثم هو يرتد بتلك المجارة الخائنة ! .

وهنا نعرف الضرورة القاطعة في عدم الوثوق إلى الروايات شيعية أو
سنية ما لم يصدقها القرآن ، أم ولأقل تقدير لم يكذبها^(١) .

ثم « أو » العاطفة بين الأولين دليل اختلافهما ، فالمفتري على الله
الكذب هنا لا يشمل « من قال أوحى إلى ... » مهما كان من المفتريين ،

(١) فما لم تتقن في دلالة قرآنية لشيء ليس لك نقل حديث فيه أو تصديقه ، وإذا
استفاض أو تواتر حديث عن الرسول (ص) أو الأئمة المعصومين من ذريته فالموافق
للقرآن مصدق مفروض ، والمخالف للقرآن مكذب مرفوض ، وما لم تجد له أصلاً
في كتاب الله فإلى سنة رسول الله (ص) وما لم تجده فيها مما لا يخالف قاطع العقل
والعلم والحس تصدقه ، وحين يخالف واحداً منها لا تصدقه ، وغير المخالف ولا
الموافق للكتاب والسنة وغيرهما من المقطوع حجته نتردد فيه ونحمله على روايه .
إذاً فلا يجوز الاستناد إلى حديث بمجرد أن ناقله فلان ومصدق فلتان ، حيث
الرسول (ص) يحذرنا عن ذلك في خطبته الشهيرة الغراء في منى : « لقد كثرت عليّ
الكذابة وستكثر فمن كذب علي متعمداً فليتبوء مقعده من النار فما جاءكم عني من
حديث يوافق كتاب الله وستي فانا قلته وما جاءكم من حديث يخالف كتاب الله أو
ستي فلم أقله » .

سورة الأنعام / آية ٩٣ ١٤٧

فالأولون هم المشركون وأضرابهم الذين يفترون على الله الكذب ،
والآخرون هم المدَّعون الوحي ، فكما أنهم أولاء يفترون الكذب فهم من
أظلم الظالمين ، كذلك مدعي الوحي ولا يوحى إليه بشيء ، فلو أنني :
محمد الرسول-لم يوح إلي وأدعية لكنت من أمثالكم في أظلم الظلم .

ثم هنا فرقة ثالثة يدعي مستقبل الوحي وعداً مكذوباً ، وهم أنحب من
مدعي الوحي كاذباً لمكان «سأنزل» الدالة على إمكانية إنزال مثل ذلك من
عند الله أم سواء ، ويكأنه إله من دون الله ينزل وحياً كما هو، أم هو مسيطر
على الله يستنزه الوحي ، أم ويستنزه ممن سواء ، وذلك فرق الوحي المنزل
على الرسل حيث ينزل عليهم ولا يُنزلون ، فإنما المنزل للوحي هو الله ،
والرسول ليس إلا منزه ، والوسيط فيه هو النازل به ، فـ «سأنزل» هي
دعوى فوق الرسالة ألوهة وسواها .

وقد تلمح « مثل ما أنزل الله » أنه ينزله ممن سواء ، نفسه أم سواء ،
وذلك من دعوى المماثلة مع الله ، أن ينزل من الوحي على رسول كما أنزل
الله على رسوله .

ثم «سأنزل» في وعد الإستقبال لا مستقبل له منذ وعده كما لم
يحصل حتى الآن ، فقد حاول كثير أن يعارضوا وحي القرآن بما سواء
وحتى بسائر وحي الله ولن يقدروا : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على
عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين .
فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت
للكافرين » (٢٤: ٢) .

ذلك ، والذين يختلقون ضوابط دون سناد إلى كتاب أو سنة ، ثم
يرتكنون عليها في إصدار أحكام ينسبوننها إلى الله ، هم كذلك من
المفترين على الله الكذب ، أو القائلين « أوحى إلي . . » أو «سأنزل مثل
ما أنزل الله » ومن أشبه . .

« ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت » « مشهد مفزع مرعب حيث غمرات الموت تغمرهم ، وكما كانوا في غمرات الضلالات جزاءً وفاقاً ونكالاً حساباً .

وهنا إستعارة لطيفة بارعة حيث شبه الظالمون الذين يعتورهم كرب الموت وغُصَصه بالذين تتقاذفهم غمرات الماء ولججه ، وقد سميت الكربة غمرة لأنها تغمر قلب الإنسان آخذة بكظمه وخاتمة على متنفسه ، والأصل في ذلك كله غمرة الماء .

« ولو ترى . . . والملائكة باسطوا أيديهم » لتوفّيهم وهم ماسكون أرواحهم في زعمهم فيقولون لهم : « أخرجوا أنفسكم » عن الحياة الدنيا وعن أبدانكم ، أمراً قاطعاً لا مرد عنه ، فهم الباسطون أيديهم يتوفونهم رغم أنوفهم قائلين : « اليوم تُجزون عذاب الهون » كما أهنتم الحق « بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون » .

ذلك، وإن نفس المؤمن تنشط للخروج للقاء ربه ، ونفس الكافر تكره الخروج بما قدمت يداه على حد قول الرسول (ص) : « من أراد لقاء الله أراد الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » ^(١) .

وله « أخرجوا أنفسكم » إخراجات ، منها « أخرجوا أنفسكم » من غمرات العذاب إن كنتم فاعلين ، هزة بهم كما هزوا بآيات ربهم ، أو « أخرجوا أنفسكم » المخلدة إلى هذه الحياة الشرسة المُحرّجة لعباد الله ، فاعلين بهم فعلة الغريم الملازم المُلحّ باسطاً يديه إلى من عليه الحق .

وعلى أية حال فالأمر هنا بين تعجيز هازيء وبين تكليف واقع لا يستطيعون أن يتخلفوا عن أمره على أمره .

ومما تدل عليه « أخرجوا أنفسكم » دون « أخرجوا » أن الأنفس هي غير الأبدان مهما كانت وليدة منها وكما قال الله تعالى : « ثم أنشأنه خلقاً آخر » فالروح - إذا - خلق آخر أنشئ من البدن بعد إكتماله جنيناً .

كما تدل « اليوم تجزون » على الحياة البرزخية ابتداء بالموت حيث اليوم هو يوم خروج الأنفس .

و « الظالمون » هنا هم رؤوس الظلم ومنهم المختلقون هذه الأحاديث الزور تشويشاً على وحي القرآن ، ثم الناقلون لها دونما رد عليها تلقياً بالقبول ! مهما كان الأصل هم المشركون ، فإن واجهة الخطاب من قبلهم المشركون ومن بعدهم أنفسهم : « وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ... » (٩٤) ولكن أشباههم يصطلون بصلاءهم في الجحيم .

فكما « الظالمون » شرعة الوحي أدخلوا السذج العوام في غمرات الإرتياب ، كذلك اليوم يُجزون عذاب الهون بما كانوا يقولون على الله غير الحق . .

هنا « عذاب الهون » عذاب مع الهوان قضية الإفتراء على الله كذباً ، وتكذيب لآيات الله إهانة بها ومهانة واستكباراً . فعذاب الهون جزاء وفاء للإفتراء الهون والإستكبار فيُخلد فيه مهاناً .

وهكذا يتوفى الذين كفروا بكل إيعاد وهوان : « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » (٥١: ٨) يضربون وجوههم لمواجهة العذاب ، وأدبارهم حين لا يحثون لخروج أنفسهم ، وهذه أولى حرقه لعذاب الهون : « وذوقوا عذاب الحريق » .

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ

ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ :

هل الخطاب في « جثمتونا » هو من الله ؟ والكفار « لا يكلمهم الله » (٧٧: ٣) ! فليكن من الملائكة نقلاً عن الله ؟ وصالح التعبير - إذاً - « لقد جثمتو الله .. كما خلقكم » ! .

« لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم » (٧٧: ٣) إضافة إلى اختصاص السلب بيوم القيامة ، لا تعني إلا كلام العطفة الرحمة ، وأما كلام التنديد والزحمة فهم مستحقوها على أية حال ، اللهم إلا يوم الدنيا حيث لا يواجهون بخطاب إلا بوسيط الوحي .

« ولقد جثمتونا » لعالم الحساب والجزاء ، فكلنا جاءون إلى الله ، إلى ربوبيته في عالم التكليف يوم الدنيا ، وإلى ربوبية الجزاء في عالم الجزاء ، وهنا زيادة أن المكلفين لا خيرة لهم في أعمال ، إلا الجزاء الموعود لهم ثواباً وعقاباً .

« جثمتونا فرادى » بالخلق الثاني يوم القيامة ، فرداً عريان وأجرد غلبان ، لقد ندَّ عنكم كل شيء وتفرق عنكم كل أحد وما عدتم تقدرون على شيء مما خولكم الله إياه ، فأصبحت دون أي جمع أو قوة إلا كل بنفسه « كما خلقناكم أول مرة » حيث لا جمع ولا قوة ، بفارقين اثنين : أن المحافظين من الوالدين وسواهما هنا ليسوا هناك ، وأنكم تحملون معكم مستحق الثواب أو العقاب ، فـ « تركتم ما خولناكم .. » تقضي على الأول ، وكونه يوم الجزاء يحكم بالثاني ، وكافة الوسائط المزعومة والشفعاء المتخيلة مقضي عليها بـ « تركتم - إلى - تزعمون » .

« تركتم ما خولناكم » من قوات ذاتية ، وأخرى منفصلة من أموال وبنين وما شابه ، إنها كلها متروكة وراء ظهوركم ، حيث ظلت في الحياة الدنيا

سورة الأنعام / آية ٩٤ ١٥١

وضلت عنكم في الأخرى، فما يخولنا الله إياه من طاقات وإمكانات متصلة أو منفصلة هي متروكة لمساعدتنا ، أن نتركها وراء ظهورنا إذ لم نستفد منها ولم نُفِد في مرضات الله ، أو نقدمها لأنفسنا « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » فليس « جئتمونا فرادى وتركتم » إلا على الأولين ، ثم الآخرون يجيئون الله بجمعهم الخير وعملهم النير مما قدموه لأنفسهم .

ثم « وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء » الله ، أو شركاء في حيوياتكم الدنيوية ، وفي عبارة مختصرة مختصرة « لقد تقطع بينكم » ما بينكم وبين مزاعمكم « وضل عنكم ما كنتم تزعمون » من شركاءكم وكل من يناصركم في غمراتكم .

فالكافرون - إذا - هم فرادى عن جمعهم وما كانوا يكسبون حيث لا تنفعهم ، والمؤمنون ليسوا فرادى حيث جمعوا إلى أنفسهم مرضات الله فـ يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم « (٨٩: ٢٦) وهو أجمع جمع ينفع يوم لا ينفع أي جمع .
وعلى « فرادى » هي جمع « فردان » كسكاري جمع سكران ، أو جمع « فريد » كردافي جمع رديف .

ثم الفردان والفريد تعنيان التفرد عن غير أنفسهم ، فاضية خاوية عما كانوا يزعمون من جمع وناصرين ، فما لهم من جمع هناك ولا ناصرين « لقد تقطع بينكم ... » .

ولأنه لا فصائل هناك على الحقيقة فتوصف بالتقطع ، فالمراد - إذا - لقد زال ما كان بينكم من شبكة المسودة وعلاقة الألفة ، التي تشبهه لاستحكامها بالحبال المحصرة والقرائن المؤكدة .

فهما كانت تلك الوصلات هنا أكيدة بكل مكر ومكيده ، فهي تبدل إلى انفصالات أكيدة ، تقطعاً بعد التوصل ، وتشتتاً بعد التحصّل .

وهنا « بينكم » منصوباً ذات وجهين ، نصباً بالمفعولية والفاعل هو الله المضمّر في « تقطع » أي تقطع الله بينكم ، أو تقديرأله « ما » فهي ظرف لها ، لقد تقطع ما بينكم .

ثم « ما نرى معكم » سلب لشفاعتها لهم ، لا لكونها معهم في الأخرى فـ « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكلٌ فيها خالدون » (٩٩: ٢١) فالمعية المنفية هي المناصرة بصفة الشركاء كما كانوا يزعمون ، فلا تعني سلب وجود الشركاء معهم هناك خارجة عن معية الإشراف ، إلى معية الخلود في النار .

وقد تلمح « كما خلقناكم أول مرة » أنه « إذا كان يوم القيامة حشر الناس حفصة عراة عزلاً »^(١) ، وحين يُسأل رسول الله (ص) على المحكي : « واسواتاهم إن الرجال والنساء سيحشرون جميعاً ينظر بعضهم إلى سوءة بعض ؟ يجيب : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض »^(٢) .

(١) الدر المشور ٣: ٣٢ - اخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله سمعت رسول الله (ص) يقول: ...

(٢) المصدر اخرج ابن أبي حاتم والمحاكم وصححه عن عائشة أنها قرأت قول الله « لقد جثتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » فقالت عائشة يا رسول الله (ص): ... وفيه عن الخرائج والجرائح عن النبي (ص) حديث طويل يذكر فيه فاطمة بنت اسد وفيه قرأت عليها يوماً « ولقد جثتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » فقالت : واسواتاه بالله فسألت الله أن لا يبدي عوراتها ثم سألتني عن منكر ونكير فأخبرتها بحالهما قالت واغوثاه بالله فسألت الله أن لا يريهما إياها وأن يفسح لها في قبرها وأن يحشرها في اكفانها .

وفيه عن اصول الكافي عن أبي عبد الله (ع) حديث طويل يحكي فيه ما صنع رسول الله (ص) بفاطمة أم امير المؤمنين (ع) لما توفيت يقول فيه (ع) قال (ص): =

وقد تعني « كما خلقناكم . . » في خصوص « جئتمونا فرادى » فيحشر الناس - إذاً - بأكفانهم أو ما يستترهم من غيرها (١) فإن « ما نرى . . » تسلب ما ينفع يوم لا ينفع مال ولا بنون ، أم إن المؤمنين يُحشرون بأكفانهم إحتراماً وغيرهم عراة إختراماً ، وهذا قول فصل بين مطلق السلب والإيجاب يؤيده إختصاص الخطاب بالكافرين .

ذلك المشهد الذي يهز القلب هزاً عنيفاً وهو يشخص ويتحرك ويلقي ظلاله على النفس ويسكب إيحائاته في القلب . . إنه منشور ولاية الله ، إنه القرآن العظيم الذي هم عنه معرضون ، فأين تذهبون وأنى تؤفكون ؟ أفكأ آلهة دون الله تريدون .

* إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾
فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

واني ذكرت يوم القيامة وإن الناس يحشرون عراة كما ولدوا فقالت واسواتاه فضمنت لها أن يبعثها الله كاسية وذكرت ضغطة القبر فقالت : واضعفاء فضمنت لها أن يكفيها الله ذلك فكفنتها بقميصي واضطجعت في قبرها لذلك .

(١) المصدر في الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله (ع) قال : توقوا في الأكفان فإنكم تبعثون بها ، وفيه في الفقيه قال (ع) جيدوا أكفان موتاكم فإنها زيتهم ، وفيه عن الاحتجاج عن أمير المؤمنين (ع) حديث طويل وفيه قال السائل : أخبرني عن الناس يحشرون يوم القيامة عراة ؟ قال : بل يحشرون في أكفانهم ، قال : أنى لهم بالأكفان وقد بليت ؟ قال : إنه إلهي أحيى أبدانهم جدد أكفانهم ، قال : فمن مات بلا كفن ؟ قال : ستر الله عورته بما يشاء من عنده ، قال : فيعرضون صفوفاً ؟ قال : نعم هم يومئذ عشرون ومائة ألف صف في عرض الأرض .

حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي
 جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
 قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم
 مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ
 لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
 فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ
 حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ
 مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ
 انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ
 وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
 يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَىٰ يَكُونُ
 لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ
 شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَُ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقُ

كُلِّ شَيْءٌ عِبَادُهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢٦﴾
 لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
 الْخَبِيرُ ﴿١٢٧﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ
 فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١٢٨﴾
 وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لِّيُنْبِتْنَاهُ لِقَوْمٍ
 يَعْلَمُونَ ﴿١٢٩﴾ اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
 مَا أَشْرَكُوا ۚ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ۚ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
 بِوَكِيلٍ ﴿١٣١﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا
 اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ
 ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

وهكذا تدافع الموجات المتلاحقة القرآنية في مجاريها المتدفقة
 المتلفة ، عن روعة باهرة يصل اليها التعبير والتصور والايقاع من سياقها .

فالقارئ يحس كأنما المشاهد تنبثق انبثاقاً مباشراً بمدلولاتها بكل
 التماسع واللاء ، متجلية للحواس والعقول والقلوب ، موجات متلاحقة

متلافة تدع الناظرين إليها حيارى ، فـ « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » !
 وها نحن في هذا الدرس أمام كتاب التكوين المفتوح برحمة متواترة
 ربانية يذكرنا بها ربنا ويمر بها الغافلون سكارى سبات . . ! :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَابِ وَالنُّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (٩٥) :

إنه تعالى « رب الفلق » (١١٣: ١) : فـ « فالق الإصباح » (٩٦) عن
 ظلام الليل ، وفالِق المصباح بمادة النور و « فالق الحب والنوى » وفالِق
 الحي من الميت والميت من الحي ، فلا فالِق إلا هو كما لا خالق إلا هو ،
 فانه في التكوين ككل هو « رب الفلق » حيث يفلق النطفة عن المني ،
 والعلقة عن النطفة ، والمضغة عن العلقة ، والعظام عن المضغة ، والروح
 عن الجنين : « ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

ذلك في فلق الإنسان وبأحرى فيما دونه في كون أو كيان « فبأي آلاء
 ربكما تكذبان » ؟ ! .

ثم وليس يختص فلق رب الفلق بمادة الكون، بل وبأحرى في الروحيات
 المتلفعة ، فرب الفلق يفلق ما أغلقته الشياطين من غاسق إذا وقب ومن
 النفاثات في العقد ومن حاسد إذا حسد . .

ذلك ، لأن الفلق في أصله هو شق الشيء واستخراج ما فيه ، فقد
 يشمل كل شق فيه خير بعدله ورحمته ، وكما فلق السماوات والأرض من
 المادة الأولية المسماة بـ « الماء » وفلق ذلك الماء لا من شيء إلا بإرادته
 البديعة ، فقد يشمل « رب الفلق » مثلث الفلق كأصل ، وسائر الفلق
 كفروع ، ولذلك نسمع الرسول (ص) يدعو : « اللهم فالق الإصباح وجاعل
 الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً أقض عني الدين وأغنني من الفقر

وأمتعني بسمعي وبصري وقوتي في سبيلك»^(١) .

« إن الله فالق الحب » عن موته وكذلك « النوى » إلى حياة نباتية أم حيوانية أو إنسانية ، فنوى النطفة تنقلب جنيناً حياً ، وذلك إخراج للحي من الميت : « يخرج الحي من الميت » كعملية دائبة دونما أية وقفة ، لمحة من المضارع المقصود به الإستمرار لأنه أهم .

« ومخرج الميت من الحي » بصيغة الفاعل اللامحة إلى الأقل عملية لأنه دون الأول ، أم ولأنه معطوف على « فالق » ففاعل ، و « يخرج » تفسير له « فالق » ففعل .

« ذلكم » العظيم العظيم هو « الله » دون من سواه « فأني تؤفكون » تحولون إلى كذب خاوي وأنتم تعلمون ؟ .

وليس فحسب أن العلم على تقدمه البار لم يصل حتى الآن إلى سر الحياة ، بل ولما يصل أيضاً إلى حقيقة المادة ، والعلم كله عند الله « ذلكم الله فأني تؤفكون » ! .

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٩٦) :

« الإصباح » هو الدخول في الصبح ، وليس الداخل فيه إلا الشمس الآخذة في طلوعها في الآفاق وعلى ضوءها كل المصبحين ، فالله هو الذي يفلق الإصباح ، حيث يشق ظلام الليل في منتهى إنحداره فيفلق ظلام الجو بطلوع الشمس ، فالدخول في الصبح بحاجة إلى فلق وهو « فالق الإصباح » .

(١) . الدر المنثور ٣: ٣٤ - اخرج ابن أبي شيبة عن مسلم بن يسار قال كان رسول الله (ص) يدعو ...

وهو كذلك الصبح ففلقه هو شقه عن الليل بوصول الشمس إلى الآفاق المعنية منذ تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، فذلك الخيط لما يفلق عن قرينه فهناك الصبح فقد يعني الإصباح الخيط الأبيض إذ يدخل في الصبح بعد فلقه عن الخيط الأسود من الفجر .

وانفلاق الظلام بالإصباح حركة تشبه انفلاق الحياة عن الحب والنوى ، فكما أن الله هو المخرج الحي من الميت في سائر الأحياء من الأموات ، كذلك هو المخرج النور عن الظلام ، مهما اختلفت شكلية الإخراج والمُخرج هنا وهناك .

وفيما يُظن أن ظلام الليل موت فلماذا هو؟ تأتي الحكمة الربانية صارحة : « وجعل الليل سكناً » لنومة هي كموتة فلتكن في حالة ميتة من الأفق وهي الليل ، فقد جعل الليل بمنزلة المحبوب الذي تسكن إليه النفوس وتحبه القلوب .

كما « والشمس والقمر حساباً » حساباً لحياة اليقظة لتمضي بحساب دونما فوضى جزاف : ف« هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » (١٠: ٥) « الشمس والقمر بحسبان » (٥٥: ٥) .

ذلك ، وعلى حد المروى عن الرسول (ص) : « إن خيار عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والنجوم والأظلة لذكر الله » (١) .

(١) الدر المنثور ٣: ٣٤ - اخرج ابن شاهين والطبراني والحاكم والخطيب عن عبد الله بن أبي أوفى قال قال رسول الله (ص) : . وفيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ص) ثلاثة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله التاجر الأمين والامام المقتصد وراعي الشمس بالنهار « وفيه عنه (ص) احب عباد الله الى الله رعاء الشمس والقمر يحييون عباد الله إلى الله ويحييون الله الى عباده .

ولأنه « جعل الليل سكناً » فلا تصلح الحركات المتعبة في الليل أو إسحاره دون نوم ، ولا ذبح الحيوان فيه إلا عند الضرورة ^(١) .

ولأن النساء سَكَنَ فقد يرجح التزويج بالليل سكناً على سكن ^(٢) « ولا تسر أول الليل فإن الله جعله سكناً وقدره مقاماً لا ظعناً فأرح فيه بدنك وروحَ ظهرك » ^(٣) .

وترى « حساباً » هي جمع الحساب كركبان وشهبان ، أم مصدر كالرجحان والنقصان ؟ .

قد يرجح المصدر بمعنى ما يُحسب به وكما « يرسل عليها حساباً من السماء » (١٨ : ٤٠) ، فكما أن العذاب حساب يُحسب به محاسبة العذاب ، كذلك الشمس والقمر حساب يحسب بهما محاسبة السنين والشهور والأيام والساعات .

فلقد جعل الشمس والقمر لمحاسبة الأوقات لحد يعبر عنهما بالحسبان الحساب و « ذلك تقدير العزيز العليم » .

فكما « يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج » كأنه نفس المواقيت حال أنه لمعرفة المواقيت بأهلته ، كذلك الشمس وبأحرى منه

(١) نور الثقلين ١ : ٧٤٩ في تهذيب الأحكام بإسناده إلى إبان بن تغلب عن أبي عبد الله (ع) قال : كان علي بن الحسين عليهما السلام يأمر غلمانه أن لا يذبحوا حتى يطلع الفجر ويقول ان الله تعالى جعل الليل سكناً لكل شيء ، قال : قلت جعلت فداك فإن خفنا ؟ قال : ان كنت تخاف الموت فاذبح .

(٢) المصدر في الكافي الحسين بن محمد عن علي بن محمد عن الحسن بن علي الوشاء عن أبي الحسن الرضا (ع) قال : سمعته يقول في التزويج : من السنة التزويج بالليل لأن الله جعل الليل سكناً والنساء إنما هن سكن .

(٣) المصدر في نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (ع) .

١٦٠ الجزء السابع

حيث يعرف منها الساعات إضافة إلى الأيام ، والقمر لا تقرّر الساعات إلاّ نزرأ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٩٧) :

أترى « جعل لكم النجوم » فقط ، فهذه المليارات من النجوم في الجزائر السماوية لا فائدة فيها إلاّ « لكم .. لتهتدوا » ؟ ولما تصل انوار بعض النجوم اليها حتى الآن أم لن تصل ؟ فضلاً عن الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر ! .

كلا ! إنها ليحكم ومصالح شتى ، ولكنها ليست منفصلة عما لكم فقد « جعل » منها « لكم لتهتدوا بها .. » وليس « خلق » حتى نعم كل الغايات ، وذلك من واسع رحمته أنه يهدينا بنجوم فكما هي لأهلها رحمة ، كذلك لنا - البعاد البعاد عنهما بملايين السنين الضوئية أما قل أو كثر - هي جمال منظراً ، وهدى نظراً ، وعلمنا نهدي بسائر النجوم في مستقبل مجهول « في ظلمات البر والبحر » للأسفار الجوية .

ذلك ، فـ « تعلّموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا » ^(١) ، فإن تعلم النجوم لما سوى هذه الهدى ضلالة أن يزعم لها تأثير في سعادة وشقاوة أو موت أو حياة أو رزق أو جوع وما اشبه، وهذا هو المعني من « نهى رسول الله (ص) عن النظر في النجوم » ^(٢) ومحور النهي

(١) الدر المنثور ٣: ٣٤ - اخرج ابن مردويه والخطيب عن ابن عمر قال : قال رسول الله (ص) : ...

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٥ - اخرج ابن مردويه والخطيب عن علي (ع) قال : نهاني رسول الله (ص) عن النظر في النجوم ، واخرج مثله عن أبي هريرة وعائشة وعمر وابن مسعود .

هو التنجيم إخباراً عن الغيوب أو اعتقاداً بتأثيرها في الكائنات^(١).

وفيه عن ابن عباس قال : قال النبي (ص) من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد « وفيه عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله (ص) لقد طهر الله هذه الجزيرة من الشرك ما لم تضلهم النجوم « وفيه عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) : « ان متعلم حروف أبي جاد وراء في النجوم ليس له عند الله خلاق يوم القيامة » وفيه عن سمرة بن جندب انه خطب فذكر حديثاً عن رسول الله (ص) انه قال : أما بعد فإن ناساً يزعمون ان كسوف الشمس وكسوف هذا القمر وزوال النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض وانهم قد كذبوا ولكنها آيات من آيات الله يعتبر بها عباده لينظر من يحدث له منهم توبة .

(١) ارسل المحقق في المعتبر عن النبي (ص) انه من صدق منجماً أو كاهناً فقد كفر بما انزل على محمد (ص) وفي رواية نصر بن قبابوس عن الصادق (ع) : ان المنجم ملعون والكاهن ملعون والساحر ملعون . وفي نهج البلاغة انه (ع) لما أراد السير الى بعض أسفاره قال له بعض اصحابه إن سرت في هذا الوقت خشيت ألا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم فقال (ع) : له : اتزعم انك تهدي الى الساعة التي من سار فيها إنصرف عنه السوء وتخوف الساعة التي من سار فيها حاق به النصر فمن صدقك بهذا القول فقد كذب القرآن واستغنى عن الاستعانة بالله تعالى في نيل المحبوب ودفع المكروب - إلى ان قال - : أيها الناس اياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر فانها تدعو إلى الكهانة فالكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار ، ومثله ما وقع بينه وبين منجم آخر نهاه عن المسير فقال (ع) له : اندري ما في بطن هذه الدابة اذكر ام انثى ؟ قال : حسبت علمت ، قال (ع) فمن صدقك بهذا القول فقد كذب بالقرآن قال الله : ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام . . ما كان محمد (ص) يدعي ما ادعيت اتزعم انك تهدي الى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء والساعة التي من سار فيها حاق به الضر من صدقك بهذا فقد استغنى بقولك عن الاستعانة بالله في هذا الوجه واحوج إلى الرغبة إليك في دفع المكروه عنه .

ذلك، فترى - بعدُ - أن الله الذي جعل من فوائد النجوم أن يُهتدي بها في حوائجنا المعيشية ، انه لم يجعل لنا نجوم الهدى الروحية رسلاً وأئمة يهدوننا إلى الله ، فكما لا بد من نجوم الهدى المعيشية دائبة ، كذلك - وبأحرى - دائب نجوم الهدى الروحية ، فأصلها هو القرآن العظيم ، وفرعها بفصلها هو الثقل الأصغر ، وكما في الخبر : « النجوم آل محمد (ص) » ^(١) .

« قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » - يعلمون دلالات الآيات على مدلولاتها ، ودلالاتها ككل على الخلاق العظيم ، إستدلالاً بالمحسوس على اللامحسوس ، وبالمحدود على اللامحدود ، وبالأقل على غير الأقل الأزلي الأبدي وهو الله تعالى شأنه » ^(٢) .

أجل وذلك الفلك الدائر بشمس وقمر ونجومه هو من آيات الله البينات « لقوم يعلمون » كما هي من الغايات المعبودات لقوم لا يعلمون .

ذلك ، وترى ظلمات البر والبحر في هدي النجوم هي فقط الظلمات الحسية ؟ وظلمات الأفكار والتصورات في مختلف التطورات هي أظلم من الحسية ! .

(١) نور الثقلين ١ : ٧٥٠ عن تفسير القمي ، وهو من الجري والتأويل أو تعميم الدليل .
 (٢) عن معاني الأخبار روى الفضيل بن عمرو عن أبي عبد الله (ع) في قوله تعالى : « وإذ ابتلى إبراهيم بكلمات » قال : وأنا الكلمات فمنها ما ذكرناه ومنها المعرفة بقدم بارئه وتوحيده وتنزيهه عن الشبه حتى نظر إلى الكوكب والقمر والشمس واستدل بأقول كل منها على حدوثه ويحدثه على محدثه ، ثم اعلم ان الحكم بالنجوم خطأ .

وهذه من المميزات القرآنية في مخاطبة الفطرة والعقلية الإنسانية بالحقائق الكونية في صورتها الواقعية دون مجرد مُثُل ونظريات ، بل هي الواقعية في صورتها الرائعة غير المحرفة ، تتجلى من وراءها يد الخلاق العظيم ، موعية للبصر، موحية للبصيرة ، دافعة إلى استخدام العلم والفكرة للوصول إلى الحقيقة الكبرى المهيمنة عليها ، فـ« قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » .

فالإهتمام بالنجوم الحسية والروحية بحاجة إلى معرفة مسالكها ودوراتها ومواقعها : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » (١٦: ١٦) ووقف الإهتمام على صالح الحياة الدنيا دون أن يُبْضر بها إلى العليا ، ليست هي الغاية التامة حيث تخطى عن العليا .

ولأن الآيات المفصلة لقوم يعلمون تحلق على كل درجاتها ، فقوم يعلمون أيضاً درجات حسب درجاتها « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

وليس يعني « يعلمون » هنا صلاحات العلم أياً كان ، إنما هو العلم الصافي الضافي بالنفس ، ومن ثم بخالق النفس ، رؤية للآيات الآفاقية والأنفسية ، ذريعة للحصول على الحق المُرَام : فـ« رب عالم قتله جَهْلُهُ ، وعلمه معه لا ينفعه » (١٠٧/ح/٥٨٤) و« هلك امرؤ لم يعرف قدره » (١٤٩/ح/٥٩٦) فـ« الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل » (١) - « والعلم ورائة كريمة ، والآداب حِلل مجددة ، والفكر مرآة صافية » (٦٤/٥٦٥) .

فالعلم الصالح هو من دعائم الإيمان، فقد سئل علي (ع) عن دعائم الإيمان فقال : والعدل منها على أربع شعب ، على غائص الفهم ، وغور العلم ، وزهرة الحكم ، ورساخة الحلم ، فمن فهم غور العلم ، ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم . . « (٣٠/ح/٥٧٠) - فـ لا تجعلوا علمكم جهلاً ، وبقينكم شكاً « (٢٧٤/ح/٦٢٢) - و العلم نقطة كثرها الجاهلون « (مستدرك ١٨٦) - و أوضح العلم ما وقف على اللسان ، وأرفعه ما ظهر في الجوارح والأركان « (٩٢/ح/٥٨٠) - و العلم مقرون بالعمل ، فمن علم عمل ، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل عنه « (٣٦٦/ح/٦٣٩) - و مالي أرى الناس إذا قُرب إليهم الطعام ليلاً تكلفوا إنارة المصابيح ليُصروا ما يدخلون بطونهم، ولا يهتمون بغذاء النفس بأن ينيروا مصابيح ألبابهم بالعلم ليسلموا من لواحق الجهالة والذنوب في اعتقاداتهم وأعمالهم « (١).

« واعلموا ان عباد الله المستحفظين علمه يصوتون مصونه ويفجرون عيونه « (٢١٢/٤٠٧).

و لو أن حملة العلم حملوه بحقه لأحبهم الله وأهل طاعته من خلقه ولكنهم حملوه لطلب الدنيا فمقتهم الله وهانوا على الناس « (مستدرك ١٧٧).

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (٩٨):

هنا « من نفس واحدة » هي من عساكر البراهين القرآنية على أن ليس

هناك نفس أخرى إنسانية أو سواها، شاركت هذه النفس الواحدة في انتسال نسل الإنسان ككل ، اللهم إلا زوجها المخلوق منها : « الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً .. » (٤: ١) .

فـ « أنشأكم » كسائر الأناسي في كل الأنسال ، تعني أن ليس في دور الإنتسال إلا نفس واحدة وهنا « خلق منها زوجها » يثنى الأصل كمرحلة ثانية وعلى طول الخط .

ثم « أنشأكم » تعم لإنشاء الجسم والروح مهما انتشأ الروح عن الجسم : « ثم أنشأناه خلقاً آخر » .

وهذه الأنفس المنشأة « من نفس واحدة » هي « فمستقر ومستودع » دون حالة لها ثالثة ، فما هما « مستقر ومستودع » ؟ وقد يروى عن النبي (ص) : أنه قال : فأنبئت بكل مستقر ومستودع من هذه الأمة إلى يوم القيامة كما علم آدم الأسماء كلها ^(١) .

قد تعني « فمستقر .. » فمستقر ومستودع ، وقد تلمح المقابلة بينهما أن « مستودع » هو المؤقت المرجوع ، فالمستقر هو الثابت غير المرجوع .

ثم « مستقر ومستودع » هما إسما زمان ومكان واسما مفعول ومصدر ، تعني فمن المنشأ في مكان الإستقرار وزمانه وقد أقر ، ثم المصدر هنا غير مناسب .

فمن المنشأ المستقر :

١ - من وُلِدَ ومن المستودع ما أودع في الأصلاب والأرحام ، فلا يخلو

(١) الدر المنثور ٤: ٣٦ - اخرج ابو الشيخ عن عوف قال بلغني ان رسول الله (ص) قال : ...

الْمُنْشَأُ مِنْ أَحَدِهِمَا : « وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » (٣٦:٢) .

٢ - كَمَا وَأَنْ مِنَ الْمُسْتَقَرِّ مَا هُوَ فِي قَرَارِ الصَّلْبِ ، أَوِ الرَّحْمِ « ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارِ مَكِينٍ » (١٣:٢٣) ، حَتَّى يُولَدَ ، وَالْمُسْتَوْدَعُ هُوَ السَّاقِطُ قَبْلَ الْوِلَادَةِ .

٣ - وَمِنْهُ الْمُسْتَقَرُّ فِي الصَّلْبِ ثُمَّ هُوَ الْمُسْتَوْدَعُ فِي الرَّحْمِ .

٤ - وَمِنْهُ الْمُسْتَوْدَعُ فِي الصَّلْبِ الْمُسْتَقَرُّ فِي الرَّحْمِ .

٥ - ثُمَّ بَعْدَ الْوِلَادَةِ مُسْتَقَرٌّ فِي قَرَارِهِ وَمُسْتَوْدَعٌ فِي مُسْتَوْدَعِهِ كَالْحَاضِرِ وَالْمَسَافِرِ وَمَنْ أَشْبَهَ كَمَا « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » (٦:١١) .

٦ - ثُمَّ قَدْ يَسْتَقَرُّ إِلَى أَجَلِهِ الْمُسَمًّى الْمَرْسُومِ الْمُحْتَمُومِ وَقَدْ يَسْتَوْدَعُ إِلَى الْأَجَالِ الْمَعْلُوقَةِ .

٧ - وَمَنْ ثُمَّ الرُّوحُ قَدْ يُوْثِقُ وَيَسْتَقَرُّ فِيهِ الْإِيمَانُ حَتَّى الْمَوْتُ (١) أَوْ

(١) نور الثقلين ١: ٧٥٠ في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليهما السلام قال قلت : « . . . فمستقر ومستودع » ؟ قال : ما يقول أهل بلدك الذي أنت فيه ؟ قال : قلت يقولون مستقر في الرحم ومستودع في الصلب ، فقال : كذبوا ، المستقر ما استقر الإيمان في قلبه فلا ينزع منه أبداً والمستودع الذي يستودع الإيمان زماناً ثم يسلبه وقد كان الزبير منهم « وفيه عن سعد بن أبي الأصبع قال سمعت أبا عبد الله (ع) وهو سئل عن مستقر ومستودع قال : مستقر في الرحم ومستودع في الصلب وقد يكون مستودع الإيمان ثم ينزع منه ولقد مشى الزبير في ضوء الإيمان ونوره حتى قبض رسول الله (ص) حتى مشى بالسيف وهو يقول : لا نبائع علياً .

وفيه عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن (ع) في الآية قال : ما كان من الإيمان المستقر فمستقر إلى يوم القيامة أبداً وما كان مستودعاً سلبه الله قبل الممات « وفيه عن أبي الحسن الأول (ع) المستقر الإيمان الثابت والمستودع المعار .

يستودع حتى يكفر أينما كان وأيان .

٨ - كما قد يكفر ويستقر فيه الكفر ، أو يستودع حيث يؤمن بعد كفره فيموت مؤمناً ^(١) .

٩ - ثم الأنفس المؤمنة قد تكون مستقرة الإيمان بعصمة ربانية ، أو مستودعة فعلها الحفاظ عليها لكي تستقر فيها دون العصمة الربانية بعصمة تربية على تطبيق شرعة الله ^(٢)

(١) تفسير البرهان ٥٤٥:١ عن محمد بن مسلم قال سمعته يقول : ان الله خلق خلقاً للإيمان لا زوال له وخلقاً خلقاً للكفر لا زوال له وخلق خلقاً بين ذلك فاستودع بعضهم الإيمان فان شاء ان يتممه لهم اتمه وان شاء ان يسلبهم إياه سلبهم .

وفيه عن الشيخ في التهذيب بسند عن محمد بن سليمان الديلمي قال سألت ابا عبد الله (ع) فقلت له جعلت فداك ان شيعتك تقول ان للإيمان مستقراً ومستودعاً فعلمني شيئاً اذا قلته استكملت الإيمان ، قال : قل في دبر كل صلاة فريضة : رضيت بالله رباً وبمحمد (ص) نبياً وبالإسلام ديناً وبالقرآن كتاباً وبالكعبة قبله وبعلي ولياً وإماماً وبالحسن والحسين والأئمة صلوات الله عليهم اللهم اني رضيت بهم ائمة فارضني لهم انك على كل شيء قدير .

وفي نور الثقلين ١: ٧٥٠ عن تهذيب الأحكام في الدعاء بعد صلاة الغدير المسند الى الصادق (ع) : اللهم اني اسألك بالحق الذي جعلته عندهم وبالذي فضلتهم على العالمين جميعاً أن تبارك لنا في يومنا هذا الذي اكرمنا فيه وأن يتم علينا نعمتك وتجعله عندنا مستقراً ولا تسلبنا ابداً ولا تجعله مستودعاً فانك قلت « فمستقر ومستودع » فاجعله مستقراً ولا تجعله مستودعاً

(٢) المصدر ٥٤٤ عن الكافي عن ابي الحسن (ع) قال : ان الله خلق النبيين على النبوة فلا يكونون إلا الأنبياء وخلق المؤمنين على الإيمان فلا يكونون إلا مؤمنين وأعار قوماً إيماناً فان شاء تممه وإن شاء سلبه إياه قال وفيهم جرت « فمستقر ومستودع » وقال : ان فلاناً كان مستودعاً فلما كذب علينا سلبه الله إيمانه « وفيه عنه عن محمد بن مسلم عن احدهما عليهما السلام قال سمعته يقول : ان الله عز وجل خلق خلقاً للإيمان لا زوال له وخلق خلقاً بين ذلك واستودع بعضهم الإيمان فان يشأ ان يتممه لهم اتمه وان شاء سلبهم إياه وكان فلان منهم معار .

١٠ - ومنها المستقر في الجنة، ومنها المستودع في نار، ثم مستقر في الجنة أو موت مع فوت النار .

وتلك عشرة كاملة من محتملات « مستقر ومستودع » وهي مضروبة في محتملاتهما أدبياً وهي ثلاث تصبح ثلاثين ، الصالحة منها لفظياً ومعنوياً مقبولة، وغيرها مرفوضة .

فهذه المستقرات العشر وما أشبه بمستودعاتها قد تكون معنية بـ « مستقر ومستودع » حيث تتحملها في أدب اللفظ وحذب المعنى ، ولا يخلوا المنشأ من نفس واحدة منها .

ومن أهم المحتملات مستقر الإيمان ومستودعه كما يروي عن علي أمير المؤمنين (ع) : « فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقراً في القلوب ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور إلى أجل معلوم فإذا كانت لكم براءة من أحد فقفوه حتى يحضره الموت فعند ذلك يقع حد البراءة » (١) .

ذلك وليس مستقر الإيمان فوضي جزاف دونما سعي ولا جهاد لاستقراره ، فإنما يستودع الإيمان في قلوب الذين يؤمنون في تجربة الحياة ، ثم قد يستقر إذا أقررت به بما تسعى فيقره الله عصمة ودونها ، أم يبقى مستودعاً قد يزول إذا لم تحقق شرائط دائب الإيمان ، فمستقر الإيمان بين عصمة خلقية بما تسعى ، فعصمة ربانية قدر ما تسعى ، عصمة رسالية فما دونها « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

وهذه المستقرات والمستودعات للمنشآت من نفس واحدة هي حالات متلاحقة يوم الدنيا ثم تستقر في الأخرى في الجزاء الوفاق ، اللهم إلا أهل النار إذ يأتي يوم تفتى النار ويفنى معها أهل النار فلا نار - إذاً - ولا أهل

نار ، ولكن أهل الجنة فمستقرون دون موت أو خروج عنها « عطاء غير مجذوذ » .

ذلك ، وقمة المستقرات هي مستقر الإيمان فمستقر الجنة ، وقمة المستودعات مستودعات الإيمان التي تستقر بمساعي أصحابها ، وهذه من المستقرات والمستودعات الأخيرة، ومن المستقرات الأولى حيث تبدأ الحياة فيها خطوتها الأولى للتكاثر بالخلية الملقحة ، هي نفس مستودعة كخلية في أصلاب الآباء ، ثم هي مستقرة في أرحام الأمهات ، ثم تأخذ الحياة في النمو والانتشار .

ذلك وبين المستقرات والمستودعات الأولى والأخيرة متوسطات .

﴿ قَا نَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ :

ولأن الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد ، فهو في حقول المستقرات والمستودعات الإنسانية ضروري لإدراك صنع الله العجيب في هذه النفس الواحدة ، فيها وفي المنشآت منها بمستقراتها ومستودعاتها .

فالفقه الصالح في حقل إنتشاء النسل من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، هو الذي يوصل الإنسان إلى معرفة صالحة عن خالق الكون ، سبحانه الخلاق العظيم ! .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٩٩) :

« أنزل من السماء ماء » دون « ينزل » لامحة لأول نزول من ماء السماء بداية الحياة الأرضية بنازل الماء « وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه في

الجزء السابع ١٧٠

الأرض وأنا علي ذهاب به لقادرون » (٢٣: ١٨) و « أنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى » (٢٠: ٥٣).

« فأخرجنا منه الماء، دون الأرض لمكان ذكورة الضمير ، فنبات كل شيء خارجة من الماء كما » وجعلنا من الماء كل شيء حي » (٢١: ٣٠).

ثم « نبات كل شيء » نبات : نباتاً وحيواناً ورجلاً وإنساناً : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » (٧١: ١٧) فغير النبات لا يحتاج في كونه وكيانه إلى ماء، كما الأرض كانت أرضاً قبل أن ينزل عليها ماء : « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » (٢: ١٦٤) « وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » (٣١: ١٠).

ذلك بصورة عامة في المخرجات من الماء ، وهنا « فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حياً متراكباً » ككل السنابل والفواكه المتراكبة بعضها على بعض ، وقد اختص بالذكر هنا من المتراكب « ومن النخيل . . من أعناب والرمان » .

« ومن النخيل من طلعتها » وهو أول طالع من ثمرها « قنوان » جمع قنو وهو الفرع الصغير، فهو هنا العلق تمرأ كالعنقود من العنب ، فهي متراكبة فوق بعض منظمة منضدة فإنها « دانية » مع بعضها البعض دنو التراكب .

« وجنات من أعناب والزيتون والرمان » وهي من أفضل الفواكه « مشتبهاً » كل مع ذوي نوعه كالأعناب المشبهة والزيتون والرمان ، « وغير متشابه » كالمختلفة من كل .

« أنظروا إلى ثمره » أنظروا بالحس البصير دون الأعمى الحسير ، إنظروا إليه في ازدهاره وازدهاءه وبهاءه إلى ثمره : ثمر الماء النازل من السماء ، أو ثمر هذه الأشجار ، أو ثمر الأرض ، والجامع ثمر ما ذكر من ذلك المثلث ، حيث الثمر منتج من هذه الثلاث مهما كان الأصل هو

الماء ، « إذا أثمر » وأنظروا إلى « ينعه » : نضجه ، فالنضج هو الخطوة الثانية والأولى هي الثمر « إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » فالإيمان هو الذي يفتح القلب ويمد البصيرة وينبه أجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة والعقلية الإنسانية .

وأما الذين لا يؤمنون ولا يفقهون فلهم قلوب مغلقة مقفلة مغفلة ، وبصائر مطموسة مركوسة منكسة ، تمر بهذا الإبداع كله وبهذه الآيات كلها دون تفقه وتنبه .

ذلك ، وفي رجعة أخرى إلى الآية تساؤلات وإجابات تالية
١ - هل « السماء » هنا هي جو السحاب ؟ وهي التي تُسحب من بخارات المياه الأرضية ! .

إنها من « السماء » غير جو السحاب ، لأنها مسحوبة بعدما أخذت الأرض نصيبها من ماء السماء ، فالسما هنا غير السماء في الأمطار النازلة من السحاب .

١ - هل إن « نبات كل شيء » تعني أن لكل شيء نباتاً ؟ والجما لا ينبت ! .

« كل شيء » هنا تعني شيء الأرض ، وكل شيء الأرض له نبات من ترابه وحجره ورمله وما أشبه ، في ظاهرها وباطنها ، فالنبت نبات والجواهر والمعادن كلها نباتات ، ولكن هل للماء مدخل في نباتات الجواهر والمعادن وما أشبه ؟ .

قد تعني « نبات كل شيء » نابت من الماء وهو كل شيء حي بدليل آيته ، والحياة المعروفة لدينا آخذة من النباتية إلى الحيوانية إلى الانسانية والجنية أماهيه ؟ .

٣ - لماذا هنا « مشتبهاً » وفي نظيرتها متشابهاً ؟ : « وهو الذي أنشأ

جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره إذا اثمروا آتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين « (١٤١: ٦).

« وغير متشابه » هنا قد تدل على أن « متشبهاً » تعني ما تعنيه « متشابهاً » ولكن بفارق أن الثانية تعني التفاعل والأولى تعني الفعل ، ولكنه لعمومه فيما ذكر تفاعل بالمآل .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (١٠٠):

« وجعلوا » هؤلاء المشركون وأضرابهم جعلاً جاهلاً قاحلاً مفترياً « لله شركاء » عدّة ممن خلق « الجن » أنهم شركاء الله في ربوبيته « و » الحال أنه « خلقهم » « وخرقوا له » من ذاته أو من صفاته أو من أفعاله في ربوبيته « بنين » كما الجن ، وعزيز والمسيح عليهما السلام ومن أشبه « وبنات » كالملائكة « بغير علم » في أي حقل من حقله « سبحانه » عن أن تكون له شركاء أو شريك « وتعالى » شأنه « عما يصفون » .

و « الجن » هنا إما بدل عن « شركاء » أم - وبأحرى هي المفعول الأول المؤخر و « شركاء » هي الثاني المقدم ، وجعلوا له الجن شركاء ، لمكان « الجن » دون « الشياطين » تعني الأعم من الشياطين وسواهم ، فقد كانوا يعبدون الجن : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » (٤١: ٣٤).

كما وقد عبدوا الشيطان ويعبدون « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » (٦: ٣٦) ومنهم اليزيدية القائلون بالوهمية الشيطان وأن يزيد رسوله ، مسمين إياه بـ « ملك طاووس - شاه بريان »

سورة الأنعام / آية ١٠٠ - ١٠١ ١٧٣

والمجوس الثنوية القائلون بـ « يزدان وأهرمن » : الله والشيطان .

ذلك وقد « جعلوا بينه وبين الجنة نسباً » (١٥٨: ٣٧) بأنه صاهر الجن بيناته الملائكة وما أشبه من النسب ، كما « وجعلوا له من عباده جزءً » (١٥: ٤٣) أن المسيح أم سواء جزء متجزء من ذات الله أو صفاته ! .

ولأن الخرق هي الأرض الواسعة حيث تتخرق فيها الريح وتتفرق إتساعاً ، والخرق من الرجال هو الكثير العطاء فكأنه يتخرق ، والخرق الريح الشديدة الهبوب ، فقد تعني « وخرقوا له » إتسعوا في دعوى البنين والبنات لله كذباً ، اختراقاً واختلاقاً واختراعاً دونما أي أصل من الأصول .

ولقد خرق جمع له تعالى إخوة في الوهيته فقالوا : ان الله وإبليس اخوان فالله سبحانه خالق الناس والدواب والأنعام والخيرات وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشور (١) .

ذلك وان قصة الولادة الربانية أو بنوتها الشهيرة بين الوثنيين والبرهمية والبوذية قد تسربت الى اليهود والنصارى وترسبت فيهم إذ قالوا عزيز ابن الله والمسيح ابن الله .

وكيف يكون له شريك أو ولد أو معاون وهو :

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١٠١) :

إنه تعالى : « مبدعهما ومنشئهما بعلمه ابتداءً لا من شيء ولا على مثال » (٢) ، فالبديع هو المبدع بلا مثال محتذى ولا نموذج به يهتدى

(١) تفسير الفخر الرازي ١٣: ١١٣ نقله عن ابن عباس ..

(٢) نور الثقلين ١: ٧٥١ المجمع عن أبي جعفر عليهما السلام ، وفي تفسير البرهان ٥٤٥: ١ عن سدير الصيرفي قال سمعت حمزان بن أعين يسأل أبا جعفر عليهما السلام

١٧٤ الجزء السابع

ويقتدى، فالسماوات والارض - وهما الكون أجمع - هما - ككل - من إبداعه خلقاً دون ولادة ذاتية أمأهيه .

ثم الولادة من الوالد مستحيلة دون صاحبة مهما أمكنت من الولادة دون صاحب .

وإجابة عن سؤال ؟ كيف لا تصح ولادة دون صاحبة وهي تصح دون صاحب كما في مريم (ع) بل وتصح دون والدين كما في آدم (ع) .

نقول : كل هذه خلق الله وليست ولادة، والمستحيل هو الولادة الإلهية فإنها بصاحبة وغيرها مستحيلة ، وعلى المجازاة أنه تعالى يلد كما يلد خلقه فالولادة بحاجة إلى والدين ، والمشركون منكرون لخرق العادة في الولادة بصاحبة دون صاحب أم بصاحب دون صاحبة ، وأما الولادة دون صاحبة بالقدرة الربانية فهي كائنة في خلقه ولداً من والد دون صاحبة أو دون والدين كما في آدم وكما يخلقنا الله يوم القيامة مرة أخرى حيث « كما بدأكم تعودون » دون صلب ولا رحم ، ولكنه مستحيل أن يلد الله بصاحبة أم دون صاحبة حيث الصحة والولادة لما فيهما من مجانسة بين والد وما ولد ، كما بين صاحب وصاحبة، هي عليه مستحيلة ، ولا مسانحة بين المجرد اللامحدود والمادي المحدود ، فكما المجرد لا يتحول مادة بكماله أو جزء منه حيث لا جزء له ، كذلك لا يتزاوج مع مادة لاستحالة اللقاء تداخلياً بين المجرد والمادة .

ولو قيل بصاحبة هي إلهة كما الله فهما مجردان ، فتعدد المجرد غير المحدود مستحيل ، ثم المجرد لا يحتاج إلى ولادة ، ولو ولد لم يلد إلا

السلام عن قول الله عز وجل « بديع السماوات والارض » فقال أبو جعفر عليهما السلام : ان الله عز وجل ابدع الأشياء كلها بعلمه على غير مثال كان قبله فابتدع السماوات والأرضين ولم يكن قبلهن سماوات ولا أرضون اما تسمع لقوله تعالى : وكان عرشه على الماء .

المجرد، والجن والملائكة وغيرهما ممن اتخذوا للرحمن ولداً كلهم من عالم المادة .

وأما قولة البعض من المسيحيين أن مريم (ع) هي صاحبة الله فقد أولد بها المسيح (ع) فهي غير واردة في حقول المشركين ، ثم هي ماردة في الحقول الكتابية ، وفي كافة الحقول العقلية ، حيث المجرد اللامحدود لا يتجزء بانفصال جزء محدود منه ينتقل الى رحم امرأة أماهيه .

إذاً فـ « أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة » إنما تواجه من لا يعرف له صاحبة ، ثم تعارض القائل أن له صاحبة باستحالتها في ساحة الألوهية ، ثم العادة الجارية أن لا ولادة إلا بأُم صاحبة وسواها ، فـ « لم تكن » هي اعم من « لن تكون » سلباً لصاحبة له في حقل المعرفة المألوفة وفي حقل العقلية السليمة ، فلو فرض له صاحبة فاستحالة الولادة بينهما قائمة بحالها أن لا يتحول المجرد مادة ، ثم الضرورة قائمة بمجانسة الوالدين، وأية مجانسة بين المجرد والمادة ؟ فالولادة المادية من والد مجرد عن المادة مستحيلة على أية حال ، سواء يتجزء جزء منه أم يتحوله إلى مادة هي الولد ، فكل أنواع الولادة بصاحبة ودون صاحبة مستحيلة على الله .

وكيف يكون له ولد أم تكون له صاحبة « وخلق كل شيء » من أولاد وصاحبات « وهو بكل شيء عليم » ولا يعلم لنفسه ولداً ولا صاحبة ، ثم وكيف يحتاج الخالق إلى مخلوق ولداً وصاحبة ، أحاجة إلى المحتاج إليه في خلقه وقد كان ولم يكن معه شيء ١٩ .

فليس الخالق لشيء والداً له بأي معنى يدعى ، فالذي يصدقه تعالى خالقاً لكل شيء ومنها هؤلاء الذين يزعمونهم أولاد الله أو بناته ، فكيف يُخرق للمخالق ولادة إلهيئة ، وبين الخلق والولادة بون عظيم ، لضرورة المجانسة في الولادة ، وضرورة المباينة في الخلقة ، فالولد جزء من الوالد وليس المخلوق جزء من الخالق .

فالوالد يلد ما يلد من ذاته ، والخالق يخلق ما يخلقه بديعاً بمشيئته ، يخلق لا من شيء كالمادة الأولية المخلوقة لا من شيء ، أو يخلق من شيء خلقه قبل ، فلا يخلق من شيء ذاته فإنه ولادة ، ولا من شيء غير مخلوق له فإنه إشراك في الخالقية ! .

ذلك ، ثم الصاحبة للإيلاد إنما هي لمصاحبها كوناً وكياناً ولا مصاحبة بين المجرد عن المادة والمادة ، ثم لا شهوة للمجرد تقتضي مصاحبة الصاحبة لو كانت له ممكنة ، ومن ثم فتوليد الولد بشهوة وصاحبة غير محتاج إليه لمن خلق كل شيء بديعاً .

والقول إن صاحبة الله إلهة كما الله فيولد بينهما إله ثالث ، مردود أولاً باستحالة التعدد في الله ، ثم الوليد لو أمكن يجب أن يكون مجرداً عن المادة كما الله ، فليس المسيح (ع) على أية حال ولداً لله ! .

فهؤلاء المشركون مهما جهلوا الكثير من الحق هم عارفون قاعدة التكاثر الولادي أن يكون للوالد صاحبة أنثى من جنسه .. فكيف يكون لله ولد ولم تكن له صاحبة ؟ .

وقول البعض من المسيحيين انه (ع) مولود غير مخلوق تناقض بين شبهه قول آخرين من غيرهم أن العالم قديم زمني على حدوثه ! .

ذلك ، فالولادة الربانية - المختلفة بطبيعة الحال عن الخلقة - هي مستحيلة بكل الوجوه ، بدلاً لذاته التجردية اللانهائية إلى ذات محدودة جسمانية . أو انتقالاً لجزء منه تعالى إلى رحم وسواه يصبح ولداً ، إذ لا جزء له ، أو اتخاذاً تشريفاً مجازياً في عبارة « الولد » حيث المجاز إنما يجوز فيما تجوز فيه الحقيقة ، فلما استحالت الولادة الإلهية حقيقةً فالمجازي كذلك مستحيل ، وعلى فرض الإمكان مجازياً فـ « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » !

﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (١٠٢):

« ذلكم » العظيم العظيم « الله ربكم » جميعاً دون أن يكون له شريك أو أن يتخذ شريكاً أو ولداً « لا إله إلا هو خالق كل شيء » من عابدين ومعبودين « وهو على كل شيء وكيل » فليس له أي وكيل أو بديل ، بل هو الذي يكل أمر كل عليل وكليل .

ولأن الوكالة الربانية هي ولايته الطليقة لخلقه تدبيراً لما هم عنه عاجزون ، فلا تدخل هذه الوكالة في حقل التوكيل ، فالوكالة الخلقية أحياناً بحاجة إلى توكيل وأخرى لا تحتاج لأنها ولاية لا تحتاج إلى جعلٍ من المولى عليه ، والله وكيل لمن توكل عليه أم لم يتوكل .

ذلك وإن تفرد الله تعالى بالخلق يفرد سبحانه بالملك ، والمتفرد بهما يتفرد في كافة شؤون الربوبية ومن أبرزها المعبودية وتقدير العباد .

فهـ خالق كل شيء » برهان حاسم لكونه إله كل شيء ومقدره وزازقه ومدبره ، ولأنه إله كل شيء وخالق كل شيء ، « فاعبده » لا سواه ، ولأنه « على كل شيء وكيل » فليس له وكيل في ألوهيته أو ربوبيته حتى يصلح للعبادة والتدبير بديلاً عن الله أو وكيلاً عنه فضلاً عن مثيل .

وخالقته تعالى لكل شيء أصل قرآني علمي عقلي فطري . فهـ قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » (١٣: ١٦) فهـ هل من خالق غير الله » (٣٥: ٣) « الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل » (٣٩: ٦٢) « ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو » (٤٠: ٦٢) .

وهنا « كل شيء » هي الأشياء الممكن إيجادها ذاتياً ومصلحياً ، فغير الممكن ذاتياً هو اللاشيء المطلق فلا تشمل « شيء » وغير الممكن مصلحياً وإن كان شيئاً بإمكانيته الذاتية ولكنه لا شيء باستحالته

المصلحة ، فالقصد من « كل شيء » هو الممكن في حكمة الخلق ومصلحيته .

أجل « كل شيء » بصورة طليقة تشمل غير الممكن مصلحياً ، ولكنها في حقل فعلية الخلق ، المشروطة بالمصلحة الخلقية ، تتقيد بكونها شيئاً يصلح للتكوين .

ولأن من « شيء » الأرواح كلها فلا يصح القول أن هناك عالم الخلق الخاص بخلق الماديات وعالم الأمر الخاص بالمجردات سناداً إلى « ألا له الخلق والأمر » حيث الأمر هنا هو أمر تدبير الخلق ، ولغة الأمر لا تناسب - فقط - إيجاد المجردات ، بل هو في حقل الإيجاد يعني طليق الإيجاد : « إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » فإن « لشيء » تعم كل شيء .

ذلك ، وفي الأصل لا مجرد في الكون إلا الله فكيف يعني الأمر إيجاد المجردات ، فعالم التكوين لا يخلو من مادة أو طاقة مادية ، وكل وليدة الأخرى ، حيث المادة تتبدل بانبثاقها إلى طاقة ، والطاقة بتكثفها وتعقدتها تتبدل إلى مادة ، والأصل الأصيل لهما هو المادة الأولية المخلوقة قبل كل شيء ، المخلوق منها كل شيء .

فهـ « كل شيء » تحلق على كافة الكائنات المخلوقة بقريته « خالق » وليس الشيء الخالق مخلوقاً حتى يفش عن خالقه ، إذ ليس الشيء بما هو شيء بحاجة إلى خالق ، إنما هو الشيء المخلوق غير الأزلي ، فحين يُسأل : إذا كان الله خالق كل شيء فمن هو الذي خلق الله ؟ فالجواب : ليس الله مخلوقاً حتى يسأل عن خالقه ، وليس الوجود بما أنه وجود بحاجة إلى موجد ، إنما هو الوجود الحادث ، ولو أن الخالق كان بحاجة إلى خالق كخالقه لاستحال وجود كل شيء خالقاً ومخلوقاً قضية التسلسل غير

الناهي إلى شيء غير مخلوق (١).

ولئن سُئلنا : إذا كان الله خالق كل شيء كما هو قضية توحيده في الخالقية ، فشيء الظلم والعصيان وكل سوء وضرر أياً كان مشمولة لـ « كل شيء » والنتيجة براءة المتخلفين عما يعملون من سوء ، ولأن أعمالهم السيئة داخلية في « كل شيء » فهي كلها مخلوقة لله تعالى ؟ وقد صرحت آيات بأن لنا أفعالاً كما نختار ومنها التالية : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » (١٠٤) .

فالجواب أولاً أن « كل شيء » هي الموضوعات الأصيلة في الخلق ، دون العوارض الاختيارية لها التي هي حصيلة الاختيار ، ثم الفعل يعبر عنه بنفسه دون الخلق فمن فعل فعلاً لا يقال أنه خلقه .

وثانياً أن الاختيار شيء خلقه الله في المختارين للاختبار ، ثم تحقق الشيء المختار له واجهتان ، أولاهما واجهة فاعلية المختار خيراً أو شراً ، وثانيتهما واجهة خلق العمل المختار ، وليس الله ليخلق خيراً أو شراً من مثلث الأقوال والأحوال والأعمال إلا بعد إختيار المختار ، فـ « لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين » وليس الخالق الأصل في هذا البين إلا الله ، حيث خلق المختار باختباره ، ثم يخلق ما يختاره دون تسيير ، فأين الجبر إذا وأين كون الشرور من خلق الله دونما اختيار من أهله ؟ .

أجل ، والأعمال المختارة تنتهي إلى الاختيار والله هو خالق المختار والاختيار ، فإنما الاختيار هو للاختبار « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » مهما لا يحصل واقع الكفر والإيمان إلا بمشيئة الله بعد إختيار المختار ، مشيئة لولاها لاستحال تحقيق الإختيار في كافة الحقول .

(١) راجع الفرقان ٢٣ : ٣٧٤ في ظل الآية « الله خالق كل شيء » . . . والحوار بين الإلهيين والماديين تحت عنوان « من خلق الله ؟ » !

ففي خلق الشيطان من الجان وسائر الشيطان في أنفس الجان والإنسان
حكمة الإختبار في عالم التكليف الإختبار ، لولا ذلك الخلق بجنب سائر
الخلق لم يكن إختبار في إختبار ، وعالم التكليف هو مجموعة إختبارات
في إختبارات .

ولا تعني مثل « وما ربك بظلام للعبيد » أن فعل الظلم - وهو من
الأشياء - خارج عن « كل شيء » مخلوق له تعالى ، وإنما تعني سلب
الإجبار والتسيير في مثل الظلم ، فأما إرادة تحقق الظلم بعد كل
المحاولات المختارة من الظالم فهي ليست من الله ظلماً بل هي من العدل
تطبيقاً لواقع الإختبار في ظلمهم وعدلهم ، كما وهي قضية توحيد الربوبية ،
فما من فعل قالاً وحالاً وأعمالاً إلا والله فيه المشيئة سلباً في سلبها وإيجاباً
في إيجابها ، وذلك من المعني في « لا جبر ولا تفويض بل أمر بين
أمرين » .

إذاً فهذه أفعال العباد مخلوقة خلقاً لا خلق تكوين والله خلق كل
شيء ولا نقول بالجبر والتفويض (١) .

ذلك ! وكما نسمع الله تعالى يقول « يضل من يشاء ويهدي من يشاء »
و« نقيض له شيطاناً فهو له قرين » - « زيناً أعمالهم » مع « وزين لهم
الشيطان أعمالهم » وما أشبه تدليلاً على أن الله ليس بمنعزل فاعلية عن
الخيرات والشرور ، ولكنها فاعلية ربوبية غير مسيرة ، مهما كانت في
الخيرات مسيرة وفي الشرور دونها ، وكما في حديث قدسي : « يابن آدم أنا
أولى منك بحسناتك وأنت أولى مني بسيئاتك » .

ذلك ، واستغراق كل شيء لكل شيء دونما استثناء هو فقط قضية

(١) نور الثقلين ١: ٧٥١ في عيون أخبار الرضا (ع) بإسناده إلى الحسين بن خالد عن
أبي الحسن الرضا (ع) أنه قال : ...

توحيده تعالى في الخالقية فالربوبية بكل حلقاتها ، فلو تفلّت شيء - وإن كان واحداً - عن هذه الخالقية الطليقة لنقصت الخالقية الموحدة وانتقضت ! .

وترى خالفته لكل شيء تبطل قانون العلية والمعلولية في الكائنات ؟
كلّا حيث العلة التامة لا توجد في الكائنات أبداً ، اللهم إلّا مقتضيات إذا انضمت إليها إرادة الله تعالى تحققت وإلّا فلا تحقق كما في نار نمرود لإبراهيم الخليل (ع) ، حيث أصبحت برداً وسلاماً بأمر الجليل .

ذلك ، ثم ولا منافات بين العلل العرضية والطولية ، فالعلل العرضية تعمل آثارها بمقتضياتها وإرادة الله ، ثم الله من وراء كافة العلل والمعاليل رقيب عتيد فـ « لا تسقط من ورقة إلّا يعلمها » كنموذج من نماذج الإرادة الإلهية في كل ظروف العلية .

ففي تعطيل الإرادة الربانية تفويض ، كما في تعطيل سائر العلل جبر ، وفي الجمع بينهما - كما يناسب عدله تعالى وفضله وحكمته - أمر بين أمرين .

إذا فلا مخصّص عقلياً أو علمياً أو شرعياً لـ « كل شيء » في نطاق خلقته تعالى ، وذلك قضية توحيد الربوبية في كل شيء دون إبقاء .

فـ « إعلم علمك الله الخير أن الله تبارك وتعالى قديم والقدم صفة دلت العاقل على أنه لا شيء قبله ولا شيء معه في ديمومته ، فقد بان لنا بإقرار العامة مع معجزة الصفة أنه لا شيء قبل الله ولا شيء مع الله في بقاءه وبطل قول من زعم أنه كان قبله أو معه شيء وذلك أنه لو كان معه شيء في بقاءه لم يجز أن يكون خالقاً له لأنه لم يزل معه فكيف يكون خالقاً لمن لم يزل معه، ولو كان قبله شيء كان الأول ذلك الشيء لا هذا وكان الأول أولى

بأن يكون خالقاً للثاني » (١) .

اترى - بعد - ان الله خلق كل شيء من شيء كان معه أو قبله ؟ وذلك نقض لتوحيد الأزلية ! أم خلق كل شيء من العدم ؟ وليس العدم مادة الإيجاد ! ، أم خلق كل شيء من شيء ذاته ؟ وذلك ولادة وليس خلقاً ! .

إنه خلق الأشياء من الخلق الأول المسمى بالماء : « وكان عرشه على الماء » وخلق المادة الأولى لا من شيء ، لا من لا شيء ولا من شيء معه أو قبله ، فخلقه الشيء الأول لم يكن له ما يُخلق منه ، فإنما خلقه بإرادته دون أصل إلا هي خلقاً دون ولادة فـ« إن صانع كل شيء فمن شيء صنع والله الخالق اللطيف الجليل خلق وصنع لا من شيء » (٢) .

وفي حوار للإمام الصادق (ع) مع الزنديق حيث قال :
« من أي شيء خلق الأشياء ؟ »

الإمام (ع) : لا من شيء .

الزنديق : فكيف يجيء من لا شيء شيء ؟

الإمام (ع) : إن الأشياء لا تخلق أن تكون خلقت من شيء أو من غير

شيء .

(١) المصدر في العيون عن الرضا (ع) في باب ما كتبه (ع) للمأمون من محض الإسلام وشرايع الدين .

وفيه بإسناده إلى حمدان بن سليمان قال كتبت إلى الرضا (ع) أسأله عن أفعال العباد امخلوقة هي أم غير مخلوقة ؟ فكتب : أفعال العباد مقدرة في علم الله تعالى قبل خلق العباد بالفي عام .

أقول : يعني من « خلق تقدير » أمراً بين امرين ومن خلق تكوين الجبر .

(٢) نور الثقلين ١ : ٧٥٥ عن أصول الكافي عن أبي الحسن (ع) في حديثه طويل : ان صانع ...

فإن كانت خلقت من شيء كان معه فإن ذلك الشيء قديم لا يكون حديثاً ولا يفنى ولا يتغير ، ولا يخلو ذلك الشيء من أن يكون جوهراً واحداً ولوناً واحداً فمن أين جاءت هذه الألوان المختلفة والجواهر الكثيرة الموجودة في هذا العالم من ضروب شتى ، ومن أين جاء الموت إن كان الشيء الذي أنشأت منه الأشياء حياً ، أو من أين جاءت الحياة إن كان ذلك الشيء ميتاً ، ولا يجوز أن يكون من حي وميت قديمين لم يزالا ، لأن الحي لا يجيء منه ميت وهو لم يزل حياً ، ولا يجوز أيضاً أن يكون الميت قديماً لم يزل بما هو به الموت ، لأن الميت لا قدرة له ولا بقاء (١) .

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٠٣) :

هذه من أمهات الآيات المحكمات تعريفاً بالله تعالى شأنه ، مفسرة لكافة المتشابهات التي يخيل فيها أنه تعالى يبصر ببصر أو ببصرة .

فالإدراك هو الوصول كيفما كان ، و « الأبصار » جمع البصر الشامل لبصر العين ، وبصر البصرة ، فطرياً أو عقلياً أو قلبياً أم في أسر الأسرار فهي أبصر من بصر العين ، فلأن المُبْصِر قد يكون محسوساً وأخرى غير محسوس ، فالأبصار تعم باصرة المحسوسات وسواها .

و « هو اللطيف » بحق اللطافة التي لا تُدْرِكُ بحقيقة الذات وذاتيات الصفات بوحدها مع الذات ، بل ولا الأفعال ، إلا أن يُرى الله من أفعاله شطراً بعض عباده المخلصين كما يمكن أن يُرى .

ذلك فالحيطة العلمية والمعرفية على الله مستحيلة لمن سوى الله وعلى حد قول رسول الله (ص) في ضوء الآية : « لو أن الجن والشياطين

(١) بحار الأنوار ٩: ٦٤ و ١٦٦ وهي من غرر الحجاجات الجامعة لدررها .

والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفوا واحداً ما أحاطوا بالله
أبدأ»^(١) والصف الواحد هو في حقل المحاولات المعرفية لتلك
الإحاطة .

هنا « لا تدركه » طليقة في استغراق أي زمان أو مكان أو آياً كان من
كائن غير الله في مثلث النشآت ، حيث الأبصار بحدودها قليلة عن إبصاره
تعالى فإنه اللامحدود والمجرد الطليق عن كل حد ، فليس محسوساً حتى
يحس ولا مجسوساً حتى يُجسَّ ولا ملموساً حتى يُلمس فـ لا يحس ولا
يُجس ولا يُمس ولا يدرك بالحواس الخمس « ولا بغيره من إدراكات
الأبصار وأبصار الإدراكات في أي حقل من الحقول ولأي عقل من
العقول ، شـ كلما ميزتموه بأوهامكم فهو مخلوق لكم مثلكم مردود
إليكم » .

« لا تدركه » لا تعني - فيما عنت - « لا تعرفه » حيث المعرفة الممكنة
المأمور بها لا تعني إدراكه بمعرفة كهذه ، كما لا تعني « الأبصار » - فقط -
أبصار العيون ، حيث الجمع المحلى باللام يحلق على كافة الأبصار في أي
إبصار ، سواء في هذه السلبية الطليقة أبصار عيون الإبصار أو أسرار
البصائر ، بصائر الفطر والعقول والقلوب والألباب والأفئدة أماهيه من وسائل
الإبصار

فلأن « لا تدركه » هي من ميزات تعالي عن خلقه ، فإبصار واحد من
واحد في أي من النشآت وفي أي حقل من حقوله من أي مبصر ينقض هذه
الميزة ويسويه بخلق سبحانه في أصل الإبصار .

(١) الدر المنثور ٣: ٣٧ - اخرج ابن أبي حاتم والعقيلي وابن عدي وأبو الشيخ وابن
مردويه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله (ص) في قوله « لا تدركه
الأبصار ... » قال: ...

ولو أن « لا تدركه » اختصت بأبصار العيون لما اختصت ذاته بعدم الإبصار حيث إن من المادة أو الطاقة المادية ما لا تدركه الأبصار ، و « إن أوهام القلوب أكبر من أبصار العيون فهو لا تدركه الأوهام وهو يدرك الأوهام » (١) فـ « إياكم والتفكر في الله ، لا يزيد إلا تيهاً إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا تدركه الأبصار ولا يوصف بمقدار » (٢) « ولم تدركه الأبصار فيكون بعد انتقالها حائلاً » (٣) .

ذلك ، فكما أنه « ليس كمثله شيء » في ذاته وصفاته وأفعاله ، كذلك « لا تدركه الأبصار » في ذلك المثلث المقدس ، حيث إن إبصاره إدراكاً له يشبهه بخلقه المبصرين .

ولئن قلت : « فإننا روينا أن الله قَسَمَ الرؤية والكلام بين نبيين فقسم لموسى الكلام ولمحمد (ص) الرؤية ؟! نقول :
فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين من الجن والإنس أنه « لا تدركه الأبصار » « ولا يحيطون به علماً » و « ليس كمثله شيء » ؟ أليس محمد (ص) ؟ .. بلى .

فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله ويقول : إنه لا تدركه الأبصار - ولا يحيطون به علماً - وليس كمثله شيء ، ثم يقول : أنا رأيته بعيني ، وأحطت به علماً

(١) نور الثقلين ١ : ٧٥٣ عن كتاب التوحيد باسناده إلى أبي هاشم الجعفري عن أبي الحسن الرضا (ع) قال : سألته عن الله عزَّ وجلَّ هل يوصف ؟ فقال : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قال : فتعرفون الأبصار ؟ قلت : بلى قال : وما هي ؟ قلت : أبصار العيون ، فقال : إن ..

(٢) المصدر عن امالي الصدوق باسناده إلى أبي عبد الله (ع) قال : ...

(٣) المصدر عن كتاب التوحيد خطبة لعلي (ع) يقول فيها : ...

وهو على صورة البشر ؟ أما تستحيون ! - ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا ، أن يكون أتى عن الله بأمر ثم يأتي بخلافه من وجه آخر . . . وحين يقال : فتكذب بالرواية ؟! نقول : إذا كانت الرواية مخالفة للقرآن كذبتها وما أجمع المسلمون عليه أنه لا يحاط به علماً ولا تدركه الأبصار وليس كمثله شيء . . . (١) .

ومما يحير العقول تقديم الرواية المختلفة في رؤية الله على محكمات القرآن وأدلة العقول ، مما يدل على أن مختلفيها والمتمسكين بها ليسوا من أرباب العقول .

ذلك ، وإلى خطب توحيدية للرسول (ص) وعثرته المعصومين عليهم السلام نبهة غالية على ضوء القرآن :

فمن خطبة للرسول (ص) : « الحمد لله الذي كان في أوليته وحدانياً وفي أزليته متعظماً بالإلهية متكبراً بكبريائه وجبروته ، إبتداء ما ابتدع وأنشأ ما خلق على غير مثال كان سبق ، ولا شيء مما خلق ، ربنا اللطيف بلطف ربوبيته ، وبعلم خبره فتق ، وبإحكام قدرته خلق جميع ما خلق ، وبنور الإصباح فتق ، فلا مبدل لخلقه ، ولا مغير لصنعه ، ولا معقب لحكمه ، ولا راد لأمره ، ولا مستراح عن دعوته ، ولا زوال لملكه ، ولا انقطاع لمدته ، وهو الكينون أولاً والديموم أبداً ، المحتجب بنوره دون خلقه في الأفق الطامع ، والعز الشامخ ، والملك الباذخ ، فوق كل شيء علا ، ومن كل شيء دنا ، فتجلى لخلقه من غير أن يكون يُرى ، وهو بالمنظر

(١) بحار الأنوار ١٠ : ٣٤٣ - ٣٤٧ ، حوار للامام الرضا (ع) مع أبوقرة المحدث صاحب شبرمة وفيها بعدما ختمنا به في المتن : قال أبوقرة : فأين الله ، قال (ع) : الأين مكان وهذه مسألة شاهد عن غائب والله تعالى ليس بغائب ولا يقدمه قادم وهو بكل مكان موجود مدبر صانع حافظ ممسك السماوات والأرض . . .

الأعلى ، فأحب الإختصاص بالتوحيد إذا احتجب بنوره ، وسما في علوه ، واستتر عن خلقه . . . » (١) .

و . . . إن الخالق لا يوصف إلا بما وصف به نفسه ، وكيف يوصف الخالق الذي يعجز الحواس أن تدركه ، والأوهام أن تناله ، والخطرات أن تحده ، والأبصار عن الإحاطة به ، جل عما يصفه الواصفون ، نأى في قربه وقرب في نأيه ، كيف الكيفية فلا يقال له : كيف ؟ وأين الأين فلا يقال له : أين ؟ هو منقطع الكيفوية والأينونية ، فهو الأحد الصمد كما وصف نفسه والواصفون لا يبلغون نعته ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . . . (٢) .

ومن خطبة خطبها وزير الرسول (ص) وخليفته علي (ع) بعد موته (ص) :

« الحمد لله الذي أعجز الأوهام أن تنال إلا وجوده ، وحجب العقول عن أن تتخيل ذاته في امتناعها من الشبه والشكل ، فارق الأشياء لا على اختلاف الأماكن ، وتمكن منها لا على الممازجة ، وعلمها لا بأداة لا يكون العلم إلا بها ، وليس بينه وبين معلومه علم غيره ، إن قيل كان فعلى تأويل أزلية الوجود ، وإن قيل لم يزل فعلى تأويل نفي العدم ، فسبحانه وتعالى

(١) البحار ٤ : ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٢) المصدر ، وفيه قدم عليه (ص) يهودي يقال له نعثل فقال يا محمد ! إني سأثلك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين ، فإن انت اجبتي عنها اسلمت على يدك ، قال (ص) سأل فقال يا محمد صف لي ربك فقال : ان الله . . . قال صدقت يا محمد أخبرني عن قولك انه واحد لا شبيه له اليس الله واحداً والانسان واحد فوحدانيته اشبهت وحدانية الانسان ؟ فقال (ص) الله واحد وأحدي المعنى والانسان واحد ثنوي المعنى ، جسم وعرض وبدن وروح فانما التشبيه في المعاني لا غير ، قال : صدقت يا محمد ! » .

عن قول من عبد سواه واتخذ إلهاً غيره علواً كبيراً » (١) .

ومن خطبة له (ع) خطبها في مسجد الكوفة :

« الحمد لله الذي لا من شيء كان ولا من شيء كَوْنٌ ما قد كان ،
المستشهد بحدوث الأشياء على أزليته ، وبما وسّمها به من العجز على
قدرته ، وبما اضطرّها إليه من الفناء على دوامه ، لم يخلُ منه مكان فيُدرك
بأينية ، ولا له شبح مثال فيوصف بكيفية ، ولم يغب عن شيء فيُعلم
بحيثة ، مابين لجميع ما أحدث في الصفات ، وممتنع عن الإدراك بما
ابتدع من تصريف الذوات ، وخارج بالكبرياء والعظمة من جميع تصرف
الحالات ، محرم على بوارع ثاقبات الفطن تحديده ، وعلى عوامق ثاقبات
الفكر تكييفه ، وعلى غوائص سابحات النظر تصويره ، لا تحويه الأماكن
لعظمته ، ولا تذرعه المقادير لجلاله ، ولا تقطعه المقائيس لكبريائه ،
ممتنع عن الأوهام أن تكتنهه ، وعن الأفهام أن تستفرقه ، وعن الأذهان أن
تمثله ، قد يشت من استنباط الإحاطة به طوامح العقول ، ونضبت عن
الإشارة إليه بحار العلوم ورجعت بالصفير عن السمو إلى وصف قدرته
لطائف الخصوم ... » (٢) .

ومن خطبة له (ع) حين استنهض الناس في حرب معاوية :

« الحمد لله الواحد الأحد ... وغار في ملكوته عميقات مذاهب
التفكير ، وانقطع دون الرسوخ في علمه جوامع التفسير ، وحال دون غيبه
المكنون حجب من الغيوب ، تاهت في أدنى أدانيها طامحات العقول في
لطيفات الأمور ، فتبارك الذي لا يبلغه بعد الهمم ، ولا يناله غوص

(١) البحار ٤: ٢٢١ ، هي الخطبة التي خطبها بعد موت النبي (ص) بتسعة أيام حينما
فرغ من جمع القرآن .

(٢) المصدر ٢٢١ - ٢٢٣ .

الفطن، وتعالى الله الذي ليس له وقت معدود ولا أجل ممدود ولا نعت محدود ... » (١).

ومن كلام له في ماهيته تعالى تأويلاً للصمد :

« لا إسم ولا جسم ولا مثل ولا شبه ولا صورة ولا تمثال ولا حدٌ ولا حدود ولا موضع ولا مكان ولا كيف ولا أين ولا هنا ولا ثمة ولا ملأ ولا خلا ولا قيام ولا قعود ولا سكون ولا حركة ولا ظلماني ولا نوراني ولا روحاني ولا نفساني ولا يخلو منه موضع ولا على لون ولا على خطر قلب ولا على شَمٍ رائحة منفي عنه هذه الأشياء » (٢).

ومن خطبة للإمام الحسن المجتبي (ع) :

« الحمد لله الذي ليس له أول معلوم ، ولا آخر متناه ، ولا قبل مدركٌ ولا بعدٌ محدود ، ولا أمدٌ بحتى ، ولا شخصٌ فيتجزئ ، ولا اختلافٌ صفةً فيتناهى ، فلا تدرك العقول وأوهامها ولا الفكرَ وخطراتها ، ولا الأبوابُ وأذهانها صفتَه فيقول متى ؟ ولا بدءٌ مما ؟ ولا ظاهرٌ على ما ؟ ولا باطنٌ فيما ؟ ولا تاركٌ فهلاً ؟ .. » (٣).

ومن كلام للإمام الحسين (ع) حول التوحيد :

« أيها الناس اتقوا هؤلاء المارقة الذين يشبهون الله بأنفسهم يضاهئون قول الذين كفروا من أهل الكتاب ، بل هو الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، وهو الواحد الصمد ، ما تُصوّر في الأوهام فهو خلافه ، ليس برَبٍّ من طُرح تحت البلاغ ، ولا بمعبود من وُجد في هواءٍ أو غير هواء ... »

(١) المصدر .

(٢) المصدر ٣: ٢٣٠ عن ابن الحنفية عنه (ع).

(٣) المصدر ٤: ٢٨٩ .

١٩٠ الجزء السابع

احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار وعمن في السماء إحتجابه
عمن في الأرض ... » (١) .

ومن خط الامام الرضا (ع) :

« لا تشمله المشاعر ولا يحجبه الحجاب ، فالحجاب بينه وبين خلقه
لامتناعه مما يمكن في ذواتهم ، ولإمكان ذواتهم مما يمتنع منه ذاته ،
ولا افتراق الصانع والمصنوع والرب والمربوب » (٢) .

ومن حوار له (ع) مع زنديق يقول له :

« فلم احتجب ؟ فيقول (ع) : إن الحجاب على الخلق لكثرة
ذنوبهم ، فأما هو فلا تخفى عليه خافية في آناء الليل ، فلا تدركه حاسة
البصر ؟ للفرق بينه وبين خلقه الذين تدركهم حاسة الأبصار منهم ومن
غيرهم ، ثم هو أجل من أن يدركه بصر أو يحيط به وهم ، أو يضبطه
عقل .. » (٣) .

ومن حوار له (ع) مع سائل في جواب كيف هو وأين هو ؟ قال (ع) :

« ويلك إن الذي ذهبت إليه غلط ، وهو أين أين وكان ولا أين ، وهو
كيف كيف وكان ولا كيف ، فلا يُعرف بكيفية ولا بأينونية ولا بحاسة ولا
يقاس بشيء ، قال الرجل : فإذا إنه لا شيء إذا لم يدرك بحاسة من
الحواس ؟ فقال (ع) : ويلك لما عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت
ربوبيته ! ونحن إذا عجزت حواسنا عن إدراكه أيقنا أنه ربنا وأنه شيء
بخلاف الأشياء ... » (٤) .

(١) المصدر ٤: ٣٠١ .

(٢) المصدر .

(٣) المصدر ٣: ٣٦ ح ١١ وفيه أخيراً « فما برح الزنديق حتى اسلم » .

(٤) نور الثقلين ١: ٧٥٤ في عيون الأخبار .

ومن حوار للامام الصادق (ع) مع الزنديق :

الزنديق : كيف يعبد الله الخلق ولم يروه ؟ .

الامام (ع) : رآته القلوب بنور الايمان وأثبتته العقول بيقظتها اثبات العيان وأبصرته الأبصار بما رآته من حسن التركيب وإحكام التأليف ، ثم الرسل وآياتها والكتب ومحكماتها ، واقتصرت العلماء على ما رأت من عظمته دون رؤيته .

الزنديق : أليس هو قادراً أن يظهر لهم حتى يروه ويعرفوه فيُعبد على يقين ؟ .

الامام (ع) : ليس للمحال جواب^(١)

ذلك ، فاختصاص « لا تدركه » بأبصار العيون ، او اختصاصها ايضاً بدركها إياه يوم الدنيا ، ذلك كله اجتثاث لميزة الربوبية الخاصة .

فهـ « لا تدركه » تحلق على كل زمان ، كما ان « الأبصار » تحلق على كافة الأبصار ، بل وصدقها على أبصار القلوب أخرى من أبصار العيون فهـ « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها » إذ لا يعني الإبصار فيها والعمى إلا إبصار القلوب وعمائها^(٢) كما و « قلوب يومئذ واجفة . ابصارها خاشعة » (٧٩: ٩)^(٣) وقد تكفي عناية البصائر من

(١) المصدر ٩: ٦٤ و ١٦٦ .

(٢) نور الثقلين ١: ٧٥٢ في كتاب التوحيد باسناده إلى عبد الله بن سنان عن ابي عبد الله (ع) في قوله عز وجل : لا تدركه الأبصار ، قال : ما أخاطه الوهم ، ألا ترى الى قوله : « قد جاءكم بصائر من ربكم » ليس يعني بصر العيون « فمن أبصر فلنفسه » ليس يعني من البصر بعينه « ومن عمى فعليها » لم يعن عمى العيون انما عنى احاطة الوهم كما يقال فلان بصير بالشعر وفلان بصير بالفقه وفلان بصير بالدراهم وفلان بصير بالثياب ، الله اعظم من ان يرى بالعين .

(٣) من آيات تلکم الأبصار : « ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » (١٣: ٣) « اولي =

١٩٢ الجزء السابع

الأبصار بجنب عناية العيون لعناية الإستغراق في « لا تدركه الأبصار » .
بل والإدراك ايضاً ليس في الأغلبية الساحقة إلا بحق القلوب ، وأما
العيون فحقها « لا ترى - لا تبصر » وما أشبه .

وكما نرى آيات الإدراك كلها تعني الوصول وهو فعل القلب أم واقع
الوصول دون العيون التي لا تجد إلا صوراً منعكسة عن الواقع قد
تخطأ (١) .

أجل « لا تدركه الأبصار » لعلها وكللها بحدودها وقيودها ، ولأنه تعالى
لا يُحسُّ ولا يُجسُّ ولا يُمسُّ ولا يُدرك بالحواس الخمس وسائر الإدراك .

« وهو يدرك الأبصار » لحيطته على كل شيء ، أنه « على كل شيء »
وكيل « ثم : « وهو اللطيف الخبير » لطيف لا يُدرك ، ولطيف يُدرك كلما
يُدرك أو لا يُدرك ، لطيف عن كل الأبصار ، ولطيف الإبصار لكل
الأبصار ، لطيف في ذاته وفي أفعاله وصفاته ، لطيف في صنعه ، لطيف
في عطفه ولطفه « لطيف لطف بخلق ما سميناه بلا علاج ولا أداة وإن صانع
كل شيء فمن شيء صنع ، والله المخلق اللطيف الجليل خلق وصنع لا من
شيء » (٢) .

الأيدي والأبصار « (٤٥: ٣٨) » فاعتبروا يا أولي الأبصار « (٢: ٥٩) » وعلى أبصارهم
غشاوة « (٧: ٢) » ونقلب أفئدتهم وأبصارهم « (١١٠: ٦) » أولئك الذين طبع الله
على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم « (١٠٨: ١٦) » أولئك الذين لعنهم الله فاصمهم
واعمى أبصارهم « (٢٣: ٤٧) » .

(١) مثل « حتى إذا أدركه الغرق » (٩٠: ١٠) « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك
القمر » (٤٠: ٣٦) « أينما تكونوا يدرككم الموت » (٧٨: ٤) « فلما تراء الجمعان
قال أصحاب موسى إنا لمدركون » (٦١: ٣٦) .

(٢) نور الثقلين ١: ٧٥٥ عن أصول الكافي عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي
الحسن (ع) . . . فقولك « اللطيف الخبير » فسر له كما فسرت الواحد فإني أعلم أن =

فليس « اللطيف على قلة وقضاة وصغر ولكن ذلك على النفاذ في الأشياء والإمتناع من أن يدرك .. » (١) .

ذلك هو اللطيف « وأما الخبير فالذي لا يعزب عنه شيء ولا يفوته ، ليس للتجربة ولا للإعتبار بالأشياء ، فعند التجربة والإعتبار علما ولولاهما ما علم ، لأن من كان كذلك كان جاهلاً ، والله لم يزل خبيراً بما خلق ، والخبير من الناس المستخبر عن جهل، المتعلم، وقد جمعنا الاسم واختلف المعنى » (٢) .

ذلك ! وما أجهله وأحمقه من يستدل بهذه الآية على جواز رؤيته تعالى ، سناداً بأن امتداحه بـ « لا تدركه الأبصار » لا يصح إلا بإمكانية

لطفه على خلاف لطف خلقه للفعل غير أني أحب ان تشرح لي ذلك فقال (ع) يا فتى ! إنما قلنا اللطيف للخلق اللطيف لعلمه بالشيء اللطيف أو لا ترى وفقك الله وثبتك إلى اثر صنعه في النبات اللطيف وغير اللطيف ومن الخلق اللطيف ومن الحيوان الصغار ومن البعوض ومن الجرجس وما هو اصغر منها لا يكاد تستبينه العيون بل لا يكاد يستبان لصغره الذكر من الأنثى والحدث المولود من القديم فلما رأينا صغر ذلك في لطفه واهتداه للسفاد والهرب من الموت والجمع لما يصلحه وما في لجج البحار وما في لحاء الأشجار والمفاوز والقفار وأفهام بعضها عن بعض منطلقها وما يفهم به أولادها عنها ونقلها الغذاء إليها ثم تأليف الوانها حمرة مع صفرة وبياض مع حمرة وانه ما لا يكاد عيوننا تستبينه لدماة خلقها لا تراه عيوننا ولا تلمسه ايدينا علمنا ان خالق هذا الخلق لطيف ...

(١) المصدر عنه (ع) حديث طويل وفيه « وأما اللطيف فليس .. كقولك للرجل لطف عني هذا الأمر ولطف فلان في مذهبه ، وقوله يخبرك أنه غمض فيه العقل وفات الطلب وعاد متممناً متلطفاً لا يدركه الوهم ، فكذلك لطف الله تبارك وتعالى عن ان يدرك بحد أو يحد بوصف واللطفة منا الصغر والقلة فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى » .

(٢) المصدر ٧٥٦ عن اصول الكافي عن ابي الحسن الرضا (ع)

رؤيته ، حيث المعدوم المطلق أيضاً لا تدركه الأبصار وليس بحقه مدحاً^(١) .

ولكن خفي عليه أن امتناع إدراك ذاته هو امتداح لها، يعني تجرده اللانهائي ، وعدم إبصار المعدوم ليس إلا لسلب الموضوع ، وأما الموضوع الموجود الممتنع إبصاره للمخلق لتجرده اللانهائي ، فذلك له غاية الإمتداح .

ولأن « الأبصار » هنا أبصار الخلق ، فإبصاره تعالى ذاته خارج عن سلبية الإبصار لكل الأبصار ، فإبصاره تعالى بين ما هو لزام ذاته كإبصاره تعالى ذاته وما هو في حزام وامتناع وهو إبصاره تعالى لخلقه أن يبصروه .

فإبصار المحدود بأية أبصار ممتنع بالنسبة للأ محدود ، ثم إبصار اللأ محدود لذاته هو لزام علمه بذاته ، وإبصار محدود لمحدود ممكن في ذاته .

ففي مثلث الأبصار ، ليست الزاوية الواجبة لتفرض المستحيلة ، ولا المستحيلة لتحيل الواجبة ، كما الممكنة لا تفرض سواها كما لا تحيل ! .

وأما أن « الأبصار » جمع الإستغراق وسلبه سلب لذلك الإستغراق اللأ ملح لثبوت الرؤية لبعض الأبصار ؟ فغريب في نوعه ، حيث الإستغراق في موضع السلب إستغراق للسلب لا سلب للإستغراق حتى يلمح لثبوت البعض ، ولو عني سلب الإستغراق لكان الصحيح « لا تدركه كل الأبصار » .

وكذلك القول إن بالإمكان أن يخلق الله حساً سادساً يوم القيامة به يرى الله ؟ حيث الأبصار تعم كافة الحواس والإدراكات الظاهرة والباطنة أينما

(١) ذكره الفخر الرازي في تفسيره ١٣: ١٢٤ .

كانت وأيان ! وما يخلقه الله - فيما يزعم - من أبصار ، محدود لأنه من خلقه ، وليس للمحدود أن يحيط على اللامحدود ، ثم وهو غير مجرد عن المادة ، وليس للمادي أن يدرك غير المادي فان وسائل الإدراك محدودة بحدودها ، والمسانخة بين المدرك والمدرك من لزامات الإدراك .

ذلك ، ولما يخاطب موسى (ع) في حقل رؤيته تعالى به لن تراني « المحيلة لرؤيته لموسى على أية حال ، فبان يُحيل رؤيته تعالى لغير موسى أخرى .

والقول إن الرؤية نوعان ثانيهما الرؤية مع الإحاطة وهي الإدراك ، فنفي الإدراك إنما ينفي هذه الثانية دون الأولى ، مردود بأن ذلك إنما يصح في المرئي المتجزء فقد يرى بعضه دون بعض ، وأما المجرد الصمد الذي لا تركب فيه فسلب إدراكه هو سلب رؤيته إذ لا تنقسم رؤيته إلى هذين القسمين إحاطة ودونها، اللهم إلا أن تعني الرؤية غير المحيطة وهي المعرفة الممكنة لله تعالى .

وأما أن الآيات الدالة على رؤيته تعالى تخصص عموم الإستغراق في سلب إدراكه تعالى ، فذلك نقش بالنفخ على الحجر ، إذ ليست هنا آية ولا لمحة أن الله تعالى يرى ، اللهم إلا رؤية المعرفة الممكنة وهي ليست إدراكاً له تعالى، لأنه الوصول والحيطه على ذاته ، ومجرد الرؤية هي مجرد المعرفة دون حقها فضلاً عن حق الإدراك ، وهكذا تعني « ولقد رآه نزلة أخرى » كما تفسرها « ما كذب الفؤاد ما رأى » فلقد رآه دون إدراك بفؤاده المتفئد بنور المعرفة الممكنة لأعلى قممها حيث إنه (ص) « دنى فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى » .

ذلك ، وختاماً للبحث عن الرؤية ختماً لها حتماً نقول ، إن المحدود آتياً كان ليس ليحيط على غير المحدود وهو الإدراك ، إلا أن يتحول

المحدود إلى اللامحدود ، أو اللامحدود إلى المحدود ، فأبي بصر يتصور لا يمكن أن يدرك الله تعالى ، لا بصرأ حيث الأبصار المادية ليست لتدرك إلا المبصرات ، فلكل آلة للإدراك حقله الخاص ، فكما لا يُبصر بالأذن ، ولا يُسمع بالبصر ، فأحرى إستحالة ألا يُحس غير المحسوس بأية حاسة من الحواس، ثم ولا بصيرة لمكان المحدودية .

فحين نتخطى عن إدراكه بأبصار العيون ، فأبصار البصائر أيضاً عليّة كليلة عن أن تدركها لاستحالة ادراك المحدود اللامحدود .

والقول : إن بإمكان ربنا أن يرينا نفسه بقدرته الطليقة ورحمته الواسعة ؟ مردود بأن القدرة فضلاً عن الرحمة لا تتعلق بالمحال ، إذ لا سبيل إلى ادراك ذاته إلا اللامحدودية الربانية كما الله ، وهي ليست بالتّي تُخلق ، حيث اللامحدود غني الذات ، وكونه مخلوقاً يخرجّه عن غناه الذاتي ، والمحال - ولا سيما الذاتي - هو محال على أية حال ، وتعلق القدرة بما يخيّل إلينا أنه محال يخرجّه عن الإستحالة .

ذلك ومن خطب لعلّي أمير المؤمنين (ع) حول استحالة ادراكه تعالى ورؤيته : « وامتنع على عين البصيرة » (١٠٦/٤٩) - « لم يُطلع العقول على تحديد صفته » (١٠٦/٤٩) « لا تقع الأوهام له على صفة ، ولا تعقد القلوب منه على كيفية ، ولا تناله التجزئة والتبعيض ، ولا تحيط به الأبصار والقلوب » (١٦١/٨٩) - « هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته ، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته ، وتولّته القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها وهي تجوب مهاوي سُدف الغيوب متخلّصة إليه سبحانه ، فرجعت إذ جُبهت معرفة بأنه لا ينال بجور الإعتساف كنه معرفته ، ولا تخطر ببال أولي الرويات خاطرة من تقدير جلال عزته » (١٦٢/١/٨٩) « فتبارك الذي لا

يبلغه بعد الهمم ولا يناله حدس الفطن « (١٨٥ / ٩٢) .

ف« لم تره العيون فتخبر عنك ، بل كنت قبل الواصفين من خلقك » (٢٠٨ / ١٠٧) ، و« كيف يصف إلهه من يعجز عن صفة مخلوق مثله » (٢١٨ / ١١٠) « فلسنا نعلم كنه عظمتك ، إلا أننا نعلم أنك حي قيوم ، لا تأخذك سنة ولا نوم ، لم ينته إليك نظر ولم يدركك بصر ، أدركت الأبصار ، وأحصيت الأعمال ، وأخذت بالنواصي والأقدام ، وما الذي نرى من خلقك ، ونعجب له من قدرتك ، ونصفه من عظيم سلطانك ، وما تغيب عنا منه ، وقصرت أبصارنا عنه ، وانتهت عقولنا دونه ، وحالت ستور الغيوب بيننا وبينه أعظم ، فمن فرغ قلبه ، وأعمل فكره ، ليعلم كيف أقمت عرشك ، وكيف ذرات خلقك ، وكيف علقت في الهواء سماواتك ، وكيف مددت على مور الماء أرضك ، رجع طرفه حسيراً ، وعقله مبهوراً ، وسمعه والهاً ، وفكره حائراً » (٢٨٠ / ١٥٨) ف« لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان » (٣٢٠ / ١٧٧) .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴾ (١٠٤) :

« بصائر » جمع بصيرة ، وعليها هنا فاعلة مبصرة ومفعولة ، حيث الآيات القرآنية آيات ربانية مبصرة ربانيتها بنفسها ، مبصرة كل الحقائق التي يتوجب على المكلفين معرفتها ، وقد تعني « بصائر » كافة البصائر مهما كانت القرآنية منها أعلاها .

تلك البصائر الجائية كل المكلفين إلى يوم الدين : « ... قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم ورحمة لقوم يؤمنون » (٢٠٣ : ٧) وهي شريعة من الأمر : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها .. هذا

بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » (٢٠ : ٤٥).

« هذا » هنا إشارة - فيما تشير - إلى القرآن ككل ، وحدة جامعة لآياته ، و « بصائر » خبر للقرآن إعتباراً بآياته البصائر ، والرسول (ص) والذين معه حملاً للمسؤولية الرسالية الإسلامية يدعو ويدعون على بصيرة هي بصيرة وحي القرآن : « قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » (١٢ : ١٠٨).

وكما « الإنسان على نفسه بصيرة » (١٤ : ٧٥) كذلك آيات الله بصائر ، فكل من الداعية والمدعو بصيرة ، دون أية عمى إلا ما يختلقه الإنسان من غشاة وغباوة .

فالقرآن ليس بحاجة للشهادة على وحيه إلى بصيرة أخرى دونه ، بل هو الشهيد بين الله وبين الناس لرسالة المرسل به : « قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ .. » (١٩ : ٦).

اجل ، فالبصائر ليست جمع الباصرة الخاصة بالعين الظاهرة ، بل هي جمع البصيرة ، فطرية وعقلية وعلمية وحسية ، بالوحي أماهيه ، فلا عمى فيها اللهم إلا بتعمية عليها وتجديل ، أو تنحية عنها وتحويل .

فالفطرة الإنسانية بصيرة ، وعقليته بصيرة ، وقلبه بصيرة ، وحواسه بصيرة ، والقرآن بصيرة ، ونبي القرآن بصيرة ، ودعوته بصيرة ، ومصيرته ومسيرته بصيرة ، أبواب ثمان من البصائر الربانية عدد أبواب الجنة فتحت علينا ونحن بعد عمون ، تعمية لهذه البصائر وتجاهلاً عنها .

ومما يشهد لعناية البصائر كل بصيرة تكوينية وتشريعية « من ربكم » حيث الربوبية للمكلفين تشمل جانبي التكوين والتشريع .

ذلك ، مهما كانت البصائر الأنفسية وسائل صالحة للحصول على

بصائر الوحي ، حيث البصائر الوسائل ليست معصومة يكتفى بها فيما يتوجب على المكلفين من أصول وفروع ، فإنما هي حجج للحصول على تصديق الأصول ، ومن ثم الفروع التي تتبنى الأصول .

فالحجة البالغة الربانية هي بصائر الوحي رسولياً ورسالياً ، والحجج الباطنة هي ذرائع بالغة للبلوغ إلى تلك الحجج البالغة .

ومن غريب الوفق التوافق العددي بين البصر والبصيرة ، فان كلاً متكررة بمختلف الصيغ (١٤٨) مرة في القرآن .

ذلك ، ومن بصائر الوحي حامله المرسل به (ص) فإن حياته ولا سيما الرسالية منها بصائر تشرق بأنوار الهدى ابتعاداً عن الردى ، فإنه المنذر المبشر بالقرآن ، بصيرة معصومة بما عصم الله ، ينذر ويبشر بهذه البصائر « نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء » .

فحين تفتح أبصار القلوب إلى بصائر القرآن فهناك الإبصار التام « فمن أبصر » بالبصائر القرآنية ، فاتحاً بصيرته « فلنفسه » ومن عمى عنها « فعليها » حيث أعمى على نفسه تلكم البصائر « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (٢٢: ٤٦) فليس ليظل ضالاً مع هذه البصائر إلا معطل الحواس ، مغلق المشاعر ، مطموس الضمير ، المتغافل المتجاهل كالحمير ، بل هو أضل سبيلاً .

ذلك « وما أنا عليكم بوكيل » من ربي لأحملكم على بصائره فتهتدون ، إنما أنا نذير بها « فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها » .

أجل ، فالقرآن البصائر هو مادة الهدى ، ورسول القرآن هو الداعية بها ، دون حَوْل له ولا طَوْل في الحمل على الهدى « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » (١٦: ٩) .

﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠٥):

« وكذلك » المبصر المبصر بالحجة البالغة الدامغة « نُصَرِّفُ الْآيَاتِ »
 بوحى القرآن، وآفاقية وأنفسية، تصريفاً في تكرير البيان، رداً من حالة إلى
 أخرى، تحليفاً على كل الأحوال المبصرة للعقول والقلوب، إخراجاً لها
 عن الأحوال في كل الأحوال.

ولأن التصريف هو تكثير الصرف: الرد من حال إلى حال، فتصريف
 الآيات البصائر هو تكثير ردها إلى مختلف الأحوال المبصرة دون إبقاء
 لبصرة على أية حال.

ذلك « وليقولوا درست » هذه الآيات عن كتابات السماء عند علماءها،
 أم أية تقولة ليست لتصارع بصائر القرآن، فلا دور في معرض الفطر
 والعقول لفرية إختلاق القرآن من دون وحي، حيث القرآن هو نفسه حجة
 بالغة لإثبات وحيه لأعلى قممه المرموقة « ولا ينبئك مثل خبير »!

« ولنبينه » : القرآن، بتصريف الآيات « لقوم يعلمون » الحق عن
 الباطل، « وليقولوا » لهذا الرسول حول قرآنه « درست » قوله ذاهبة في
 الأثير هباء لا سناد لها، فليقولوا إذا أين درس ذلك الدرس الذي يفوق كافة
 دروس الوحي فضلاً عن سائرهما؟ هل درسه عند علماء الكتاب، والقرآن
 مهيم على وحي الكتاب، نقضاً للمدسوس فيه، وتكميلاً لما نقص، وترميماً
 لما تقلص، فكيف يكون القرآن - إذا - درساً عن سائر الكتاب بعلماءه أو
 سواهم، ولأنه أعلى من كل كتب السماء محتداً؟ فليكن كل تلميذ أعلم
 ممن تلمذ عليه! إذا فلتكن التورات درساً عن أساطير الأولين إكتبتها موسى
 فهي تملئ عليه بكرة وأصيلاً!

وليكن - كذلك - كل كتاب نابغ نابعاً عما دونه من كتاب، وهكذا

سورة الأنعام / آية ١٠٥ ٢٠١

الأمر في كل ناصع واصب من العلوم والأفكار ، نابعة من منابع خليطة بكل غث وسمين وكل خائن وأمين .

وكيف يقولون « درست » ؟ « وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون » (٢٩: ٤٨) فـ « قد لبثت فيكم عُمراً من قبله أفلا تعقلون » (١٠: ١٦) .

« ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » (١٦: ١٠٣) - « وقالوا أساطير الأولين إكتسبها فهي تملأ عليه بكرة وأصيلاً . قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً » (٢٥: ٦) ^(١) .

أجل إنه (ص) درس القرآن ولكن أين ؟ في مدرسة الوحي القمة ، عند الله الذي يعلم السر في السماوات والأرض ، كما نعلم ذلك العلم السر في القرآن .

فكل تلميذ يُعرف محتده الدراسي من درسه نفسه ، فيُعرف من هو الذي علّمه ، ودرس القرآن لا يناسب إلا ساحة الربوبية في أعلى قمم الوحي الرباني .

وهكذا كان المرسلون يستدلون لرسالتهم الربانية بربانية أقوالهم وأحوالهم وأعمالهم كما نسمع رسل المسيح من الله قائلين أمام الناكرين : « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » (٣٦: ١٦) حيث يوجهون في ذلك البرهان العطيف اللطيف أنظار الناكرين إلى حالاتهم ومقالاتهم ، برهنة بها على محتد من أرسلهم .

(١) راجع الفرقان في تفسير هذه الآيات لزيادة الإطلاع على فرية الاكتاب والدراسة المحمدية والرد عليها .

وترى ما هو المعطوف عليه لـ « وليقولوا ... » وما هي المناسبة للمعطوفين المتناحرين ؟ هنا معطوف عليه معروف من صوغ الكلام كهـ « اكتتبها فهي تملأ عليه بكرة وعشياً » و « إنه سحر يؤثر » أو شعر أو كهانة أم به جنة ، ولكي تكمل حجة الله البالغة على الذين يعلمون أو لا يعلمون ، ثم لا ضير إذاً أن يقول المجاهيل : « درست » فاللام في « وليقولوا ... » تعني - فيما تعنيه - غاية للمجاهيل في واجهة القرآن ، فإن كل محاولاتهم في إسقاط حجة القرآن البالغة داحضة فليقولوا درست أم أية قوله أو احتيالة ضده ، « ولنبيه لقوم يعلمون » فقالة « درست » هي قالة الذين لا يعلمون تقصيراً منهم حسيراً وتحسيراً قصيراً لا يبلغون فيه إلى غايتهم المضللة ، وقد تكون اللام للغاية ، غاية للذين كفروا امتحاناً لهم فامتحاناً ، كما هي غاية للذين آمنوا ، غاية شاردة أو واردة .

ذلك ، وقد تصلح « درست » غاية ربانية إلى غايتهم حيث « نزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » (٨٢: ١٧) - « يقل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين » (٢٦: ٢) « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » (٩: ١٢٥) « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر » (٣١: ٧٤) .

وقد تعني « اللام » في « ليقولوا » الأمر ، فهو أمر تعجيز ، أم بيان حال لهم تقتضي هذه القولة ، فلا عطف إذاً مع أمر الأمر ، وقد تعني الواو كلا

سورة الأنعام / آية ١٠٥ ٢٠٣

العطف والإستئناف جمعاً بين الغاية والأمر، والحاصل هو مثلث
المحتملات .

اجل « وكذلك » العميق الهدى العريق المدى « نصرف الآيات » حجة
بالغة لا تبقى معه حجة لمن يقول « درست » وتكون حجة « لقوم
يعلمون » .

وهكذا تكون حجة الله البالغة قاطعة للأعداء حيث لا يبقى معها أية
عاذرة إلا ماردة شاردة غادرة .

ذلك ، وكيف تعقل فرية درس القرآن بما ليس نابعاً من بيئتهم ولا بيئة
أهل الكتاب ، فلا عهد للبشر على طول زمن الرسالات - فضلاً عن سواها -
أن يجدوا ذلك المستوى السامق الشاهق الرفيع في صيغة التعبير وصيغة
المعنى المعبر عنه ، فقد ينتهي ذلك التصريف الظريف في مختلف
التحرّري عن الحق والتجري عليه ، إلى نتيجتين متقابلتين : « درست »
و« لنبينه . . » فأما الذين لا يريدون الهدى ، العائشون الردى ، فهؤلاء هم
يحاولون أن يجدوا تعليلاً لهذا القرآن ، وغايتها « درست » المنكرة في كافة
الأعراف كتابية وسواها ، إذ ما كان أحد من علماء الكتاب يعرف ذلك
المستوى ، حيث المسافة شاسعة بينه وبين سائر الكتب السماوية فضلاً عما
سواها .

فالعلم - فطرياً وعقلياً وفكرياً وتجريبياً - فضلاً عن علم الكتاب -
يصدق وحي القرآن : « ولنبينه لقوم يعلمون » أية مرحلة من مراحل هذه .

وأما الذين يقولون « درست » فقد درّست عنهم معالم الهدى حيث
تجاهلوا عن كل بنود العلم والمعرفة ، وأثاقلوا وأخلدوا إلى أرض الجهالة
والغباوة .

وحين ينقسم المرسل إليهم بهذا القرآن فريقين إثنين ، يصدر أمر الله

العلي العلوي أن يتبع ما أوحى إليه ، وكفاه حجة بالغة في كل الحقول ، صوغاً لحياته - ككل - بصياغته، وصبغاً لها بصبغته ، إذ لا حجة له أبلغ من حاجته طمأنة لخاطره الشريف بذلك الوحي الظريف الطريف دون فشل ولا فتور من تقولهم « درست » وما أشبه فانه هباء في العراء ونقش في الماء والهواء .

ف« كذلك نصرف الآيات وليقولوا درست » « فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » وما تلکم القبيلات الغائلات على القرآن مما تغتاله .

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٠٦):

« اتبع » رسوليًا ورساليًا « ما أوحى إليك من ربك » من كتابه « لا إله إلا هو » يوحى إليك غير « وأعرض عن المشركين » بعد كامل الإنذار بحجج الله ، إعراضاً عن الإشتغال بهم بعد الإياس ، وعن أن تأسف لهم أو عن أذاهم إذ « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » .

و « من ربك » هنا دون « الله » أو « رب العالمين » تعبيرة قاصدة ، أن الذي رباك بتلك التربية الغالية هو الذي يركاك في تلك الدعاية الرسالية ، دونما فشل ، فجء في مصيرك بمسيرك دونما أية وقفة فربك يركاك ولن تجد من دونه ملتحداً .

وقد تعني « لا إله إلا هو » بعد أمر الإتياع - فيما عنت وقبل امر الإعراض - أن عليك أن تحور حور ذلك المحور الوحيد من التوحيد ، فلا يززعرك الطوارئ القواصف ، ولا تحركك العواصف ، فلا يعني الإعراض عنهم - فيما عني - الرضا بإشراكهم حين لا تؤثر فيهم دعوتك ، فعلى الداعية أن يعلّق أملة وعمله بالذين يسمعون الدعوة مهما

قلوا ، دون تعليق على من سواهم مهما كثروا إذا قلوا .

وتراه (ص) هنا - بعد - يؤمر بالإعراض عنهم حتى في مواصلة الدعوة ؟ كلا ! فإنها ككل « عذراً أو نذراً » وإنما الإعراض خاص بغير حقل الدعوة الرسالية : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » (٩٤: ١٥) .

فذلك إعراض فيما تضر مواصلته : « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره . . » (٦٨: ٦) فبعد ذلك واصلهم في دعوتك حيث تفيد - لأقل تقدير - عذراً لك ووزراً لهم وقطعاً لحجتهم في لجتهم .

وأعرض عن أذاهم فإن الله لهم بالمرصاد : « فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون » (٣٢: ٣٠) اللهم إلا فيما تؤمر بجهادهم دفاعاً وسواه .

وأعرض عن أن يؤثر في دعوتك المتواصلة تعنتهم وعنادهم ، بل وعلى الداعية الربانية المزيد من قوة الدعوة حين يرى متصلبين في تكذيبها ، متألبيين في إخفاق صداها وإخفاق مداها وإخماد نائرتها .

فالداعية المؤمنة يزداد قوة في دعوته حين يعرقل مسيره ومصيره بعراقيل المكذبين ، دون أن يفشل في دعوته أو يخمل في رعايته .

كذلك « وأعرض » عن الرجاء فيهم أن يؤمنوا قطعاً لآمالك عنهم إذ :
﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
بَوَكِيلٍ ﴾ (١٠٧) :

فـ « لو » تحيل تلك المشيئة الإلهية المسيرة لسلبية الإشراك تكويناً ، مهما شاء ألا يشركوا تشريعاً ، وكذلك المشيئة الموقفة لهم لترك الإشراك ، فإنها تختص بمن شاء ترك الإشراك وتحرى عن الحق ، فكما الله لا يشاء

حملهم على الهدى ، كذلك لا يشاء توفيقهم لها حين يستحبون الردى على الهدى ، أم لا يشاءون الهدى ^(١) .

فاعلم يا رسول الهدى أنهم ليسوا في إشراكهم بالله متغلبين على مشيئة الله ، فـ « لو شاء الله ما أشركوا » فان قضية الرحمة والحكمة الربانية التخيير بعد الدلالة دون إجبار وتسيير ، فمن استرحم الله رحمه ومن أعرض عن الله حرمة ، ضابطة ثابتة في حقلي الضلال والهدى .

ذلك « وما جعلناك عليهم حفيظاً » تحافظ عليهم شاءوا أم أبوا ، فانما أنا الحفيظ فيما يجب الحفاظ أم هو راجع ، ثم :

« ولست عليهم بوكيل » تكل أمر ضلالهم وهداهم ، فلا وكالة ولا حفاظة ولا نيابة للرسول (ص) - فضلاً عن سواه - على أحد في تكوين أو تشريع ، في تسيير أم توفيق أما ذا من غير رسالة الله حملاً ودعوة ودعاية .

إذا فلا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ، ولا تأسف على ما يضلون فإن هم إلا مضلي أنفسهم وما يشعرون .

ذلك ! ومن الإعراض عنهم عدم مقابلتهم بمثل ما هم قائلون أو عاملون ، أو سبهم أم سب ألتهم التي ألتهم فيسبوا الله عدواً بغير علم :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٠٨) :

(١) نور الثقلين ١: ٧٥٦ عن مجمع البيان في تفسير اهل البيت عليهم السلام « لو شاء الله ان يجعلهم كلهم مؤمنين معصومين حتى كان لا يعصيه أحد لما كان يحتاج إلى جنة ولا إلى نار ولكنه امرهم ونهاهم وامتنعهم واعطاهم ماله عليهم به الحجة من الآلة والاستطاعة ليستحق الثواب والعقاب » .

السب لغوياً هو الشتم الوجيع ، وهو النسبة السيئة غير الواقعة ، أو الواقعة التي تستحق الشر ، وأما السيئة الجاهرة الظاهرة أو التي يجب افشاءها حفاظاً على الأهم فقد لا يسمى إظهارها بقال أو فعال سباً مهما حسبها صاحبها سباً .

ثم « الذين يدعون » قد تعم كلا العابدين ^(١) والمعبودين ^(٢) ، فـ « الذين يدعون » هم من دون الله ، هم المعبدون « والذين يدعون » غير الله « من دون الله » هم العابدون ، وكلاهما يرجعان إلى عبادة ما سوى الله فهي - إذاً - مصب السب المنهي عنه ، سباً للمعبودين أم والعابدين ولكن سب المعبودين هو الذي يحرض العابدين على أن يسبوا الله .

وليس التحريم هذا أصلياً حيث إن هذه العبادة - والمعبودين - تستحق الشتم الوجيع ، بل هو مصلحي لحرمة الاستسباب « فیسبوا الله عدواً بغير علم » ^(٣) .

مركز تحقیق کتابت و ترویج علوم اسلامی

(١) نور الثقلين ١: ٧٥٧ في اصول الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله (ع) حديث طويل يقول فيه : وإياكم وسب اعداء الله حيث يسمعونكم فيسبوا الله عدواً بغير علم .

(٢) المصدر عن تفسير القمي حدثني أبي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله (ع) قال سئل عن قول النبي (ص) : ان الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاء سوداء في ليلة ظلماء ؟ فقال كان المؤمنون يسبون ما يعبد المشركون من دون الله فكان المشركون يسبون ما يعبد المؤمنون فنهى الله المؤمنين عن سب آلهم لكيلا يسب الكفار آل المؤمنين فيكون المؤمنون قد اشركوا بالله من حيث لا يعلمون فقال : « ولا تسبوا ... » .

(٣) نور الثقلين ١: ٧٥٧ في الكافي عن أبي جعفر عليهما السلام قال : في التوراة مكتوب فيما ناجى الله جل وعزبه موسى بن عمران (ع) يا موسى اكنم مكتوم سري في سريرتك وأظهر في علانيتك المداراة عني بعدوي وعدوك من خلقي ولا تستسب لي عندهم باظهار مكتوم سر فتشرك وعدوك عدوي في سبي .

وهذه ضابطة ثابتة أن الأمر المباح في نفسه بل والراجع أو الواجب ،
وجاه الغير إذا سبب محظوراً أشد منه أصبح محظوراً بذلك السبب ، ولا
تشمل الواجبات الشخصية كأن تصلي وهي تسبب الهزء من الدين ، أو
ترك الخمر وهو يسبب ما أشبهه من هزء وسواه ، فإن فرائض الله سلبياً
وإيجابياً ليست لتترك حيث تسبب تخلفات الآخرين ، فهل تحرم الدعوة
إلى الله ببالغ الحجة إذا سببت التكذيب بها من الكافرين ؟!

فإنما المحذور هو أن توجه إلى المتخلفين عن الله ، أو إلى معبوديهم
خطاباً وعتاباً يسبب سبب الله أم سواه من حرمان الله ، وبإمكانك أن تسكت
أو تغير التعبير جداولاً بالتي هي أحسن .

ذلك ، وليس سبب الذين يدعون من دون الله من قضايا الدعوة إلى
الله ، بل وقد يبعدهم أكثر مما هم ، أو يحرضهم على سبب الله عدواً بغير
علم ، وهم معترفون بالله في أصله ، مهما اشركوا به ما سواه^(١) .

ذلك ، وأما حججنا المرسلين وسواهم ، المذكورة في الكتاب
والسنة^(٢) التي تزري العابدين من دون الله والمعبودين ، فليست هي من

(٦) الدر المنثور ٣: ٣٨ عن ابن عباس في قوله : ولا تسبوا .. قال : قالوا يا محمد
لنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله ان يسبوا او ثائهم فيسبوا الله عدواً
بغير علم .

(٢) كـ « لعنهم الله بكفرهم » (٤: ٤٦) فانه بيان واقع ان بعدهم الله بكفرهم بالله ،
وكذلك « فقتل كيف قدر » (١٩: ٧٤) و « قتل الانسان ما اكفره » (١٧: ٨٠) و « اف
لكم ولما تعبدون من دون الله » (٢١: ٦٧) و « مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك
زنيماً » (١٣: ٦٨) فهذه كلها بيان للواقع دعوة إلى الحق وحظراً عن الباطل وتحذيراً
عن وقعه بين اهل الحق ، فانما السب ما ليس في بيان الواقع والحق وتزييف
الباطل ، فالدعوة الى الله لها متطلبات واقعية لا يحظر عليها ابداً .

السب ، فإنها تحمل إيجاب الحق وسلب الباطل بالتي هي أحسن ، فمثل « أف لكم ولما تعبدون » حيث تعني إبعاد العابد والمعبود عن الحق ، أو « لعنهم الله بكفرهم » إخباراً عن بُعدهم عن الله أو « مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيماً » إظهاراً للواقع المنكور لعامله حتى يُجتنب ، كل ذلك لا تعدوا بيان الواقع المنكور في مقام الحجاج بلجاجة المحتج عليه ، أم تسويله واحتياله للبسطاء اختلاصاً لهم عن الحق المرام الى باطل المرام ، وليس فيها شتم وجيع فرية وما أشبه من خلاف الحق ، فسبيل الحق لا تتحمل خلاف الحق .

فانما طبيعة الحال في الحجاج التزييف ببرهان ، والمحذور هو السب دون برهان ، أو خليط منهما ، وأما البرهان المزيف ، وهو طبيعة حال الحجاج ، فليس داخلياً في النهي فانه تبيين للحق ، وإلا لكانت الحجج الحقة كلها محظورة ، لأنها كلها تثبت الحق من ناحية وتبطل الباطل من أخرى ، فإحقاق الحق وإبطال الباطل بساطع المبراهين المثبتة للحق ، المزيفة للباطل ليس شتماً فضلاً عن الوجيع .

ف« لا تسبوا . . » لا تعني - فيما عنت - « لا تحتجوا » فإنما تشترط في الحجاج ان تكون بالتي هي أحسن ، قصداً إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل ولو كره الكافرون ، أو احتسبوه سباً وليس به .

ولو أن كل تعريض بالكفار تلزمه الحجاج بالتي هي أحسن كان محظوراً ، لحظر على كافة الدعوات الرسالية ، فإن قضيتها الأصلية إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وذلك يغض الكافر البغيض للحق الحفيظ للباطل .

ثم وليس دور النهي في الآية أصل السب ، بل هو الاستسباب ، فاما السب إعتداءً بالمثل ، أو السب بياناً لواقع السوء في الذي تسبه تنبيهاً له

وللآخرين حتى لا يتدنس المجتمع ، أو السب الذي هو لزام الحجاج بالتي هي أحسن ، فلا محذور فيه مهما سبب سباً هو أدنى من واقع الباطل المحتمل المختال ، وعلى أية حال فرعاية الأهم في دوران الأمر بينه وبين المهم ضابطة ثابتة لا حول عنها ولا محيد .

فالحاصل أن بيان الواقع الذميمة ولا سيما في الحجاج ليس سباً ، إنما السب هو نسبة الباطل كما هو لغوياً هو الشتم الوجيع ، فليس كل وجيع شتماً وليس كل شتم وجيعاً ، إنما هو الفرية السوء فإنها وجيعة لكل أحد .

إذاً فبيان الواقع السوء ولا سيما في مقام الحجاج المصلح للسيء أم وللآخرين ، ليس ذلك سباً مهما سبب سباً ، وهنا دور تقديم الأهم على المهم .

فالغيبة أو الفرية محرمة بصورة طليقة ولا سيما مع الإهانة الزائدة وهي السب ، وأما بيان الواقع دونما إهانة زائدة فليس من السب في شيء ، وإنما السب هو نسبة الباطل غير الواقع بصورة موجعة كأن تقول لعابد الطاغوت ابن الفاعلة أم وللطاغوت الذي ليس وليد زنا ابن الفاعلة .

وترى سب الذين يدعون من دون الله إنما يحظر عليه إذا سبب - فقط - سب الله ؟ وأما ولي الله فلا ؟ وسبه لولايته الله هو سب الله ! .

نعم ، إنه محذور كما السب الذي يسبب سب الله ، مهما كان الله نفسه تعالى وتقدس هو الأصل في ذلك المحظر^(١) .

ذلك وذكر مثالب أعداء الله حين يستجر مثالب على الله وأوليائه ،

(١) نور الثقلين ١ : ٧٥٧ عن عمر الطيالسي عن أبي عبد الله (ع) قال : سألت عن قول الله « ولا تسبوا » قال فقال (ع) يا عمر هل رأيت أحداً يسب الله ؟ قال : فقلت : جعلني الله فداك فكيف ؟ قال : من سب ولي الله فقد سب الله .

كذلك محظور محظور ، فـ « إذا سمعوا مثالب أعداءنا بأسمائهم سبونا بأسمائنا . . . » ^(١).

(١) المصدر ٧٥ : ٨ في عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا (ع) من الأخبار المتفرقة حديث طويل وفي آخره قال (ع) : ان مخالفينا وضعوا اخباراً في فضائلنا وجعلوها على اقسام ثلاثة احدها الغلو وثانيها التقصير في امرنا وثالثها التصريح بمثالب اعداءنا فإذا سمع الناس الغلو كفروا شيعتنا ونسبوههم إلى القول بربوبيتنا وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا وإذا سمعوا مثالب اعداءنا باسمائهم سبونا بأسمائنا وقد قال الله تعالى : « ولا تسبوا . . . » .

اقول : ولا يدخل في حقل السب هذا الذم العادل المنبئ القادح لمن هو قادح كما نجد في آيات عدة وروايات ، ومما ذم الامام امير المؤمنين (ع) بعض المستحقين للذم :

يقول في الأشعث بن قيس وقد اعترض عليه اثناء خطابه عن التحكيم - وكان من أصحابه ثم خرج عليه - : ما يدريك ما عليّ مما لي ، عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين ، حائل ابن حائل منافق ابن كافر ، والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى ، فما فداك منهما مالك ولا حسبك وإن امرء دل على قومه السيف ، وساق إليهم الحنف ، لحري أن يمقته الأقرب ، لا يأمنه الأبعد » (الخطبة ١٩ / ٦٣) .

وقال في مصقلة بن هبيرة الشيباني الخارج عليه بعد التحكيم الهارب إلى معاوية قبُح الله مصقلة ، فعل فعل السادة وفرّ فرار العبيد ، فما انطق مادحُه حتى أسكته ، ولا صدّق واصفه حتى بكّته ، ولو أقام لأخذنا ميسوره وانتظرنا بماله وفورَه » (١٠٢ / ٤٤) وقال في مروان الحكم حيث اخذ اسيراً يوم الجمل فاستشفع الحسين عليهما السلام إلى أمير المؤمنين (ع) فكلماه فيه فخلّى سبيله فقال له : يبايعك يا أمير المؤمنين فقال (ع) : أو لم يبايعني بعد مقتل عثمان ، لا حاجة لي في بيعته ، إنها كف يهودية لو بايعني بكفه لغدر بسبته - أسته - أما إن له إمرة كلعقة الكلب أنفه ، وهو أبو الأكبش الأربعة ، وستلقى الأمة منه ومن ولده يوماً احمر » (١٢٨ / ٧١) .

وقال (ع) لعثمان بنصحه : « فلا تكونن لمروان سيقه يسوقك حيث يشاء بعد جلال » .

وترى إن هم سبوا الله أم أهل الله دون سبِّ منا إلا الدعوة إلى الله

السن وتقضي العمر» (٢٩٢/١٦٢).

ويخبر عن حمّاج الثقفي: أما والله ليسلطن عليكم غلام ثقيف الذّيال الميَال ، يأكل خضرتكم ويذيب شحمتكم إليه أبا وذخّة : - الخنف ، التي لدغته حتى ماتت - .
وفي المغيرة بن الأخنس حين وقعت مشاجرة بينه (ع) وبين عثمان فقال الأخنس : ان اكفيكه فقال (ع) : يا ابن اللعين الأبر ، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع ، انت تكفيني ؟ فوالله ما أعز الله من انت ناصره ، ولا قام من أنت مُنهضه ، أخرج عني أبعد الله نواك ، ثم أبلغ جهذك ، فلا أبقي الله عليك إن أبقيت » (٢٤٧/١٣٣).

وقال (ع) للبرج بن سهر الطائي : اسكت قبحك الله يا أثم - ساقط الثنية من الاسنان - فوالله لقد ظهر الحق فكنت فيه ضيلاً شخصك ، خفياً صوتك ، حتى إذا نعر الباطل نجمت نجوم قرن الماعز » (٣٣٣/١٨٢).

ومن كتاب له (ع) إلى زياد بن أبيه وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه : وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستنزل إليك ، ويستقل غربك : - يثلم حدثك ونشاطك - فاحذره فإنما هو الشيطان ، يأتي المرة من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلته ، ويستلب غرته : - ساذج عقله - وقد كان من ابي سفيان في زمن عمر ابن الخطاب فلتة من حديث النفس ، ونزعة من نزعات الشيطان ، لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث ، والمتعلق بها كالواغل المدفّع : - المحاجز - والنوط المذبذب » (٥٠١/٢٨٣).

ومن كتاب له (ع) إلى المنذر بن الجارود العبدي وقد خان في بعض ما ولاء من أعماله : « أما بعد فإن صلاح ابيك ما غرني منك ، وظننت أنك تتبع هدي ، وتسلك سبيله ، فإذا أنت فيما رقي إلي عنك ، لا تدع لهواك إنقياداً ، ولا تبقي لآخرتك عتاداً ، تعمر دنياك بخراب آخرتك ، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك ، ولئن كان ما بلغني عنك حقاً لجميل اهلك وشسع نعلك خير منك ، ومن كان بصفتك فليس بأهل أن يسد به ثغر ، أو يُنفذ به أمر ، أو يُعلى له قدر ، أو يشرك في أمانة ، أو يؤمن على خيانة ، فأقبل إلي حين يصل إليك كتابي هذا انشاء الله » (٥٥٩/٣١٠).

فهلأ يجوز لنا سبهم أو سب آلهتهم إعتداءً بالمثل ؟ .

طبعاً نعم حيث لا تشمله آية النحظر ، اللهم إذا ازدادوا به سباً لله ، ورعاية الأهم مفروضة على أي حال ، ولا أهم حظراً من سب الله ، فالإستسباب محرم على أية حال وكذلك التساب إذا سبب مزيد السب لله ولأهل الله .

ذلك وإذا سبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تركاً لمعروف أو فعلاً لمنكر ولا سيما سب الله فذلك الأمر والنهي منكران .

وترى كيف يسب المشرك الله وهو معترف بالله قائلاً « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ؟ .

« من دون الله » لا يختص بالمشركين ، بل والذين يدعون المادة ناكرين وجود الله ، ثم والمشركون قد يسبون الله « عدواً بغير علم » حين تُسب آلهتهم « عدواً » : تجاوزاً ، وتعامياً عما يعتقدون من ألوهية الله « بغير علم » جهلاً أو تجاهلاً مقصراً بجنب الله .

بل وقد يسب المسلم ربه حين يتغيط فلا يملك لسانه فـ « يسب الله عدواً بغير علم » والعدو هو التجاوز عن الحد ، ولا تجاوز أحد وأعدى من سب الله ! .

و « كذلك زيننا لكل أمة عملهم » عدلاً منا حكيماً ، فتزيين الصالحات للصالحين جزاء بما أصلحوا ، وتزيين الطالحات للطالحين بما أفسدوا « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » .

والتزيين قد يكون واقعياً يستوي فيه المؤمن والكافر « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » (١٨ : ٧) « ولا يبدین زینتھن » (٢٤ : ٣١) .

وأخرى إبتلائاً جزاء بالسيئات وهو أن يظهر عمل أو مال أو حال بمظهر

المرغوب من الشهوات الحاضرة ، مهما كانت قذرة حاذره .

وثالثة أن تزين هذه أكثر مما هي ، أماهيه من تزيينات غير واقعية تضلل .

فاللذات المنحرفة في أي حقل من حقولها ، إنحرافاً عن سليم الفطرة أو العقلية الإنسانية أو الحس أو العلم أو عن قضية الشرعة ، هي المزينة أصولها ، المنجرفة في شفا حُفرها .

ثم اللذات الصادقة غير المنحرفة هي السليمة التي تصبح ذرائع لوصول الحق المرام : « ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان » (٤٩: ٧) .

إن تزيين السيئات قد ينسب إلى الشيطان وأخرى إلى الرحمن ، فحين ينسب إلى الشيطان فلأنه من هامة سعيه تضليلاً لمن يستجيبه ، وحين ينسب الله إلى نفسه فلأنه لا يصد الشيطان عن ذلك التزيين ، بل : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون » (٤٣: ٣٩) . « وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين » (٤١: ٢٥) .

لا فحسب ، بل « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » (٦١: ٥) و « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » (٢: ٧) ختماً وغشاوة بما عموا وصموا وهم يعلمون .

أجل « كذلك » العدل الحكيم « زينا لكل أمة عملهم » من أمة الخير وأمة الشر ، كلاً كما هوأه وحوأه وسعأه ، تزيين الخير للخيرين وتزيين الشر

للمشربين ، وذلك بعد الحجج البالغة في هدى النجدين لكل الإدراكات الصالحة ، فحين يبطل الإدراك الصالح بما عطلوه عن صالح الإدراك فهنا يأتي دور إبطاله من الله ختماً على القلوب والسمع والأبصار .

ذلك « ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » ، إنباءً معمقاً مكروراً يستفاد من « ينبئهم » لمكان التفعيل ، أن تظهر لهم أعمالهم بمظاهرها المزينة وبحقائقها القبيحة ، ثم تمثلاً لها بالعذاب .

وهنا « بما كانوا يعملون » إشعار آخر أنهم كانوا مخيرين فيما عملوا لا مسيرين ، وأن التزيين كان من خلفيات أعمالهم القبيحة وهم كانوا يعلمون قبحها .

فليس تزيين الله لأعمال قباح أمراً بدائياً ، إنما هو جزاء وفاق على الذين يعملون السيئات وهم يعلمون ، ثم إذا أصرروا فيها مكبين عليها « زينا لهم أعمالهم » كأنها حسنة بما ختمنا على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، فأولئك هم من « الأхسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

وَأَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا
قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾
* وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا

عَلَيْهِمْ كُلُّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ
عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
زُحْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ
وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ
أُبْتَغَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا
وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ
بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ
رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًّا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ

إِنْ كُنْتُمْ بِعَايَتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا
 ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَحْرَمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا
 مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ
 عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَهْرَ الْآلِئِمِ
 وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْآلِئِمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا
 يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ
 وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَى أُولِيَآئِهِمْ
 لِيُجَدِّلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾
 أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ
 فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا
 كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا
 الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٠٩) :

أقسام من هذه الأقسام نسمعها من المشركين وأضرابهم من الذين
 كفروا ، يستظهرون بها إضرابهم عن حق التوحيد والوحي والمعاد وهم

كاذبون ، فقد : « أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم » (٤٢: ٣٥) في أصل البعث الرسولي : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » (٣٨: ١٦) تحراً وتحلاً عن عبء الرسالات ، وهنا « أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . . » ويكأنهم لم تأتهم آية ، والقرآن بنفسه أبرز الآيات وأحرزها فيما هوأت من سائر الآيات^(١).

وجهد أيمانهم هو بالغها القمة المستطاعة منها بكل تأكيد وتسديد ، فقد حلفوا بالله وهم مشركون ، حلفاً بما يصدقه الطرفان وذلك من جهد الإيمان حيث اليمين بالأوثان ليس من جهد الإيمان إذ لا يقبله المحلوف له الناكِر إياه .

ولماذا هنا وفيما أشبه « أقسموا » دون حلفوا وأيمتوا ؟ لأن الحلف المؤكد ويمينه يقسم بين الحق والباطل في المدعى ، فكما أن سائر الحجج تقسم بينهما ، كذلك اليمين وهي حجة من لا حجة له سواها ، إحتجاجاً بالمقبول عند الطرفين ، فهو يقسم بين الحق والباطل ، كما يقسم بين المحق والمبطل حالفاً وسواه .

فحين ينكر منكر أم الآيات الربانية وقمتها فهو بأحرى ينكر سائر

(١) الدر المشور ٣: ٣٩ - اخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال كلم رسول الله (ص) قريشاً فقالوا يا محمد تخبرنا ان موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر وان عيسى كان يحيى الموتى وان ثمود كان لهم ناقه فأتنا من الآيات حتى نصدقك فقال رسول الله (ص) أي شيء تحبون ان آتيكم به قالوا تجعل لنا الصفا ذهباً قال فان فعلت تصدقوني قالوا نعم والله لئن فعلت لتتبعنك اجمعون فقام رسول الله (ص) يدعوفجاء جبرائيل (ع) فقال له ان شئت أصبح ذهباً فان لم يصدقوا عند ذلك لنعذبهم وان شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم فقال : بل يتوب تائبهم فأنزل الله « وأقسموا - الى قوله - يجهلون » .

الآيات ، وهنا الجواب : « قل إنما الآيات عند الله » وليست عندي حتى أستجيبكم فيما تقترحون ، فإنما هو الذي ينزلها كما يشاء لما يشاء من هدي العالمين حقاً لا عوج فيه ولا جَوَل عنه ، فإنه هو العارف بما يُصلح العباد ويُصلح أن يرشدهم إلى سبيل الرشاد : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين » (٢٩ : ٥٠) .

وهنا « قل إنما الآيات عند الله » إجابة تنازلية إلى جانب كونها واقعية ، ان لو تنازلنا ان القرآن ليس آية رسولية ، فالآيات كلها عند الله وليست عندي حتى تتطلبونها مني .

وهنا نتعرف إلى جانب من الكيان الرسالي سلبياً ان ليست الآيات عند الرسول مهما كان تخويلاً أو تحويلاً ، وإيجابياً « إنما أنا نذير مبين » .

و « عند الله » هنا تعني عندية العلم والقدرة والتقدير لهذه الآيات الربانية ، فذلك المثلث مخصوص بالله وحده ، لا يعدوه إلى سواء ، فليس - إذاً - عند من سواء ، لا أصيلاً ولا بديلاً أو وكيلاً أم سواء ، حيث البديل الوكيل عنده ما عند الأصل الموكّل مهما اختلف « عند » عن « عند » محتداً ، ولا تعني « عند الله » أن الآيات مقترحة وسواها كائنة عنده ماكنة بالفعل لديه ، وإنما تعني أن له - فقط - القدرة على تكوينها والعلم المحيط بها من قبل ومن بعد .

فعندية الزمان والمكان والواقع لهذه الآيات مرفوضة عن ساحة الربوبية ، وعندية العلم والقدرة والتقدير مرفوضة قضية كامل الربوبية ، فهي كما « عنده مفاتيح الغيب » - « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه » وما أشبه من عنديات ربانية سامية .

وجواب ثان عن هرطقة اقتراح آيات يخاطب به المؤمنون الراغبون إلى مزيد آيات عسى أن يؤمن هؤلاء المقترحون : « وما يشعركم أنها إذا جاءت

لا يؤمنون » كما لم يؤمنوا بما جاءت أفضل الآيات الكافية عن سائرهما وهو القرآن العظيم ، فالقصد من إنزال الآيات هو إمكانية التأثير ، إضافة إلى كونها صالحة كأصلح ما يكون ولكنهم لا يؤمنون، وليس كلامهم هذا إلا عذراً غير عاذر .

ذلك ، وحتى لو أرادوا أن يؤمنوا بمقترحات الآيات ، فهو إيمان قاحل جاهل إذ رفضوا قبلها أفضل الآيات :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَنذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١١٠) :

فكما لم يؤمنوا بما جاءتهم من آية قاطعة أول مرة تقلباً لأفئدتهم وأبصارهم من عند أنفسهم ، فهناك جزاء وفاق حيث « نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » تشبيهاً للعقوبة بالجريمة جزاء وفاقاً .

ثم لا نهديهم أبداً بعدما رفضوا أهدي الهدى ، بل « ونذرهم في طغيانهم يعمهون » .

أجل ، إن الأفئدة المتفردة بنور المعرفة فطرياً وعقلياً وعلمياً وعلى ضوء الوحي ، قد تقلب أفئدة متفردة بنار الجهالة والحماسة ، حيث تغلق عليها أبوابها ومنافذها ، وكذلك الأبصار ، حيث « ننكس قلوبهم فيكون أسفل قلوبهم أعلاها ، ونعمي أبصارهم فلا يبصرون الهدى »^(١)

(١) نور الثقلين ١: ٧٥٨ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليهما السلام . . وفيه قال علي بن أبي طالب (ع) ان أول ما يقلبون عليه من الجهاد الجهاد بايديكم ثم الجهاد بالسنتكم ثم الجهاد بقلوبكم فمن لم يعرف قلبه معروفاً ولم ينكر منكراً نكس قلبه فجعل اسفله اعلاه ثم لا يقبل خيراً أبداً كما لم يؤمنوا به أول مرة يعني في الذر والميثاق ونذرهم في طغيانهم يعمهون أي يضلون .

فيتردون في الردى فهم « في طغيانهم يعمهون » .

فلا يعني تقليب قلوبهم وأبصارهم إزالتها عن مواضعها وإقلاعها عن مناصبها ، والبنية حية صحيحة متصرفة ، وإنما يعني رميها بالحيرة والتماته جزاء على الكفر والضلالة فتصبح الأفئدة مسترجعة لتعاضم أسباب المخاوف ، والأبصار منزعة لتوقع طلوع المكاره في الأولى ، وتقليبها على قراميص الجمر في النار في الأخرى .

وهنا « أول مرة » هو المرة الأولى من مجيئهم آيات بينات ، وهي القرآن العظيم لهؤلاء ، وسائر الآيات قبل القرآن لمن عاشوها زمن سائر الرسالات .

فكما أن آباءهم أولاء لم يؤمنوا بالآيات المبصرة المبصرة من ذي قبل ، وهم أنفسهم لم يؤمنوا بالقرآن الذي هو أم الآيات ، لذلك « نقلب أفئدتهم .. » .

ولئن سأل سائل أن لو آمنوا بآيات مقترحة فلماذا إذاً تقليب قلوبهم وأبصارهم حتى لا يؤمنوا ؟ .

والجواب أن ذلك - لو كان - فهو من قاحل الإيمان ، رفضاً للإيمان بآيات يرضاه الله ، وإقبالاً إلى آيات يشتهونها ، وهكذا إيمان مهما حمل لفظه فهو حامل في الحق رفضه ، فلذلك « نقلب » .

وكيف لا وهم القوالون « درست » إندراساً لأفضل آية رسالية وأكملها ، وكيف يجتمع الإيمان بالله بآية مقترحة والكفر بآية حقة ربانية تدل دلالة قاطعة ؟ .

أقول : الميثاق حيث يعني الميثاق الفطري والعقلي وما اشبه فمعلوم ، وأما الذر فان كان هو الميثاق الفطري والأ فلا تكليف في عالم قبل الخلق حتى يكون هنالك إيمان وكفر .

وسؤال ثان : هب إنهم لا يؤمنون ، أولا تزيدهم حجة فلجّة زائدة بكفرهم المزيد ؟ .

أجل ، ولكنما حاذر العذاب الموعود للمكذبين إذا حاصر حيث « كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم » (٥٤ : ٨) فماذا يفيد - إذا - حجة بعد المحجة ؟ وحتى لو آمنوا لا ينفع - إذا - نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، فـ « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون » (١٥٨ : ٦) وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً « (٥٩ : ١٧) » وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين « (٦٤ : ٧) » وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين « (٧٢ : ٧) » .

وإنما تقدم تغليب الأفتدة على تغليب الأبصار ، لأن الأفتدة هي المحاور للأبصار وسائر الإدراكات وكما في الخبر « القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء » .

ثم و « كما لم يؤمنوا » قد تتحمل إلى وجه الجزاء - كما بيناه - وجة التشبيه ، فكما لم يؤمنوا أول مرة فقلبنا افئدتهم وأبصارهم ، كذلك نقلبها مرة أخرى إذ لا يؤمنون .

« ونذرهم في طغيانهم » على الحق « يعمهون » حيث لا نوقفهم لمعرفة الحق بعد إذ أنكروه عاندين ، فيا ويلاه لمن وكله الله إلى نفسه حتى إن كان مؤمناً فضلاً عن أمثال هؤلاء المكذبين .

ثم وتأكيذاً لكذبهم في دعوى الإيمان شرطاً أن تأتيهم آية أخرى كما يشتهون :

﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (١١١):

هنا جمع لجماع الآيات الممكنة في ذواتها أن تأتيهم في مثلث نزول الملائكة وتكليم الموتى وحشر كل شيء عليهم قبلاً، أنهم « ما كانوا ليؤمنوا » اللهم « إلا أن يشاء الله » حملاً لهم على إيمان، ولكنه خلاف حكمة الإبتلاء ، « ولكن أكثرهم يجهلون » تجاهلاً عن ذلك الواقع المرير الشرير ، فأقلهم يعلمون أنهم سوف لا يؤمنون .

ف« لو أننا . . » تشعر هؤلاء المسلمين « أنها إذا جاءت لا يؤمنون » كما ويشعر هؤلاء المشركين بما هم يجهلون ويتجاهلون ، مزيداً لايمان المؤمنين ، وحجة على الكافرين ، فهم - أكثرهم - يجهلون الحق وآيات الحق ودلالاتها على الحق ، ظلمات بعضها فوق بعض .

وهنا « حشرنا . . » غير الداخلة في مقترحاتهم تضاف إليها مزيداً لما يقترحون ، لمزيد الإشعار أنهم لا يؤمنون ، فهي - إذاً - حجة بالغة تحلّق على ما يمكن إقتراحه من الآيات ، ولم يذكر من إقترحاتهم المستحيلة كإتيان الرب نفسه ، إذ هو خارج عن حيطة الإمكان ، فكيف بالإمكان أن يُحتج بواقع له على واقع اللاإيمان عنده ، وقد نزلت الآية بشأن مختلف إقترحاتهم المتخلفة ^(١) !

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٣: ١٤٩ قال ابن عباس : المستهزون بالقرآن كانوا خمسة : الوليد بن المغيرة المخزومي والعاص بن وائل السهمي والأسود بن عبد يغوث الزهري والأسود بن المطلب والحريث بن حنظلة ثم انهم اتوا الرسول (ص) في رهط من اهل مكة وقالوا له : ارنا الملائكة يشهدوا بانك رسول الله أو ابعت لنا بعض موتانا حتى نسألهم احق ما نقوله ام باطل ، أو اثنا بالله والملائكة قبيلاً اي كفيلاً على ما تدعيه فنزلت هذه الآية .

هنا مبررات لتقبل الإيمان ، من مبررة الفطرة والعقلية السليمة ، ومبررة الحجة السليمة البالغة ، ومن ثم إرادة الله تعالى لواقع الإيمان وهي الخطوة الأخيرة من خطوات الإيمان .

فآيات الله في كل حقولها هي حجج بالغة لا قاصرة في تدليلها ولا مقصرة ، ولا دور للإرادة الإلهية للإيمان إلا بعد الخطوتين الأوليين ، فحين تقصّر أو تقصّر الخطوة الأولى تجاهلاً عامداً عن الحق المرام ، فالخطوة الثانية غير مؤثرة ، ثم الخطوة الثالثة ليست لتؤثر أثرها إلا تسييراً على الإيمان أم توفيقاً يتغلب على داعي اللأيمان وهما متخلفان عن حكمة الابتلاء .

فسلطان المشيئة الربانية في تحقيق الإيمان ليس إلا على ضوء السعي إلى الإيمان ، أم ولأقل تقدير ترك العناد على الإيمان .

ف« لو نزلنا إليهم الملائكة » في أي نازل ، من وحي إليهم رسالياً ، أم كلام معهم رسولياً أن محمداً (ص) رسول من الله ، وكلما هم يتطلبون من تنزيل الملائكة .

« و » لو « كلمهم الموتى » بحق الحق في هذه الرسالة بكل حقولها ، رجوعاً لهم إلى الحياة الدنيا ، أم وهم أموات غير أحياء .

أم « وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً » تجنيذاً لكافة الكائنات لتلك الشهادة الرسالية ، كوناً وكياناً وحالاً وقالاً وأفعالاً وعلى أية حال ! « ما كانوا ليؤمنوا » إذ لا تنقصهم الحجة على الحق ، فإنما تنقصهم الفطرة المحجوبة بما حجبوها ، والعقلية المكسوفة إنارتها بطوع الهوى ، والمصلحيات الشهوانية الحيوانية التي ييغونها .

« وحشرنا كل شيء عليهم قبلاً » تعني جمع كل شيء عليهم في تلك الشهادة « قبلاً » مقابلة لهم ، فإنها جمع « قابل » مقابلة لحواسهم عياناً ، أو

جمع « قبيل » تعني جماعات تلو بعض ، أم تعنيهما حيث تحشد كل شيء قبيلاً قبيلاً تقابلهم عياناً كما يشتهون ، فإنهم لا يؤمنون « إلا أن يشاء الله » أن يؤمنوا مشيئة هارفة خارقة - وعوداً به منها - حيث المشيئة الحكيمة للإيمان ليست إلا في حقل الإنعطاف إلى الإيمان ممن يسعى له أم لا يسعى للإعراض عن الإيمان .

أجل وهؤلاء الحماقى الأنكاد هم الشياطين المعاندون للنبيين ، الملقون في أمنياتهم الرسالية :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (١١٢):

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم . ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتهم عذاب يوم عقيم » (٥٥: ٢٢) (١).

« وكذلك » الذي جعلنا لك عدواً « جعلنا . . . » وذلك جعل تكويني أنه لم يمنعهم تسييراً أن يعادوا النبيين ، حيث الدار دار الاختيار .

هنا « جعلنا » مجردة عن البعث والتحريض ، مع توفيق من الله تعالى رفيق للنبيين حيث لا يضلون بإضلال الشياطين .

(١) راجع آية الحج تجد على ضوءها تفصيل البحث حول إلقاء الشياطين .

وهناك « أرسلنا وقبضنا » على الكافرين سلباً لأي توفيق لهم إذ لا يستحقون ، ولأنهم قرءاءهم في شيطاناتهم : « وقبضنا لهم قرءاء فزينا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم .. » (٢٥ : ٤١) « ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً » (٨٣ : ١٩) .

فمختلف الجعل هناك والتقيض والإرسال هنا ، يجعل مختلف الدور والظرف بين النبين والكافرين .

فلا دور لشياطين الإنس والجن إلا تجاوب الوحي بزخرف القول غروراً في الفرية على النبين ، وذلك من إلقاءهم في أمنيات النبين « فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته .. » (١) .

وذلك الوحي الباطل الحامل لزخرف القول غروراً هو من بعضهم الرؤساء إلى البعض المرئوسين قولاً يزخرفونه بمظاهر الحق المرام ، غروراً لهؤلاء الأتباع حتى يتم أبعاد العداء في تلك الإيحاء الشورى الشيطاني ، ويظم في فاعليته إلقاء في أمنيات النبين « فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » .

والوحي - كأصل - هو إشارة في رمز ، لخير كما لله وأهله إلى أهله ، أم لشر كما لشياطين الإنس والجن حيث يرمزون الشر إلى بعضهم البعض تشاوراً وتعلماً وتعلماً ، ولكي يضلوا سائر الإنس والجن .

فـ « كذلك » من قلب القلوب والأبصار لهؤلاء المكذبين الأنكاد ،

(١) نور الثقلين ١ : ٧٥٨ عن تفسير القمي في الآية حدثني أبي عن الحسين بن سعيد عن علي بن أبي حمزة عن بعض رجاله عن أبي عبد الله (ع) قال : ما بعث الله نبياً إلا وفي أمته شيطانان يؤذيانه ويضلان الناس بعده فأما صاحبنا نوح فقنطيقوس وحزام وأما صاحبنا إبراهيم فمكثل وزرام وأما صاحبنا موسى فالسامري ومرعقيا وأما صاحبنا عيسى فبولس ومرتيون وأما صاحبنا محمد (ص) فحبت وزريق .

وعدم إرادة الإيمان لهم ، وجعلهم مخيرين بين إيمان وكفر « جعلنا لكل نبي عدواً . . » .

فذلك لا يعني جعل العداوة ، بل هو جعل العدو إبتلاء في دار الإبتلاء ، « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » (٨: ٤٢) .

وأعدى العدا من هؤلاء الأعداء هو الإلقاء الإفتراء في أمنيات الرسالات والنبوات كما في آية الحج ، فلا يؤثر في خواطر الرسل أي تأثير ، فإنما يتلى بها سائر المكلفين « ولو شاء ربك ما فعلوه » مشيئة مسيرة مصيرة لهم بعيدين عن كل عدااتهم وإلقاتهم ، فلا تخفهم على نفسك رسولياً ولا رسالياً « فذرهم وما يفترون » حيث لا يصغى إليه المؤمنون .

ولا تعني « لو شاء ربك ما فعلوه » أن المعاصي بأمر الله ، ولكن بقضاء الله وبقدره وبمشيئته وعلمه ثم يعاقب عليها ^(١) وذلك المربع لا يعني مشيئة تشريعية ، أم تكوينية مسيرة ، فإنما هي مسيرة مع العصاة فيما يعصون ، قضاء بما قضوا وقدرأ بما قدروا ومشيئة بما شاءوا وعلمأ بما علموا وما كانوا يعملون .

ذلك ، فكما أنهم لا يؤمنون مع تواتر الآيات البينات إذ قلب الله أفئدتهم ، كذلك « لو شاء الله ما فعلوه » مشيئة ربانية تحلق على كل شيء ، حكيمة عادلة رحيمة فاضلة .

فحين لا يستطيعون أن يؤمنوا أو يضلوا إلا بإذن ربك « فذرهم وما يفترون » فإن ربك لبالمرصاد ، فإن « الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

(١) مور الثقلين ١: ٧٥٩ عن مجمع البيان روي عن أبي جعفر عليهما السلام انه قال : ان الشياطين يلقى بعضهم بعضاً فيلقى اليه ما يفري به الخلق حتى يتعلم بعضهم من بعض .

فلقد اقتضت الحكمة الإبتلائية التربوية الربانية في دار البلاء والإبتلاء أن يترك شياطين الإنس والجن أن يُشيطنوا في القدر الذي تركه لهم من القدرة والإختيار ، وأن يدعهم يؤذون النبين والصالحين ، إبتلاءً لأولياءه وبلاءً لأعدائه «ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة» .

وليرى أهل الحق أيشتون عليه وهم يرون الباطل يتنفش ويتنفج مستطيلاً ، أفيخلصون من حظ أنفسهم في أنفسهم ويبيعونها بيعة واحدة وصفقة فاردة لله ؟ ، على الضراء والسراء سواء ، وفي المنشط والمكروه سواء ؟ .

ذلك ، وليس لهم مع كل ذلك سيطرة القضاء على قضاء الله وهيمنة القدر على قدر الله فـ «لو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون» .

وليس هذا تجميداً للطاقت الإيمانية أمام الشياطين يفعلون ما يشاءون ، فإنما هو طمأنة لأهل الإيمان أنهم لا يُغلبون بإيمانهم حين يحققون شرائطه ، ومنها الدعوة الصارمة المتواصلة ، والتصبر على الأذى ، وتحمل اللظى في هذه السبيل ، « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

و «ربك» في «لو شاء ربك» تلميحة بتلك التربية الكاملة الكافلة لهذه الرسالة السامية ، فلا تذروها الرياح ولا تصيها الرماح حيث لا يضعها هدراً هدراً .

﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَوْهُ وَليَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴾ (١١٣) :

« ولتصغى . . » غاية طبيعية أنوماثيكية للذين لا يؤمنون بالآخرة ، ثالوث ملعون سالوس يشكّل كيانههم أمام إمامهم: «شياطين الإنس

والجن» (١)، والواو تعطف على محذوف معروف كـ«ليختبر عباده وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك ولتصغى» فصغى أفشدتهم لما يفترون على الرسالات هو من نتائج تقليبها عن صغى الحق، فللقلوب أسمع كما للأذان وأين أسمع من أسمع، كما لها أبصار كأبصار فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» (٢٢: ٤٦) «وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق حجب النور فتصل إلى معدن العظمه» .

وقد تعني «لتصغى» غاية الصغى لـ«يوحى بعضهم ..» كما هي غاية الابتلاء لـ«جعلنا» وأين غاية من غاية، فإنها في ربانيتها خيرة إبتلاء، وفي شيطنتها شريرة بلاء!

وهنا المعطوف عليه كـ«ليضلوا بعضهم بعضاً بزخرف القول ولتصغى إليه زخرف القول» - «لتصغى ..» صغياً للقلوب/المقلوبة والأفئدة المتفتدة بنيران الضلالة والمتاهة وبالنتيجة «وليرضوه»: «ما يفترون» ومن ثم «وليقتربوا» هؤلاء الصاغون الراضون «ما هم» أولئك الشياطين «مقترفون» من تخلفات فاتكة هاتكة لحرمان الله أصلياً وفرعياً .

فـ«تعوذ بالله من شر شياطين الجن والإنس» (٢) تعوذاً حقيقياً لئلا تكون ممن قال الله: «ولتصغى ...» - «ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين

(١) نور الثقلين ١: ٧٥٩ في كتاب الخصال مرفوع الى علي (ع) قال: الأعمال ثلاثة احوال وفرائض وفضائل ومعاصي واما المعاصي فليست بأمر الله ولكن ...

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٩ - اخرج احمد وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي امامة قال: قال رسول الله (ص) يا أيها ذر تعوذ بالله من شر شياطين الجن والأنس قال يا نبي الله وهل للإنس شياطين؟ قال: نعم شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً .

في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . . « بل تكون ممن قال : « وليعلم الذين أوتوا العلم انه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » (٢٢: ٥٤) وصنفي الباطل وسقي الحق بصغيه للحق هما غايتان في خضم الإبتلاء لذلك جعل الحكيم .

فليست وسواس شياطين الإنس والجن بالتى تسير القلوب إلى شيطاناتهم ، إلا القلوب المقلوبة من ذي قبل ، وأما القلوب الصافية الضافية بمعرفة الله فتزداد إيماناً وإيقاناً : « ونزل القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » .

شياطين الإنس هنا يتقدمون ذكراً على شياطين الجن حيث البعض منهم أشطن من أولاء « وجوههم وجوه الأدميين وقلوبهم قلوب الشياطين » (١) نفاقاً عارماً في شيطاناتهم ، وقد يروى عن الرسول (ص) « هم شر من شياطين الجن » (٢) .

ذلك ، وإنهم بصورة واسعة على دركاتهم « من لم يجعله الله من أهل صفة الحق فأولئك هم شياطين الإنس والجن » (٣) .

وترى شياطين الجن هم - فقط - من ذرية الشيطان الرجيم ؟ أم ومن

(١) نور الثقلين ١: ٧٥٩ في كتاب الخصال عن أبي عبد الله (ع) قال : الإنس على ثلاثة اجزاء فجزة تحت ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله وجزة عليهم الحساب والعذاب وجزة وجوههم وجوه الأدميين وقلوبهم قلوب الشياطين .

(٢) تفسير الفخر الرازي ١٣: ١٥٤ روي عن النبي (ص) انه قال لأبي ذر : هل تمودت بالله من شر شياطين الجن والأنس؟ قال قلت : وهل للإنس من شياطين ؟ قال : نعم هم

(٣) نور الثقلين ١: ٧٥٩ الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله (ع) حديث طويل يقول فيه (ع) « فان من لم يجعله الله . . » .

سورة الأنعام / آية ١١٣ ٢٣١

ذرية سائر الجن ؟ ، « اتتخذونه وذريته أولياء وهم لكم عدو » تؤيد الأول ، فسائر الجن ليسوا من الشياطين مهما فسقوا ، فهم طرائق قَدَد ، لا يولد شيطان منهم إلا من شيطان : « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً » (١١: ٧٢) .

ذلك مهما كان الشيطان الأول هو من الجن : « ... إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً » (٥٠ : ١٨) .

فرغم أن في الإنس قد يولد شيطان من مؤمن أو مؤمن من شيطان ، فليس في الجن هكذا توالد ، فإنما يولد شياطين الجن من أنفسهم ، والوالد الأول فيهم هو إبليس الشيطان الأول رأس زوايا الشيطنة .

ذلك ، وقد تعني « شياطين الإنس والجن » - إلى ما عنت - الشياطين المبتختصين بإضلال الإنس ، والآخرين المبتختصين بإضلال الجن ، من إضافة الصفة إلى مفعوله ، إذا فشياطين الجن فريقان مقتسمان بين الإنس والجن ليضلّوهم ، فكما أن شياطين الإنس يضلّون الإنس والجن ، كذلك شياطين الجن يضلّون الجن والإنس ، شيطانات مدروسة موحاة ومستوحاة فيما بينهم ، تحلّق على الإنس والجن أصلية وفرعية .

فالوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ، ذلك الوسواس أعم من الجنة والناس دون اختصاص بجنة أو ناس ، وسوسة من الشياطين بمختلف صنوفهم كما إلى صدور الجنة ، كذلك إلى صدور الناس .

فهنا « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » توحى أنهم يوسوس بعضهم إلى بعض تضليلاً له أكثر مما هو ، ثم تشجيعاً لتضليل الآخرين من الإنس والجن .

ويا ليت أهل الحق اتخذوا ذلك المسلك الصامد لبث الهدى أن يوحى بعضهم إلى بعض مسالك الهدى ليزيدوهم هدىً على هدىً ، وليصلحوا لذلك الإيحاء إلى الآخرين ، تعاوناً على البر والتقوى كما يتعاون الشياطين على الإثم والعدوان ليتحقق الكفاح الصارم في الحق أمام الكفاح العام في الباطل ، دفاعاً صالحاً عن حوزة الحق : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » (٢: ٢٥١).

فالموازنة بين دعاية الحق والباطل تؤمن أهل الحق عوناً ، وتغلب الدعايات الباطلة تشكل عليهم خطراً جاسماً حاسماً ، ثم تغلب الدعايات الحققة تحسم مادة الباطل ، وهكذا يجب أن يكون أهل الحق صامدين غير خامدين أو هامدين ، « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . . » (٨: ٣٩).

فكما أن أمر شياطين الإنس والجن شورى بينهم في تلك المواحة المضللة المدللة في زخرف القول الغرور ، كذلك فليكن أمر المؤمنين شورى بينهم في المواحات المهدية الهادية بحق القول ، بل وأوسع نطاقاً وزفناً من أولئك الشياطين تحقيقاً لدولة الحق وتمحيقاً لدولة الباطل .

ذلك والشيطان هو المتمرد عن الحق المتمحض في الباطل أياً كان ، وقد يوصف به الحيوان المتمرد والجرثومة الخطرة وكل متمرد عن وجه الصواب .

ونكران وجود شياطين الجن كأصل الجن سناداً إلى عدم رؤيتهم ولمسهم كسائر المرئي ، نكران جاهل ورمي في الظلام ، فإن حوزة الإحساس الخاص لنا ، هي ما يمكن أن يحس بحواسنا ، دون المواد الرقيقة كالروح والجن والملائكة ، وما أشبه .

فأولئك الناكرون المترسون بالعلوم التجريبية على مَ يرتكنون ، أعلى علمهم المحدد بالمحسوس من الكون ؟ فذلك جهل ! فإنه لا يحيط بعالم

المحسوس لهم فضلاً عن غير المحسوس بالحواس البشرية ، فمن التحكّم والتبجّح أن ينفي أحد بإسم « العلم » كائنات غير محسوسة به ، رغم قاطع البرهان على كونها .

فكما أن من شياطين الإنس غير محسوس كالأنفس الأمارة بالسوء ، الموسوسة في الصدور حيث نلمسها نفسياً مهما لا نلمسها حسيّاً ، كذلك شياطين الجن غير المحسوسين بواقعهم ، ف« إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » (٢٧:٧) بهذه الأبصار البشرية .

فكما أن وحي الفطرة والعقلية ووحى العلم والشرعة الربانية أثبت وجود الله وهو غير محسوس ولا مدرك بأي إدراك ، كذلك وحي الشرعة أثبت لنا وجود الملائكة والجن وسائر الغيب ، ومن مميزات الإنسان ومن أشبهه الإيمان بالغيب قضية براهينه الساطعة .

ذلك وإن معركة الكفاح بين المؤمنين والشياطين معركة مصيرية ، تتجمع فيها من ناحية تخطيطات الشيطانات لإمضاء خطة مقررّة مغرّرة هي معاداة الحق الممثل في النبيين وسائر عباد الله الصالحين ، يمد بعضهم بعضاً بكل وسائل الخداع والإعلام ، إمتداداً للضلالة الموحاة بين بعضهم إلى بعض ، وإلى سائر عباد الله لينضموا إلى حزبهم فيخلق الشر على الكون كله .

ولكنه كيد غير طليق فإن ربك لهم بالمرصاد ، وإن حملة الرسائل إلهية برصيد الرسالة بكل المساعي الرسالية - لهم بالرمصاد .

وحين يتقاعد المؤمنون ويتقاعسون فهم الذين يخسرون أنفسهم ويخسرون ، وأما الله بشرعته وآياته فلا يخسر ، ولكن الله لم يشرع شرعته لنفسه أن يتشرع بها ويحققها في نفسه ، وإنما « شرع لكم من الدين » ولها حفيظان إثنان : حفيظ رباني يحفظها في قلوب المتشرعين ، وحفيظ منا

نحافظ عليها بمساعينا وكفاحنا الصارم في كل ميادين النضال بين الحق والباطل .

فمشهد تجمُّع الشياطين بإيحاتهم الشيطانية لتحقيق خطتهم المقررة المرسومة بمواصلة الإيحات والدعايات بزخرف القول غروراً ، جدير بأن يسترعي وعي أهل الحق ليعرفوا طبيعة هذه الخطة اللعينة وأبعادها ، وليكرسوا كل طاقاتهم وإمكانياتهم للقضاء عليها كما يستطيعون .

كما ومشهد إحاطة المشيئة الربانية بخطة الشياطين ، جدير بأن يملأ قلوب أهل الحق الثقة بالله ، تعليقاً لقلوبهم وأبصارهم بتلك القدرة القاهرة الباهرة ، وتحليقاً لإمكانياتهم على تحقيق الحق وإبطال الباطل فـ« إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » و« أن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، فلذلك :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُعَلِّمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (١١٤) :

« أفـ » إذ يترك الله حكماً يحكم بيني وبينكم ويحكم لصالح رسالتي عليكم - إذا - « غير الله أبتغي حكماً » حيث ليس ليحكم ، أم هو يحكم بغير صالح لي ؟ ، « وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً » دون سواء حتى أبتغي للحفاظ عليه وعلي حكماً سواء ، وقد فصل الكتاب بما لا مزيد عليه ولا منقصة فيه ولا شبهة تعتريه ، كتاباً مفصلاً بنفسه ، مفسراً في نفسه ، مبيناً بيناته ، قمة في الفصاحة والبلاغة في آياته ، فيه تبيان كل شيء وتفصيله : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (١: ١١) .

فذلك الكتاب المفصل من لدن حكيم خبير يفصل الآيات ، تفصيلاً

للمحق عن الباطل، دون أية عماية ولا غواية : « قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » (٩٧:٦) « .. لقوم يفقهون » (٩٨) « .. لقوم يذكرون » (١٢٦) « لقوم يتفكرون » (٢٤:١٠) « لقوم يعقلون » (٢٨:٣٠) و « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » (٢:١٣) وعلى الجملة « وكل شيء فصلناه تفصيلاً » (١٢:١٧) لكل من ألقى السمع وهو شهيد .

أترى حين يكون القرآن مفصلاً في نفسه وبنفسه ، ونوراً ومنيراً وتبياناً لكل شيء فما هو الحاجة إلى مفسر سواء يفصله تفسيراً ، اللهم إلا بياناً لتأويله وتبياناً ! .

ذلك ، ولأن « حَكَمًا » هو الحاكم الحكيم الفضل العليم فلا يقضي إلا بالحق المطلق ، وليس هو إلا الله ، أو المرسل من عند الله فإنه حَكَم بحكم الله .

ومن حَكَمِيته تعالى إنزال الكتاب مفصلاً ، تبييناً لمعانيه كأفضله دون أي تخليط وتداخل ، وهو أفضل شهيد على حَكَمِيته تعالى الوحيدة غير الوهيدة .

لذلك « والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق » فإنهم عارفون طبيعة وحي الكتاب ولغته، والقرآن هو القمة المرموقة منه ، إضافة إلى بشارات الكتاب المحلقة على قرآن محمد ومحمد القرآن « فلا تكونن من الممترين » أيها الناظر إلى القرآن نبياً وسواء ، فالنهي بالنسبة للنبي تأكيد للبقاء على إيقانه القمة ، من باب التهيج والإلهاب كـ « لا تكونن من المشركين » أو لا تكونن من الممترين فـ « الذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق » أو من باب (إياك اعني واسمعي يا جاره) فما امترى رسول الهدى (ص) في رسالته لحظة ما ، وقد روي أنه (ص) عندما نزل عليه « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من

الممترين » قال (ص): لا أشك ولا أسأل ، تدليلاً على أنه لا واقع لشكه وامترأه ، فلإنما يعني من هذه السلبية المؤكدة غيره شخصياً .

ثم ولغيره تثبيت لدلالة « الكتاب » والقرآن نفسه على وحي القرآن ، وقد يتأيد به « قل أغير الله . . » فهنا أيضاً قل « فلا تكونن » أيها الناظر إلى القرآن « من الممترين » في هذه الرسالة السامية ، وتأکید النهي هو بمناسبة أكيد الآية القاطعة لهذه الرسالة قرآناً ورسولاً .

إذا فـ « الذين آتيناهم . . » تحول في الخطاب إلى صاحب الخطاب العتاب .

واستفهام الإنكار هذا « أفغير الله . . » موجه إلى هؤلاء الذين يتطلبون آية على هذه الرسالة السامية ، ويكأن القرآن ليس آية ، وهو الآية الأم بين كافة آيات الرسالات ، فتركه كآية رسالية شاملة ترك لآيات الله كلها ، أفتريدون أن ابتغي حكماً لرسالتي غير الله ، وهو الحكم عليها بالقرآن ؟ ! وهو أكبر شهيد بيني وبينكم فأنى تؤفكون « إفكاً آلهة دون الله تريدون » ! .

ذلك ، و « قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » هي كما هنا استدلال بشاهدي رسالته : القرآن وسائر الكتاب .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١١٥):

إن « كلمت ربك » الدالة على رسالتك العظيمة الغالية ، الشاملة لكل ما يحتاجه المكلفون منذ بزوغها إلى يوم الدين ، إنها تمت بهذا القرآن العظيم ، « تمت . . صدقاً » و « تمت . . عدلاً » فكل قضايا الصدق والعدل الرباني مدلوله لكلمات ربك : القرآن ونبئه « لا مبدل لكلماته » السالفة على أنبياءه رغم أنها كانت محددة لزمن خاص فضلاً عن هذه الكلمة التامة الخالدة .

وهنا « كلمة ربك » بإفراد تعني محمداً والقرآن فإنهما كلمة واحدة تحملان هذه الشرعة الأخيرة شرعة وداعية .

صحيح أن كلمات الرب رسولياً ورسالياً على مدار الزمن تامة صدقاً وعدلاً ، ولكنها تامة صالحة لردح من الزمن لكل رسول برسالته ، وليست تامة طليقة ، فـ « تمت » هنا تعني التامة الطليقة التي ليس فوقها تمام ، فليس معها أو بعدها كلمة رسولية أو رسالية إلى يوم الدين ، إذ لا مبدل لهذه الكلمة إلهياً ولا خلقياً ، مهما كان لسائر الكلمات الربانية مبدل إلهي ، فـ « لا مبدل لكلماته » تستغرق أي تبديل للكلمة الأخيرة ، وتختص سلب التبديل الحق في سائر كلماته بغير الإلهية حيث تبدلت إلهياً ، كما وتبدلت بشرياً بغير حق ، ولكن هذه الكلمة لا مبدل لها إلهياً ، ولا بشرياً لا حقاً ولا باطلاً إذ لا تحريف فيها ولا تجديف .

اجل فلا مبدل لها ربانياً فضلاً عن مبدلٍ سواء « وهو السميع » مقالات الممتزين « العليم » بحالاتهم ، سميعاً وعلمياً بكل مجالاتهم وبما يقوله أهل الحق ويعلمون ويعملون .

فهنا « كلمة » - جنساً - تعم كافة الدالات والدلالات الرسولية والرسالية أمأهيه ، الدالة على كامل الربوبية تكوينية وتشريعية في هذه الرسالة الأخيرة و « ربك » - دون « رب العالمين » وما أشبه - تلمح إلى بالغ الربوبية ، المتمثلة في التربية المحمدية رسولياً ورسالياً فإنها القمة العالية منها ، فـ « تمت كلمة ربك » إذا ختم للتربيات الربانية في كل حلقاتها وحقوقها ، فلا تمام بعدها ولا تبديل ، مما يبرهن على خاتمية خاتم النبيين رسولياً وخاتمية القرآن رسالياً ، وكل ذلك « صدقاً وعدلاً » فليس بعد تمام كلمت ربك صدقاً وعدلاً إلا كلمة الشيطان كذباً وظلماً ، وهي كافة المختلقات الزور والغرور من كتابات وسواها بعد القرآن مما يدعى كونه وحياً .

أجل « وتمت كلمة ربك » في كل مصاديقها الصادقة لفظية أو عينية ،
 فحين يكون المسيح كلمة من الله كما هو رسوله جمعاً بين كلمتي الرسالة
 والآية الرسالية : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله
 وكلمته » (٤ : ١٧١) فمحمد (ص) بقرآنه العظيم أخرى تماماً وكماًلاً وختماً
 للكلمات الرسولية والرسالية ، فلا آية بعد القرآن كما لا رسالة بعد رسول
 القرآن .

وحين « ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن » (٢ : ١٢٤) فابتلاء
 محمد (ص) بكلمات أنبل وأعلى حيث تمت بها الكلمات .

إذاً فبما تتمم الكلمات في نفسه وفي كتابه ، في ابتلااته وكل كلماته
 « واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه
 ملتحداً » (١٨ : ٢٧) ، وذلك ، لأنها « كلمت ربك » فكما أنك « أول
 العابدين » والعارفين لربك بتريبتك القمة ، كذلك « كلمت ربك » لك
 ولكل العالمين إلى يوم الدين .

فذلك التمام تمام في كل حقوله ، زمنياً وكماًلاً وحالاً ومآلاً وعلى أية
 حال ، والكلمة العليا في هذه الرسالة هي « لا إله إلا الله » حيث تحلق
 على كل جناباتها لأتم درجاتها ومنها كسر الأصنام بكل صنوفها وصفوفها ،
 فقد « دخل النبي (ص) المسجد الحرام يوم فتح مكة ومعه مخصرة ولكل
 قوم منهم صنم يعبدونه فجعل يأتيها صنماً صنماً ويطن في صدر الصنم
 بعضاً ثم يعقره كلما صرع صنم أتبعه الناس ضرباً بالفؤوس حتى يكسرونه
 ويطرحونه خارجاً من المسجد والنبي (ص) يقول : وتمت كلمت ربك
 صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم »^(١) .

(١) الدر المنثور ٣ : ٤٠ - اخرج ابن مردويه عن أبي اليمان جابر بن عبد الله قال دخل
 النبي (ص) ...

وكان يعوذ نفسه والحسين عليهما السلام وغيرهما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة .. (١) .

فلقد تمت كلمت التوحيد بكلمته على شروطها ، وكلمة الرسالة بمحمد (ص) بنفسه وبكلمة القرآن ، وكلمة الخلافة المعصومة عنه (ص) (٣) وهكذا كل كلمة من الله تعالى .

(١) فمن تعويذه الحسين ما في الدر المنثور ٣ : ٤٠ من ابن عباس قال كان النبي (ص) يعوذ الحسن والحسين عليهما السلام أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ثم يقول كان ابراهيم يعوذ بها اسماعيل واسحاق . ومن تعويذه نفسه ما اخرج النسائي والبيهقي عن ابن مسعود قال لما كان ليلة الجن اقبل عفريت من الجن في يده شعلة من نار فجعل النبي (ص) يقرأ القرآن فلا يزداد إلا قرباً فقال له جبرائيل ألا اعلمك كلمات تقولهن ينكب منها لفيه وتطفأ شعلته قل اعوذ بوجه الله الكريم وكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر طوارق الليل ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن فقال لها فانكب لفيه وطفئت شعلته ، واخرج ابو داود والنسائي وابن ابي الدنيا والبيهقي عن علي (ع) عن رسول الله (ص) كان يقول عند مضجعه : اللهم إني اعوذ بوجهك الكريم وكلماتك التامة من شر ما أنت آخذ بناصيته أنت تكشف المغرم والمائم اللهم لا يهزم جندك ولا يخلف وعذك ولا ينفع ذا الجد منك سبحانه وبحمده ..

ومن تعويذه (ص) غيره ما عن خولة بنت حكيم سمعت رسول الله (ص) يقول : من نزل منزلاً فقال : اعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك ، وعن ابي هريرة قال جاء رجل الى رسول الله (ص) فقال يا رسول الله (ص) ما لقيت من عقرب لدغتنني البارحة ؟ قال : أما إنك لو قلت حين امسيت اعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك .

(٢) نور الثقلين ١ : ٧٦٠ في احاديث عدة ان هذه الآية مكتوبة على جبين والعضد الايمن =

لقد قال الله وفعل وكوّن كل كلماته التي كان من الصالح أن يقولها ويفعلها ويكوّنهما للعالمين فلم تبق له كلمة إلا وقد قالها في هذه الرسالة السامية دون إبقاء .

صحيح أن آيات الله ورسالاته كلها من كلمات الله ، وهي كلمة واحدة تدل على ربوبية واحدة برسالة واحدة ، ولكنها قبل الكلمة الأخيرة القرآنية المحمدية كانت ترى متكاملة في فترات الزمنية ، رسالة بعد رسالة وشرعة بعد شرعة ، ثم تمت كوناً وكياناً وزماناً بهذه الكلمة الأخيرة « صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته » بتبديل النسخ أو التكميل أم أي تبديل بتحريف وتجديف ، حيث القرآن هو الوحيد بين كتابات الوحي في ميزات ومنها عدم تحريفه كما ضمن الله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (١٥ : ٩) .

وهنا « لا مبدل » نهى إلى نفي ، إخباراً بعدم تبديل كلماته ونهياً عنه ، تبديلاً عن جهات أشراعه بكل تأويل عليل ، أو تبديلاً لمواضعه أن تؤلف نسخة غير ما بأيدينا منذ تأليفه من الرسول (ص) بوحي من الله .

ذلك ، ولأنها تمت جملة وتفصيلاً وحصولاً وتحصيلاً في ردح الوحي بكرة وأصيلاً دون أن يتدخل فيها غير الله ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

وقد تعني - فيما عنت - « صدقاً » كلمة الإخبار ، و « عدلاً » كلمة الإنشاء ، ولا تخلو كلمة القرآن ونبي القرآن عن إخبار أو إنشاء ، أو جمعاً بينهما فقد أنشأ القرآن إنشاءً كما أنشأ إنشاءً ، وأخبر إخباراً كما أخبر - فيما أخبر ب كله - إخباراً، أنه الآية الوحيدة الخالدة غير الوهيدة على مدار الزمن إلى يوم الدين : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم

سورة الأنعام / آية ١١٦ ٢٤١

ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴿٥٢:٢٩﴾ .

﴿ وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (١١٦):

هذه قضاء من القضاء على « أكثر من في الأرض » أنهم على شتات أهواءهم ضالون ومضلون ، فإنهم « إن يتبعون إلا الظن » وبالنتيجة « إن هم إلا يخرصون » تخميناً دون علم ويقين ، فهم - إذاً - يكذبون ، مهما اتفق منهم صدق فيما يظنون ، فإن اتباع الظن كذب في الإتياع مهما اتفق صدقه ، كما اتباع العلم صدق فيه مهما أخطأ .

فالفتيا الصادرة عن إتياع الظن لا تتبع مهما كانت شهيرة أو مجمعة عليها ، ثم الصادرة عن إتياع العلم تتبع مهما كانت وحيدة شاذة عن الجمع فإنها غير وهيدة .

وكيف يتبع رسول الهدى الحاصل على علم الوحي أكثر من في الأرض فيما يظنون ؟ وسبيل الله هي سبيل العلم أو إثارة من علم ! سبيل عاصمة معصومة إلا لغير المعصوم ، ولكنه تقل أخطاءه حين يستند إلى الكتاب المعصوم والنبي المعصوم .

ذلك فقد « ذم الله الكثرة »^(١) اللهم إلا كثرة متبعة للعلم ، فليست الكثرة بما هي كثرة أصلاً يتبع ، إنما هو الحق في قلة أو كثرة .

وترى كيف يحذر الرسول (ص) عن أن يطيع أكثر من في الأرض وهو

(١) نور الثقلين ١: ٧٦١ في أصول الكافي بعض اصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال: قال لي ابو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام يا هشام ثم ذكر الله الكثرة فقال : وان تطع اكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله .

كَيَانُهُ بِقَالِهِ وَحَالِهِ « إِنْ أَتَبَعَ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ » ؟ عُلَّه قَطْعاً لِأَمَالِ الْأَكْثَرِيَّةِ الضَّالَّةِ إِعْلَاماً وَاعْلَاناً صَارِخاً فِي هَذِهِ الْإِذَاعَةِ الْقُرْآنِيَّةِ ، أَمْ إِنَّهُ مِنْ بَابِ « إِيَّاكَ أَعْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَّة » أَوْ أَنَّ الْخُطَابَ يَعْمُ كَافَّةَ الْمَكْلُفِينَ دُونَ اخْتِصَاصِ بِالرَّسُولِ (ص) كَلّاً عَلَى قَدْرِهِ وَقَدْرِهِ .

وَلَا نِ الْنَهْيَ مَعْتَلٌّ بِهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ، فَلَيْسَ التَّنْذِيرُ بِالْأَكْثَرِ إِلَّا لِأَنَّ الْأَكْثَرَ مِنَ الْأَكْثَرِ عَلِيلُونَ بِهَذِهِ الْعِلَّةِ ، فَلَوْ أَنَّ الْأَكْثَرِيَّةَ تَتَّبَعُ الْعِلْمَ فَلَا ضَيْرَ فِي اتِّبَاعِهَا لِمَنْ لَيْسَ عَلَى عِلْمٍ وَلَيْسَ لِيَحْصَلَ عَلَيْهِ بِجَهْوِهِ ، فَاتِّبَاعُ الْعِلْمِ ضَابِطَةٌ عَامَةٌ فِي حَقْلِي الْإِجْتِهَادِ وَالتَّقْلِيدِ ، كَمَا أَنَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ هَابِطَةٌ عَامَةٌ فِي الْحَقْلَيْنِ جَمِيعاً ، اللَّهُمَّ إِلَّا ظَنّاً يُؤْمَرُ بِاتِّبَاعِهِ بِدَلِيلٍ قَاطِعٍ كَالْأَصُولِ الْأَحْكَامِيَّةِ الْمَوْضُوعَةِ فِي مَوَارِدِ الشَّكِّ .

وَالْآيَاتُ فِي حُرْمَةِ اتِّبَاعِ الظَّنِّ - كَأَصْلٍ - وَحُرْمَةِ قَفْوِ غَيْرِ الْعِلْمِ أَوْ إِثَارَةِ مِنْ عِلْمٍ ، عَدِيدَةٌ فِي عِدَّةِ مَجَالَاتٍ ، وَاتِّبَاعُ الظَّنِّ - حَتَّى فِيمَا يُضْطَرُّ إِلَيْهِ - مُحْظُورٌ إِلَّا أَنْ يَتَّبَعَ فِيهِ دَلِيلُ الْعِلْمِ مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ قِطْعِيَّةٍ كَأَدْلَةٍ الْإِسْتِصْحَابِ وَالْإِسْتِغْثَالِ وَالْبَرَاءَةِ وَالظَّاهِرِ وَقَاعِدَةُ الْفِرَاقِ وَالتَّجَاوُزِ ، فَلَيْسَ اتِّبَاعُ الظَّنِّ فِيهَا إِلَّا بِاتِّبَاعِ الْعِلْمِ فِيمَا لَا سَبِيلَ عِلْمِيّاً إِلَيْهِ ، فَهِيَ بَيْنَ تَهْدِيرٍ هَذِيرٍ أَمْ تَقْرِيرٍ مُنِيرٍ .

ذَلِكَ وَلِأَنَّ امْتِثَالَ الْإِجْمَاعِ وَالشَّهْرَةِ وَالْقِيَاسِ وَالْإِسْتِحْسَانَ وَالْإِسْتِصْلَاحَ لَا دَلِيلَ عَلَى حُجِّيَّتِهَا فِي الظُّنُونِ الْحَاصِلَةِ مِنْهَا ، بَلْ وَالِدَلِيلِ قَائِمٍ عَلَى الْإِلْهَامِ حُجِّيَّةٍ فِيهَا ، فَالظُّنُونِ الْحَاصِلَةِ مِنْهَا مُرَدُّةٌ بَلْ وَالْقَطْعُ الَّذِي يَحْصُلُ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ عَقْلِيٍّ وَسِوَاهُ ، مَثَلُهُ كَمَثَلِ تِلْكَ الظُّنُونِ ، وَقِيلَةُ إِلَّا سَبِيلٌ إِلَى نَقْضِ الْقَطْعِ لِلْقَاطِعِ أَيّاً كَانَ ، عَلِيلَةٌ ، حَيْثُ الْقَاطِعُ لَيْسَ لِيَدْعِي الْحَيْطَةَ الْقَاطِعَةَ الْعِلْمِيَّةَ غَيْرَ الْمُتَخَلِّفَةِ عَنِ الْوَاقِعِ ، فَلِلشَّارِعِ نَصَبُ الْوَسَائِلِ كَمَا يَرَاهَا صَالِحَةً لِلْحَصُولِ عَلَى الْقَطْعِ ، وَقَدْ نَصَبَ الْكِتَابُ وَعَلَى ضَوْؤِهِ السُّنَّةُ

سورة الأنعام / آية ١١٧ - ١١٨ ٢٤٣

طريقين لا ثالث لهما للعلم بالحجة ، فسائر العلم ليست إلا في لُجّة ، سواء الحاصلة برؤيا أو في يقظة .

وقد سمي غير الحاصل من علم أو إثارة من علم ظناً لا يتبع ، ثم الظن الحاصل من أحدهما كما أمرنا يتبع ، وقد بحثنا عنها بطيّات الآيات الواردة فيها .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١١٧):

ولأنه هو أعلم بالمهتدين ، لذلك يأمر باتباع العلم اليقين وينهى عن إتباع الظن التخمين ، وهنا « من يضل » دون جأز قد يكون لنصبه دون خافض ، بقرينة « أعلم بالمهتدين » هنا و « أعلم بمن ضل عن سبيله » في النجم : « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً . فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » (٥٣ : ٣٠) .

و « أعلم » هنا-الطليقة عن المفضل عليه-كما يحتمل طليق العلم الخاص به تعالى ، أنه هو العالم لا سواه ، كذلك يحتمل العلم المفضل على من سواه ، فإن منهم من يعلم الضال عن اهتدى مهما بان البون بين العلمين .

ولأن طليق العلم دون خلط بجهل يختص بالله سبحانه ، فهو وحده صاحب الحق في وضع الميزان بين الضال والمهتدي « فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا

اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ :

هنا « فكلوا . . » أمر تجويز لما هو في موقف الحظر جاهلياً ، حيث
الجاهلية حرمت أكل ما ذكر اسم الله عليه في حين أحلت أكل الميتة وما
أهل لغير الله به ، محتجاً بأنه كيف لا نأكل ما قتله الله ونأكل ما قتله خلق
الله ، وليس ذكر اسم الله - فقط - مما يحل ما قتلناه ، كما وكانوا يفضلون
ذكر اسم غير الله على ما يقتلون كأنه يحلله دون ذكر اسم الله ؟ !

وهنا « إن كنتم بآياته مؤمنين » خطاب لمن آمن ولما يدخل الإيمان في
قلوبهم ، إذ كانوا ينحون منحى الجاهلية في حظر الأكل عما ذكر اسم الله
عليه .

ثم « فكلوا » تفريع على حظر الإتياع للأكثرية الغائلة القائلة بحظر
الأكل مما ذكر اسم الله عليه ، أن اتساع الحق يقتضي رفض ما فر أهل
الباطل مهما كانوا كثرة .

ثم « وما لكم » تنديد بكل هؤلاء الذين كانوا لا يأكلون مما ذكر اسم
الله عليه ، مسلمين أو أهل كتاب أو مشركين ، قضية التخيئة الجاهلية أن ما
قتله الله أولى بالأكل مما قتله الناس وذكر اسم الله عليه .

وهنا « ذكر اسم الله عليه » مجهولاً يُطلق حل ما ذكر اسم الله عليه
مهما كان الذاكر الذابح كتابياً ، كما ويُطلق حرمة ما لم يذكر اسم الله عليه
مهما كان الذابح مسلماً ، وقد احتج باقر العلوم (ع) بالآية في طليق الحل
والحرمة (١) .

(١) نور الثقلين ١: ٧٦١ في من لا يحضره الفقيه روى أبو بكر الحضرمي عن الورد بن
زيد قال : قلت لأبي جعفر عليهما السلام حدثني حديثاً وأمله عليّ حتى اكتبه قال اين =

« وقد فصل » إشارة إلى تفصيل قبل الأنعام وليس إلا في النحل النازلة قبلها ، ثم بعدهما تفصيل في المذنبيتين : البقرة والمائدة ، وهذه الأربع مشتركة في تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وتفصيل النحل من ذي قبل هو « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم . ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » (١١٦: ١١٦) .

وهنا « مالكم » تنديد عام هام يحلق على كل هؤلاء الذين لا يأكلون ما ذكر اسم الله عليه ومنهم المتحذّر عن ذبائح أهل الكتاب المذكور عليها

حفظتكم يا أهل الكوفة ؟ قلت : حتى لا يردم علي أحد ما تقول في مجوسي قال بسم الله وذبح ؟ فقال : بلى ، فقلت : مسلم ذبح ولم يسم ؟ فقال : لا تأكل ، ان الله تعالى يقول : فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . ويقول : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » أقول : قدمنا تفصيل البحث حول اشتراط كون الذابح مسلماً وعدمه على ضوء قوله تعالى : « الا ما ذكيتم » ومختلف الأحاديث الواردة فيه في المائدة فلا نعيد ، والحكم ما قدمنا من الحل بدليل هذه الآية « فكلوا . . » والسنة الظاهرة المتظافرة ومنها التالية :

- ١ - هنا أحاديث مطلقة في المنع عن ذبائح أهل الكتاب وهي ٢٦ حديثاً .
- ٢ - المطلقة في الجواز وهي ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ ب ٢٨ .
- ٣ - المفصلة بين ما ذكر اسم الله عليه فجائز وما لم يذكر فحرام وهي ٣٥ حديثاً .
- ٤ - الناهية عنه وان سمي وهي اثنان .

ففي ص ٣٤١ ب ٢٦ ح ١ و ٣ لا يؤمن على الذبيحة إلا أهل التوحيد وح ٣ - إلا أهلها وح ٤ و ٦ و ٧ و ١٠ وب ٣٧ ح ٣ - ٣ - ٤ - ٨ - ١١ : لا بأس اذا ذكروا اسم الله وح ١٤ - ١٥ - ١٧ : لا بأس إذا صمعوها و ١٨ - ٢٢ - ٢٣ - ٢٤ - ٢٧ - ٢٩ - ٣١ - ٣٢ - ٣٤ : لا بأس به إطلاقاً و ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤١ مطلق في الجواز و ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ و ٢٨ ب ح ٧ - إذا فالأقوى عدم اشتراط الاسلام في الذابح إلا لإحراز شروط الذبح .

اسم الله بسائر شروط التذكية ، أن حرمتها بكونها ذبيحة غير المسلم غير واردة في تفاصيل التحريم الذاتي في القرآن بحقل بهيمة الأنعام ، وكذلك السنة .

ولا تصلح « إلا ما ذكيتم » في المائدة بياناً لشريطة إسلام الذابح كما فصلناه عند تفسيرها ، فلا يدخل في الحصر فعل المخاطبين وإلا لكان ما ذكاه غيرك من المسلمين محرماً عليك ، فإنما الخطاب هنا للمسلمين حيث المخاطبون هنا هم المسلمون في هذه الأحكام ، وأنهم هم الذين يطبقون شروط الذبح الشرعية .

وهنا - بين شروط الذبح - ذكر اسم الله، يحتل الموقع الأعلى ، المخصوص بالذكر في الذكر الحكيم، ثم التوجيه إلى القبلة وفري الأوداج الأربعة يستفادان من السنة القطيعة ، وما شرط الإسلام إلا للشرط الأول كأصل والآخرين فرعاً له .

ولقد كانت هذه النصوص تواجه قضية حاضرة في البيئة الجاهلة حيث كانوا يمتنعون من ذبائح أهلها الله ويحلون ذبائح وميتات حرمها الله ويزعمونه من شرعة الله تخرصاً على غيب الله : « وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم » إعتداءً على شرعة الله « إن ربك أعلم بالمعتدين » فاعلموا عباد الله أن المؤمن يستحل العام ما استحل عاماً أول ويحرم العام ما حرم عاماً أول ، وأن ما أحدث الناس لا يحل لكم شيئاً مما حرم عليكم ولكن الحلال ما أحل الله والحرام ما حرم الله . . وإنما الناس رجلان : متبع شرعة ومبتدع بدعة وليس معه من الله سبحانه برهان سنة ولا ضياء حجة . . (الخطبة ١٧٤ / ٣١٦) .

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتُرُونَ ﴾ (١٢٠) :

« ظاهر الإثم وباطنه » قد تعني - إضافة إلى إضافة الصفة : الإثم الظاهر والإثم الباطن - تعني واجهتي كل إثم ظاهراً وباطناً ، فهي تحلّق على كل الإثم في كل إثم ، وهو كل ما يبطئ عن الثواب ظاهرياً أم باطنياً ، بظاهر من الإثم أو باطنه ، بالإثم الظاهر والإثم الباطن ، وثالث هو كون « ظاهر الإثم » صفة لمحذوف هو العصيان الظاهر لإثمه أو باطنه وهذا أليق بظاهر الصلة بين الآية وما قبلها وما بعدها .

فـ « ظاهر الإثم » - إذا - ما ظهر لإثمه للناظر سواء أكان ظاهراً كالقتل أم باطناً كالشرك ، وباطنه ما لا يظهر لإثمه سواء أكان ظاهراً كالأكل مما لم يذكر اسم الله عليه ، وترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه وأكل لحم الخنزير ، أم باطناً كالحسد غير الظاهر فاعليته .

وقد ينتظمها كلها « ان الذين يكسبون الإثم » أيأ كان وبأية حالة وأية مجالة « سيجزون بما كانوا يقترفون » .

ذلك ومن باطن الإثم إثم القلب : « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » (٢: ٢٨٣) و « اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم » (٤٩: ١٢) « ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول » (٥٨: ٨) ومن أنحس باطن الإثم الإشراف بالله (١) .

(١) نور الثقلين ١: ٧٦١ عن تفسير القمي في الآية قال : الظاهر من الإثم المعاصي والباطن الشرك والشك في القلب وقوله « بما كانوا يقترفون » أي : يعملون . وفيه في روضة الكافي في رسالة طويلة لأبي عبد الله (ع) يقول فيها : واعلموا ان الله لم يذكره أحد من عباده المؤمنين إلا ذكره بخير فاعطوا الله من أنفسكم الاجتهاد في طاعة فان الله لا يدرك بشيء من الخير عنده إلا بطاعته واجتناب محارمه التي حرم الله في ظاهر القرآن وباطنه فان الله تبارك وتعالى قال في كتابه وقوله الحق : « وذروا ظاهر الإثم وباطنه » .

ومن الإثم الظاهر: «يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس» (٢: ٢١٩) والحظر يشمل «ظاهر الإثم وباطنه» فإن لظاهره باطناً ولباطنه ظاهراً، وحتى إذا اختص الإثم بظاهر أم باطن فهو إثم كيفما كان، إبطاءً عن الثواب أياً كان، وكل مبطل، عن واجب الثواب فهو محرم لهذه الضابطة ثم «ظاهر الإثم وباطنه» قد تعني فيما عنت ظاهر الإثم متظاهراً فيه فـ «ظاهر الإثم» ومتخفياً فـ «باطنه» .

وما هو - بعد - ظاهر الإثم وباطنه في حقل الأكل هنا؟ من ظاهر الإثم ترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه، والأكل مما لم يذكر اسم الله عليه، ومن باطنه تحريم الأول وتجوز الثاني تشريعاً وإن لم يظهر في العمل، كما وإن من ظاهر الظاهر اقتترانه متظاهراً، ومن باطنه اقتترافه خفية^(١) كما أن من ظاهره الأكل مما يضر صحياً أم هو خيانة، ومن باطنه الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه غير الظاهر إثمه إلا بوحى وقد أوحى .

فقد يخيل إلى ناس أن ليس ترك الأكل من المباح والأكل من الحرام محظوراً إن لم يعتقد في حل أو حرمة خلاف شرعة الله، أم ليست العقيدة المتخلفة في الأكل محظورة إن لم تظهر في العمل، أم لا يحرم العمل ما لم يتظاهر فيه، أم لا يحرم لعدم ظهور إثمه، فنزلت الآية حاسمة إياها منددة بها مهما كانت دركات، ثم الجمع بين ظاهر الإثم وباطنه هنا وفي سواء أسفل دركاً، ثم باطن الإثم إعتقاداً، ثم ظاهره اقترافاً، ثالثاً منحوس من الإثم تشمله «ظاهر الإثم وباطنه» .

ذلك، وليس يختص الحظر هنا بإثم الأكل المحرم وتحليله، بل هو ضابطة ثابتة تحلق على كل إثم في كل الحقول، حيث الإثم: المبطل.

(١) قال الضحاك كان أهل الجاهلية يرون الزنا حلالاً ما كان سراً فحرم الله تعالى بهذه الآية السر منه والعلانية .

عن الثواب هو محرم ككل في شرعة الله : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » (٣٣:٧).

ففي كل محظور إثم ، سواء أكان ظاهر الإثم أم باطنه ، فإن الله لا يحظر على شيء إلا وهو إثم ، وفي كل مجبور ثواب مهما لم يظهر لأهل الظاهر ، فإن الله لا يأمر بشيء إلا وهو ثواب .

وترى أن نية السوء هي من باطن الإثم ؟ كلاً ، فـ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » (٢٧:٩٠) والعمل مهما شمل العقيدة ليس ليشمل النية فإنها نية العمل وليس من نفس العمل ، ولكن العقيدة الصالحة والطلاحة هما مورد الأمر والنهي .

ثم « إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقتربون » ليست لتشمل النية لأنها نية الكسب وليست نفس الكسب ، كما وليست اقتراًفاً للإثم بل هي قصده ولما يقترب ، ولو أن نية الإثم كانت هي - أيضاً - من باطن الإثم فهو - إذاً - إثم مغفور .

صحيح أن العقيدة الفاسدة هي اقتراف لإثم القلب : « فإنه آثم قلبه » ولكن نية الإثم خارج عن إثم القلب والقلب ، فكم من طاهر قلبه ينوى الإثم ثم يتركه لطهارته .

وصحيح أن نية الخير لها جزاء الخير ولكنه من فضل الله ، وقضية العدل في نية الشر ألا تقابل بعمل الشر ، وأما العقيدة الشريرة فهي عمل القلب المقلوب إلحاداً أو إشراكاً أم كفرأ لكتابي وسواه ، أم عقيدة فاسدة لمسلم ، فإنها محسوبة بحساب العمل الطالح ، وهو يشملها حين يفرد مهما يفصل عنها حين يتقارنان .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ

لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ
لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ :

«وانعام لا يذكرون اسم الله عليها إفتراء عليه» (١٣٨: ٦) و«مما لم يذكر
اسم الله عليه» أي على تذكّيته وذبحه، تعم ما ذكر اسم غير الله عليه وما
لم يذكر عليه أي اسم ، فإن ذكر اسم الله على الذبيحة مفروض وعدمه
مرفوض سواء لم يذكر عليه أي اسم أم ذكرت عليه أسماء الأوثان أم أي
إسم ذكره إثم « وانه لفسق » : خروج عن طاعة الله وعبوديته إشراكاً بالله أو
عصياناً إياه .

وقد يعم ضمير الغائب في « إنه » كلا الأكل وعدم ذكر اسم الله على
الذبيحة ، بل الثاني أقرب ادبياً ومعنوياً مهما كان الأول أقرب معنوياً ، فإنه
محور التحريم الأول ، فلا يحرم الأكل ما لم يذكر اسم الله عليه إلا إذا ترك
فسقاً ، لا نسياناً أو جهلاً اللهم إلا نسيان التساهل أو جهله المقصر فانه
داخل في الفسق ، ويؤيده « أو فسقاً أهل لغير الله به » ، كما لا يحرم
الأكل منه إلا إذا تعمده دون اضطرار ، فالجاهل أحكام الذبح وهو عالم
جهله لا يجوز له الذبح ، فإن ذبح تركاً لبعض شروطه كان فسقاً لا يجوز
الأكل منه ، ذلك ولكن « انه فسق » لا يعني طليق الفسق ، بل هو الفسق
في ترك ذكر اسم الله الذي هو أفسق الفسق ، فلا يعني - إذاً - إلا العامد
في ترك ذكر الإسم ، وكما تلمح إليه لام التأكيد ، فكلا الأكل مما لم يذكر
اسم الله عليه وعدم ذكر الله عليه « لفسق » فسق مؤكد لا يعني إلا ترك ذكر
الاسم عمدًا ، والأكل منه عمدًا ، ثم « انه لفسق » راجع - فيما يرجع - إلى
عدم ذكر الإسم وليس هو فسقاً لغير العامد مهما كان جاهلاً أو ساهياً أو
ناسياً مقصراً ، فهؤلاء خارجون عن الأمر وغير داخلين في النهي كما « أو
فسقاً أهل لغير الله به » تؤيده

« وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » الحواشي الأمعات ، يوحون

سورة الأنعام / آية ١٢١ ٢٥١

من زخرف القول كـ « كيف يؤكل ما يذبحه خلق الله ولا يؤكل ما يقتله الله »^(١) ؟ تصور من تصورات الجاهلية المنكوسة التي لا حد لسخافتها وتهافتها في جميع الجاهليات .

« ... ليوحون . . . ليجادلوكم » في وحي الله « وان اطعتموهم » عقيدياً أو عملياً « إنكم لمشركون » بالله عقيدياً أو عملياً أم فيهما ، فطاعة الشيطان دركات وكلها إشراكات بالله بدركاتها .

فذلك نص قرآني قاطع يوحى أن طاعة غير الله تخلفاً عن طاعة الله تخرجه عن الإسلام إلى الشرك إن كان مسلماً .

وترى إذا شك في ذبيحة أنه ذكر اسم الله عليه أم لا فما هو دورها ؟ إذا كانت في أرض الإسلام أو يد مسلم أو سوق المسلمين فهي محكومة بالتذكية الكاملة ، وإلا فلا تحل لأن ذكر اسم الله غير محرز لا واقعياً ولا بإمارة شرعية .

فهنا حالات للذبيحة : أن يذكر اسم الله عليه فيجزل دون ريب ، أو لم يذكر اسم الله عليه سواء لم يذكر أي اسم أو ذكر من أسماء الأصنام والطواغيت أو الصالحين ، فحرام دون ريب ، والفرق بين موارد الثانية لا فارق له حسب النص ، والرواية المنسوبة إلى النبي (ص) ان « ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله »^(٢) مطروحة أو مؤولة بالنسيان ويؤيده « إن ذكر » حيث تلمح إلى

(١) الدر المنثور ٣: ٤٢ عن ابن عباس قال : لما نزلت « ولا تاكلوا ما لم يذكر اسم الله عليه » ارسلت فارس إلى قريش ان خاصموا محمداً فقولوا له : ما تذبح انت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله بنمصار من ذهب يعني الميتة فهو حرام ؟ فنزلت هذه الآية : « وان الشياطين . . . » .

(٢) رواه أبو داود في المراسيل من حديث ثور ابن يزيد عن الصلت السدوسي مولى =

النسيان حيث لم يذكره ، وكما يروى عنه (ص) قوله : « ذبيحة المسلم حلال سمي أو لم يسم ما لم يتعمد والصيد كذلك » وأما ذبيحة غير المسلم الذي لا يذكر اسم الله فهي محرمة حين ينسأه فإن ذكره ونسيانه على سواء ، اللهم إلا أن يكون ممن يذكر اسم الله عليه فنسي فإنه نسيان مغفور لا يشمله . . وإنه لفسق . . فهو أيضاً حِلٌّ ، وما لم يذكر اسم الله عليه عمداً هو رزق الشيطان^(١) وأتباعه، وهل يكفي ذكر اسم الله عليه عند أكله وإن لم يذكر عند ذبحه ؟ كلاً ! فإن « أهْلٌ لغير الله به » تجعل محور التسمية حالة الذبح دون حالة الأكل ، فإن سمي عند الأكل على ما أهْلٌ لغير الله به شمله نص التحريم دون ريب ، كما وأن « فاذكروا اسم الله عليها صوافٍ فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها » (٢٢: ٣٦) و « أنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه » (١٣٨: ٦) فإنه تنديد شديد بمن لا يذكرون الله على الأنعام حيث يعني حين ذبحها ، وهذه براهين قاطعة لا مردُّ لها على واجب ذكر الاسم على الذبائح حين ذبحها لا حين الأكل من لحومها ، وكذلك « ذكر اسم الله عليه » مجهولاً يعني جواز الأكل مما ذكر اسم الله عليه وإن لم يكن الأكل هو المسمي .

فقد نهى عن ذكر اسم غير الله على الذبائح وأمر بذكر اسم الله عليها ، فعند تعمد تركه تحرم على أية حال ، أيًا كان الذابح ، وعند ذكره - بسائر الشروط - تحل أيًا كان مسلماً وسواه .

سويد بن ميمون أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم ابن حبان في كتاب الثقات قال : قال رسول الله (ص) : . . .

(١) المصدر عن ابن عباس عن النبي (ص) قال قال إبليس يا رب كل خلقك بينت رزقه فقيم رزقي ؟ قال : فيما لم يذكر اسمي عليه .

وهل إن « اسم الله » الواجب ذكره على الذبيحة أو الصيد هو - فقط -
« الله » ؟ أم يكفي أي اسم من أسماء الله تعالى ؟ قد تلمح « اسم الله »
مفردة ألا يكفي غير « الله » ولكنه قد يعني جنس اسمه تعالى كما قال الله :
« قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنی » فما صدق
عليه اسم الله - وهو الإسم المختص بالله - يكفي ذكره على الذبيحة وما
أشبهه^(١).

وهل يجب الجهر بإسم الله لحد إسماع الغير ؟ طليق « ذكر اسم الله
عليه » يُطلقه عن قيد الإجهار ، ولكنه على أية حال ذكر باللسان ، لا
فقط - ذكر القلب ، كما ويؤيده « عليه » فذكر القلب لا يتعدى بجار ،
فإنما هو ذكر اللسان .

وهل يكفي مجرد ذكر اسم الله عليه وإن كان بمسجلة ؟ كلا ! لمكان
« فاذكروا اسم الله عليه » ولا يخاطب المسجلة فليكن الذاكر ممن يصح
خطابه .

تلحيفة على ضوء ذكر اسم الله على الأنعام ذبحاً ونحرأ :

هنا شرط سلبي رئيسي في تذكية بهيمة الأنعام هو عدم الإهلال بها لغير
الله ، نجده في آيات أربع لأنه يحتل القمة العليا بين شروطها ، فرغم أنه
ليس ركنأ تحرأ المذبوحة بتركه إلا حال الذكور ، ولكنه ركن في الفقه
الأكبر ، والسماح لأكلها في نسيان الذكر رعاية لحال القاصرين وصدأ عن
التبذير ، وذلك الإهلال يعم ما إذا كان أهل ذكراً لغير الله قالأ أو نية وحالأ، أم
جمعأ بينهما فأفضل سبيلاً، أياً كان غير الله ، وفي حكمه ما إذا ذكر مع الله

(١) وتدل عليه صحيحه محمد بن مسلم قال سأله عن رجل ذبح فسبح أو كبر أو هلل أو
حمد الله ؟ فقال : هذا كله من أسماء الله ولا بأس به (الكافي ٦ : ٢٣٣
والتهذيب ٣ : ٣٥٣) .

سواه ، أو ذكر الله وينوي سواه ، أو نوى الله وذكر سواه ، فالإلهال لغير الله
يعم كل هذه الموارد وأشباهها .

وشرط إيجابى رئيسى هو ذكر اسم الله على الذبيحة ، ذكراً بكلاً القال
والحال، فالنسيان أو الجهل مغفوران لأنهما ليسا من الفسق مهما كانا عن
تقصير، فسقاً في أصل التقصير دون ترك الذكر، والنص يعلل التحريم بـ « إنه
لفسق » فقد انتقشت كلمة « لا آله إلا الله » في الذبائح والمنحورات ،
وجانب السلب أقوى مهما كان الأصل جانب الإيجاب ، ولكن السلب قدر
ما هو أقوى فالإيجاب على غراره أقوى ، وحرمة ونحاسة ونجاسة ما أهل به
لغير الله أشد مما لم يذكر عليه اسم الله ولا سواه .

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ
فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴾ (١٢٢) : مركز تحقيق كتاب توبير علوم اسلامی

« ميتاً » علها مخففة عن « ميت » وكما استعملنا في معنى واحد :
« سقناه لبلد ميت - بلدة ميتاً » و « الميتة » هي مؤنثها ، خففت في حالتها
عن ثقلها .

أم هي مصدر يعني طليق الموت في كل حقوله الفطرية والعقلية ؟
ولكنه لا يناسب أدب اللفظ ولا المعنى ، فـ « فسعل قياس مصدر المعدى من
ذي ثلاثة كعدَّ عدّاً » ثم طليق الموت لا يناسب إلا من مثله في الظلمات
أن اصبح طليق الموت ! .

وهنا قرن بين أهل النور والظلمات ، تفضيلاً لأهل النور : أن « كان
ميتاً » ليست له حياة إيمانية ، ولكنه كان يعيش حياة فطرية وعقلية ، تحريراً
عن حياة الإيمان « فأحييناه » بها أن وفقناه للإيمان بما سعى وتحرى « وجعلنا
له نوراً يمشي به في الناس » وهو نور الإيمان الحاصلة على ضوئه بأعمال

الإيمان ، فلا يضل بين ظلمات الناس النسناس ؟ .. « كمن مثله في الظلمات » فطرية وعقلية أماهيه من ظلمات اللإيمان « ليس بخارج منها »^(١) حيث انغمس فيها فأحاطت به « كذلك » البعيد البعيد عن الايمان ونوره « زين للكافرين ما كانوا يعملون » أن حسبوها حسنة فهم من « الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

فهناك الإحياء بالإيمان كآية أنفسية داخلية ، و « نوراً يمشي به في الناس » برسول الإيمان ، والقرآن كآية آفاقية : « يأبها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » (٤ : ١٧٤) « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً » (٤٢ : ٥٢) .

ويعاكسه الميت عن الايمان حيث تحيط به الظلمات آفاقية بالشياطين وأنفسية بنفسه الظالمة المظلمة .

أجل وإن الإيمان الصالح يُنشئ في القلب حياة بعد موت ، وتُطلق فيه نوراً بعد الظلمات ، والكفر إنقطاع عن هذه الحياة وتلك النور فهو موت طليق حليق على كيان الكافر كله .

(١) المصدر عن المجمع قيل انها نزلت في عمار بن ياسر حين آمن وابي جهل وهو المروي عن ابي جعفر عليهما السلام ، وفيه ح ٢٧١ عن ابي عبد الله (ع) في حديث طويل : وقال الله عز وجل : يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي « فالحي المؤمن الذي يخرج طيبته من طينة الكافر والميت الذي يخرج من الحي هو الكافر الذي يخرج من طينة المؤمن ، فالحي المؤمن والميت الكافر وذلك قوله عز وجل : أو من كان ميتاً فأحييناه « فكان موته اختلاط طيبته مع طينة الكافر وكان حياته حين فرق الله عز وجل بينهما بكلمته كذلك يخرج الله جل وعز المؤمن في الميلاد من الظلمة بعد دخوله فيها إلى النور ويخرج الكافر من النور إلى الظلمة بعد دخوله إلى النور وذلك قوله عز وجل : « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » .

والإيمان استعداد فسعي فاستعداد فهو حياة تتعالى .

والكفر موت عنها كلها حيث يحجب الروح عن كل تحركاتها الإنسانية السامية ، والإيمان ظل ممدود من الرحيم الرحمن والكفر ضلال ممدود من اللعين الشيطان « فبأي آلاء ربكما تكذبان » ؟

أجل والإيمان حياة طيبة تسعى نوره في كل النشآت ولا سيما الآخرة : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بُشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل إرجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » (٥٧: ١٣) .

وكما للإيمان درجات متاليات كذلك للنور درجات متواليات : « يقولون ربنا أتمم لنا نورنا » (٦٦: ٨) « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم » (٥٧: ٢٨) .

ذلك والحياة البدنية ونورها تنقضي بالموت ولكن حياة الإيمان ونوره يستمران إلى البرزخ والقيامة الكبرى دون اعتراض موت ، اللهم إلا تكاملاً وشفافية أكثر مما كان في الدنيا، أجل وإنها حياة فوق الحياة الشاملة لكل الأحياء العاقلة نتيجة العمل الصالح للإيمان وبالإيمان : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (١٦: ٩٧) حياة طيبة روحية نورانية لا تشوبها أية قدارة أو موت ، فه أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » (٥٨: ٢٢) .

فأين حياة الروح وموته من حياة البدن وموته ، فرب حي بالبدن ميت في الروح وهو الكافر ، أو ميت بالبدن حي في الروح وهو المؤمن .

ومن آثار تلك الحياة وذلك النور أن صاحبها « يمشي به في الناس »
 مشي الحي البصير على صراط مستقيم ، حين يمشي سائر الناس مكبين
 على وجوههم : « أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على
 صراط مستقيم » (٦٧: ٢٢) .

وكذلك كان المؤمنون ويكونون في مثلث الزمان دون اختصاص للنص
 بأيّ كان ، فقبل أن يفتح الإيمان في أرواحهم ويُطلق فيها هذه الطاقة
 الفخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراق كانت قلوبهم ميتة دون
 حراك إلا تحرياً عن الإيمان ، وكانت أرواحهم ظلاماً بكل عراك ، فثم إذا
 قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتتهتز ، وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء
 وينفيس منها النور فتمشي في الناس هادية الضالين ، ملتقطة الشاردين ،
 مُطمئنة الخائفين ، محررة المستعبدين ، كاشفة معالم الطريق للناس
 أجمعين .

ذلك ومن غريب الوقف عديداً في القرآن ما بين الموت والحياة
 بمختلف صيغهما ان كلا منهما يذكر (٧١) مرة ، وعله لأنهما معاً بلوى كما
 يقول الله : « خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن
 عملاً » (٦٧: ٢) .

وَكَذَلِكَ

جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا
 يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ
 آيَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ نُسَبِّحُهَا وَنُحَمِّدُهَا وَنُؤْمِنُ بِهَا وَنُؤْتِي مِمَّا أَوْتَىٰ رَبُّنَا

اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا
 صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾
 فَن يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ
 يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا
 يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى
 الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٧﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا
 قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٨﴾ * لَهُمْ دَارُ
 السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾
 وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا بِمَعْشَرٍ آخَرٍ قَدْ أَنتَكُثَرْتُمْ مِنَ
 الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا
 بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ
 خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٠﴾
 وَكَذَلِكَ نُورِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٣١﴾
 بِمَعْشَرٍ آخَرٍ وَالْإِنْسِ الَّذِينَ يَأْتِيكَمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ

عَلَيْكُمْ ءَايَتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا
 عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ
 أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٢٣﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّا يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ
 الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٢٤﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ
 مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَّبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٥﴾ وَرَبُّكَ
 الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ
 مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٢٦﴾ إِنْ
 مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٢٧﴾ قُلْ يَنْقُومُ
 أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ
 تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مُّجْرِمِينَ لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا
 يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢٣):

وكما « جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن ... » (١١٢)
 و« زين للكافرين ما كانوا يعملون » (١٢٢) وجعلنا من الناس أحياء
 بالإيمان ومنهم أمواتاً بالكفر ، « وكذلك جعلنا ... » جعلاً تكوينياً أن

٢٦٠ الجزء السابع

لم نصدّهم عن تطاولاتهم المجرمة ، بل أملينا لهم « ليمكروا فيها . . »
و « أمني لهم إن كيدي متين » (٤٥ : ٦٨) « كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء
ربك وما كان عطاء ربك محظوراً » (٢٠ : ١٧) .

وذلك قضية حكمة الإبتلاء الحكيمة ليتم الإبتلاء بعظم البلاء ، وينفذ
القدر المقدر ، وتتحقق الحكمة من دار الإبتلاء ، فيمضي كل فيما هو ميسر
له دون أن يكون مسيراً في خير أو شر .

فلأن شرعة الله تُمحور القضاء على الأكابر المستكبرين ، لذلك فهم
يقفون أكثر ممن سواهم موقف العداء من شرعة الله ، حيث تبدأ من نقطة
تجريد هؤلاء من كبرياتهم وعلوئهم .

فكما أن رسل الله هم أكابر العارفين بالله ، العابدين الله ، كذلك
أعداءهم - في الأصل - هم أكابر الجاهلين بالله التاريخي عبودية الله ، سنة
جارية في كل قرية ، مستمرة حتى تقوم دولة الحق العالمية الكبرى بصاحب
الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف .

إنها معركة مصيرية محتومة بين كتلتي الإيمان والكفر ، قائمة على
أساس القضاء بين القاعدة الأولى لشرعة الله - وهي حصر الحاكمية كلها
لدين الله - وبين أطماع أكابر المجرمين في القرى : « وإذا أردنا أن نهلك
قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها
تدميراً » (١٦ : ١٧) .

ذلك ، ولكنه لا خوف على أهل الإيمان من « أكابر مجرميها ليمكروا
فيها » إذ « وما يمكرون إلا أنفسهم وما يشعرون » - « ولا يحق المكر
السيء إلا بأهله » .

أجل ، ولأنه ليس المؤمنون وحدهم يخوضون تلك المعارك المهالك ،
فالله وليهم فيها وهو حسبهم حيث يرد على أكابر المجرمين كيدهم وميدهم

« وما يمكرون إلا أنفسهم وما يشعرون » ، فان ضرر المكر راجع - أولاً - إلى أنفسهم دون رادع ، ثم الله رادع مكرهم عن المؤمنين الصالحين ، مهما لم يردع عمن « زاغوا فازاغ الله قلوبهم » فإنهم من ذاك النمط .

ذلك و « أكابر مجرميها » تحلق على كافة الكبراء والمستكبرين بدولة الحال أو دولة المال ، والحاصلين على أية وسيلة من وسائل الإستكبار الاستعمار الاستثمار الاستعمار ، والاستبداد الاستخفاف الاستضعاف ، الأبواب السبع الجهنمية المفتحة من قبل الأكابر على سائر الناس .

وهنا « اكابر » مفعول ثان له « جعلنا » والأول هو « مجرميها » ان « جعلنا مجرميها اكابر » حيث الاسم الأول هو في الأصل مبتدأ فليكن معرفاً .

ولأن الإجماع ليس إلا على قدر الكبر ، فذلك الجعل يعني انه تعالى لم يمنع الأكابر عن اجرامهم الكبير « ليمكروا فيها » كما يستطيعون حتى يخلص الغث من السمين والخائث من الأمين « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

وقد تعني اللام في « ليمكروا » العاقبة العاقبة لذلك الجعل اتوماتيكياً ، دون ان يريده الله توفيقاً لهم في مكرهم ، كما لم يرد اجرامهم اللهم إلا عدم الصد عما يفعلون ، فهي كـ « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً » (٢٨: ٨) في قصة أخذ موسى من اليم ، إذ لم يقصدوا منه إلا خيراً : « لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون » (٢٨: ٩) أم هي غاية لهم مقصودة ، فـ « جعلنا ليمكروا » تعني - إذاً - ما صددناهم عن مكرهم « ليمكروا فيها » مخيرين غير مسيرين .

ذلك واكبر الاجرام ما إذا جمع ثلوث الذرايع اليه والدوافع له من دولة المال ودولة الحال والعلم بمختلف الأحوال ولا سيما ظاهرة علم الدين ،

فيا ويلاه من ذلك الاجرام المثلث حيث لا قبل له .

« ألا فالحذر الحذر من طاعة سادتكم وكبرائكم ، الذين تكبروا عن حسبهم ، وترفعوا فوق نسبهم ، وألقوا الهجينة على ربهم ، وجاحدوا الله على ما صنع بهم ، مكابرة لقضائه ، ومغالبة لآلائه ، فإنهم قواعد أساس العصبية ، ودعائم اركان الفتنة ، وسيوف اعتزاز الجاهلية » (٣٦١/١٩٠) .

وهؤلاء الأكابر المجرمون ، وحماسى الطغيان المتفرعون، يحيلون إيمانهم بآية إلا كما يشتهون :

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ (١٢٤) :

هذا من أمكر المكر حيث يخيل إلى البسطاء أن صاحب آية غير ما أوتي رسل الله ليس من رسل الله ، وكأنهم من مصدقي رسل الله إذا صدقت رسالاتهم بآياتهم المتشابهة ، وأما إذا تخلفت آية عنها فليسوا هم بمصدقها كآية القرآن العظيم ، ويكأنهم أعلم من الله بكيان الآية الرسولية التي تثبت الرسالة ، و« الله أعلم حيث يجعل رسالته » فحيثية الرسالة الختمية تتطلب آية خالدة تمشي مع الزمن وتهدي كل أهل الزمن ، فلو أن الله بعث خاتم الرسل بآيات الرسالات الأخرى ، المؤقتة لردح من الزمن الرسولي ، لكانت آية ناقصة ناقضة لخلود الرسالة .

صحيح أن الآيات الرسالية السابقة كانت عابرة غير باقية عبر كل رسالة إلا أن الرسل اللاحقين كانوا بآياتهم مصدقين لكل سابقة ، رسالات متواتية بآيات متشابهة يصدق بعضها بعضاً ، ولكن الرسالة الأخيرة لا مصدق لها بعد ارتحال رسولها إلا آيتها الخالدة : القرآن العظيم .

وهؤلاء الأكابر المجرمون المختلقون لهذه الشبهة الماكرة أصابوا بها

سورة الأنعام / آية ١٢٤ ٢٦٣

القرآن صغاراً كأنه آية صغيرة غير كافية أم ليست آية ، فـ « سيصيب الذين اجرموا صغاراً عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » .

أجل ، ولو كانوا هم أولاء - كما يدعون - عالمين حيث تجعل رسالة الله فـ « الله أعلم » منهم « حيث يجعل رسالته » لأنه هو الله العالم الغيب والشهادة ، وهو المرسل - كما يعلمون - سائر الرسل بسائر الآيات المعجزات .

وليست آية القرآن شاذة عن سائر الآيات إلا في صورتها ، وأما سيرتها فهي أقوى وأبقى دلالة خالدة على خلود هذه الرسالة السامية ، فكيف تصبح الآية الأقوى والأبقى فعلية وفاعلية أبعد عن التصديق بعدم التشابه في صورتها مع الآيات الأخرى ، وتكأنها هي الأصلية التي تقاس عليها غيرها .

ذلك ، ولو أن عدم التشابه الصوري بين آيات الرسالات يقضي على حجبة اللاحقة غير المشابهة للسابقة ، فلتكن الآية الأولى هي المصدقة فقط ، ثم اللاحقة لها كلها مطرودة لعدم التشابه الكامل ، ولا تشابه بين فلق البحر لموسى وإحياء الموتى لعيسى عليهما السلام ! .

ولئن قالوا إن الأصلية هي الأولى بازغة الرسالات ، يقال لهم بأية حجة هي الأصلية والتالية ليست بها ، رغم أن الرسالات بآياتها متدرجة إلى أعلى فأعلى حتى تنتهي إلى عليها الوحيدة الخالدة كما القرآن العظيم .

وهنا « الله أعلم حيث يجعل رسالته » لا تختص بأية الرسالة ، بل هو الحيث الرسالي رسولاً ورسالة بآياتها المثبتة لها وأصلها وزمانها ومكانها حيث الحيث هنا يحلّق على كل حقول الرسالة وأبعادها ، فقد نظر الله في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد وأصفأها وأصفأها فاصطفاه لنفسه فأصفأه لرسالته الأخيرة التي تحمل الرسالات كلها ، وجعل لها آيتها

الخالدة رسولية ورسالية : القرآن العظيم .

« وقالوا لولا انزل عليه آيت من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون » (٢٩: ٥٢) .

فقد عنوا من قائلتهم : « لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله » المشابهة الطليقة بين الرسل بما أوتوا من آيات رسولية ، وآيات رسالية هي شرعتهم وكتاباتهم ، وحدوية في الرسائل بكل أبعادها دون أي اختلاف صوري في الأحكام ولا الآيات ، مما ينقص وينقص كل الرسائل بعد الأولى ، فإنها تختلف رسولياً ورسالياً في بعض المظاهر الأحكامية وآياتهم ، وما أسخفه قولاً هو بظاهره صالح حيث يتظاهر بوحدة الرسائل ، وفي باطنه مكرٌ يجتث كل الرسائل عن جذورها : « أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » (٤٣: ٣٢) .

ويا للهول من مكرهم الماكر الحاكر في خضمه كل صنوف المكر ، أنهم وهم أكابر المجرمين الناكرين للرسالات كلها يرفعون علم الوحدة الرسالية ، محتاطين في الأخيرة لأنها لا تشبه سائر الرسائل ؟ زعم أن المتقدمة هي الأصيلة لقدمتها ! .

وما قيلتهم الغيلة ، تلك الغائلة العليقة، إلا كقيلة اليهود : « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل . . » (٢٨: ٤٨) .

وقد تلمح « حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله » أن تطلبوا - فيما هم مقترحون - أن يؤتوا رسالة كما أوتي رسل الله ، و « الله أعلم حيث يجعل

رسالته « جواب قاطع لا مرد له أن محطة الرسالة الربانية لا بد وأن تكون ربانية تناسب رسالة الله من القلوب الطاهرة الباهرة دون القلوب المقلوبة الباترة الهاترة^(١) : « يل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة » (٥٢: ٧٤) فقد أرادوا أن تجمع لهم القيادة الروحية الى القيادات الزمنية حتى يصبحوا أكابر في القيادتين ، فلا تعارضهم القيادات الروحية في كبرياتهم وعلوئهم الظالم المظلم جو الإنسانية جمعاء .

والحق أن « الله أعلم . . » إجابة عن كل الشطحات الثلاث المحتملة لاقتراحهم « حتى نؤتى ما أوتي رسل الله » حيث حيث تعم حيث الرسالة وآيتها الرسولية والرسالية ، مثلث من الحثيات في حقل الرسالة كانت مقترحة على مدار الزمن الرسالي بصيغ مختلفة تجمعها بجواباتها هذه الجملة الجمالية الشاملة .

والقول إن تعميم الوحي لكافة المكلفين كان أصلح للإصلاح ؟ غول وتأييم من القول ! ، حيث الرسالة والوحي أمانة ربانية لا تحل إلا محلها المناسب لها ، والمناسبة للرسالة قابلية وفاعلية هي بين عصمة بشرية تحقيقاً لكل المساعي تحليفاً عليها للحصول على أصفى الصفاء ، ومن ثم عصمة ربانية كما يراه الله ويرضاه .

وكيف تليق هذه القلوب المقلوبة العفنة التنتنة ، المستكبرة الرادة على الله رسالاته ، كيف تليق أن تكون حملة رسالات الله جمعاً بين النور والظلام ، نقضاً لحكمة الملك العلام ؟ كلا : « الله اعلم حيث يجعل رسالته . . » .

فأقل ما يشترط في مهابط الوحي والتنزيل التخلية عن كل مكر وغدر

(١) قال المفسرون قال الوليد بن المغيرة « والله لو كانت النبوة حقاً لكنت أنا أحق بها من محمد (ص) فاني اكثر منه مالاً وولداً فنزلت هذه الآية » .

٢٦٦ الجزء السابع

ثم التحلية بحلية الإيمان ، ومن ثم الإيمان القمة المصفاة عن أية كُدرة ، وهؤلاء الكبراء المجرمون مأكرون وغادرون في قولتهم : « لن نؤمن » فكيف يحملون رسالة الوحي ؟ .

فهؤلاء الأكابر المجرمون سيصيبهم صغار عند الله ، كما خيل إليهم أنهم كبار عند الله ، يجب عليه أن يكون عند متطلباتهم الجاهلة الغائلة ، صغار باستكبارهم وانهم جعلوا رسالة الله وحكمه صغارا يستصغرونه لحد يتطلبونه لأنفسهم الخضيضة البغيضة .

ويا ليتهم لمسوا جانباً من طبيعة الرسالة الربانية والوحي حتى لا يلفظوا بهذه الشطحات ، فالقلب المتجرد عن كافة الحفظوظ الذاتية والعرضية ، المتحلي بحب الله ومرضاته ، والمتجلي لمعرفة الله وعبوديته ، المتفئد بنور الله ، هو اللائق لتحمل رسالة الله ، دون القلوب المقلوبة عن انسانيته ، المتفئدة بنيران الشهوات والحيونات .

ثم الله هو وحده الذي يصطفي من أصفياه من يصلح لحمل الرسالة ، بصالح القابلية والفاعلية الرسالية ، بالعصمة البشرية والإلهية ، دون الناس الصالحين أياً كانوا فضلاً عن هؤلاء الطالحين الكالحين ! ذلك :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٢٥) :

والصدر هنا هو صدر الروح الكامن في صدر الجسم ، وهكذا العقل في المخ ، والقلب في القلب ، الذي هو نفسه في الصدر ، وكما يُشرح صدر الجسم بسطاً للحمه ونشراً ، كذلك صدر الروح الذي هو مصدر الإيمان والكفر وسيطاً بين العقل والقلب ، فالفطرة والعقل والصدر والقلب

هي مراكز المعرفة كل تلو الأخرى مترتبة في تنقل المعرفة الحقة والباطلة ، وإنما يذكر القلب أكثر بكثير من زملاءه لأنه قلب الروح ، والمركز الرئيسي النهائي لكل محاصيل الروح بجنوده ، فهو امام الأئمة في كيان الانسان ، «القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء» وهنا «فمن يرد الله . . » تفريع بياني له «أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس» .

وكما ينشرح الصدر ويلين لذكر الله وبذكر الله ، كذلك - وبأحرى - القلب : «الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله . . » (٢٣: ٣٩) .

وليس الشرح إلا للمعقد الغامض إيماناً وكفراً حيث هما قَدَر القدرة الخلقية معقدان ، فالله يشرح الإيمان فيشرح كما يريد، ويشرح الكفر فيشرح جزاءً وفاقاً .

ثم إن هداية الله وإضلاله ليسا فوضى جزاف ، وإنما يحل كل محله جزاءً وفاقاً ، وفي الهدى زيادة قضية فضل الله «فمن يرد الله أن يهديه» «بايمانه»^(١) وهو المرید لهدى الله، المتحرّري عنها ، المحاول في إسلامه

(١) نور الثقلين ١: ٧٦٥ في عيون الأخبار بسند متصل عن حمدان بن سليمان النيسابوري قال : سألت ابا الحسن علي بن موسى الرضا (ع) عن قول الله عز وجل : «فمن يرد الله . . » قال : من يرد الله أن يهديه بايمانه في الدنيا الى جنته ودار كرامته في الآخرة بشرح صدره للتسليم لله والثقة به والسكون الى ما وعده من ثوابه حتى يطمئن اليه ومن يرد ان يضلّه عن جنته ودار كرامته في الآخرة لكفره به وعصيانه في الدين يجعل صدره ضيقاً حرجاً حتى يشك في كفره ويضطرب من اعتقاد قلبه حتى يصير كأنما يصعد في السماء «كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون» .

لله « يشرح صدره للإسلام » إخراجاً له عن مضايقه ومزالقه قدر ما أعد له حيث عدل صدره « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

وذلك الشرح مما لا يقدر عليه أي محاول له إلا بما أعدله ثم الله « يشرح صدره للإسلام » بدرجاته حسب الدرجات .

فأين شرح صدور الأنبياء كموسى (ع) وخاتم النبيين محمد (ص) حيث تطلبه موسى (ع) : « قال رب اشرح لي صدري ... » (٢٥: ٢٠) فاستجيب « قد اجبت دعوتكما يا موسى » وأعطاه محمداً (ص) : « ألم نشرح لك صدرك .. » ؟ (١: ٩٤) وقد يروى عن النبي (ص) أنه « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح له »^(١) .

وأين شرح سائر الصدور غير الحاصلة على ما حصلوا غير الواصلة إلى ما وصلوا ؟ ، من شرح الصدور الحاصلة الواصلة ؟ !

وحين « يشرح صدره للإسلام » « فهو على نور من ربه » لا يضل عن هداه : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين » (٢٢: ٣٩)^(٢) ، ومن شرح

(١) لتوضيح أكثر حول العقل واللب والصدر والقلب والفؤاد راجع ج ٢٣ : ٣٢١ من الفرقان .

(٢) في الدر المنثور ٣ : ٤٤ - سئل النبي (ص) أي المؤمنين أكيس ؟ قال : أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم لما بعده استعداداً ، وسئل (ص) عن هذه الآية « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » ؟ قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله (ص) ؟ قال : نور .. قالوا : فهل لذلك من إمارة يعرب بها ؟ قال : الإجابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » .

أقول رواه عنه (ص) جماعة منهم جعفر المدائني عن رجل من بني هاشم عنه (ص) وعبد بن حميد عن الفضيل عنه (ص) وابن مسعود عنه (ص) وعبد الله بن السور وكان من ولد جعفر بن أبي طالب عنه (ص) .

الصدر « أن الله إذا أراد بعبد خيراً نكت في قلبه نكتة من نور فأضاء لها سمعه وقلبه حتى يكون أحرص على ما في أيديكم منكم ... » (١) .

ذلك « ومن يرد أن يضلّه » عن الإسلام والنور « يجعل صدره ضيقاً حَرَجاً » : ضيقاً لا يفتح لمحاصيل العقل السليم وسواها من هديّ آفاقية أو أنفسية ، و « حَرَجاً » كالشيء المصمت الذي لا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيء (٢) فهو أضيق الضيق الذي لا مدخل فيه ولا مخرج عنه ، وأصل الحرج الوادي الكثير الشجر المشتبك الذي لا طريق فيه ، والشجرة تحلق بها الأشجار فلا يصل إليها رعية ولا وحشية ، وكذلك قلب الكافر .

فهو نهاية الضيق حيث لا مجال له ولا منفذ لنور المعرفة والإسلام حيث احتله كله الظلام .

و « حَرَجاً » مصدراً دون « حَرَجاً » صفةً مشبهةً ، تعني المبالغة في إخراجها لحد كأنه نفس الحرج ، صدر لا يستطيع أن يتنفس نفس الرحمن وإنما يتنفس بنفس الشيطان « كأنما يصعد » صاحبه « في السماء » والتصعد هو صعوبة الصعود « في السماء » التي لا مجال للصعود فيها حيث لا مادة للتنفس فيها يستفيد منها صاحب الصدر المتنفس ، أم ولا وسيلة صالحة لذلك الصعود .

(١) نور الثقلين ١: ٧٦٥ في أصول الكافي عن أبي عبد الله (ع) قال : ان الله عز وجل ...

(٢) نور الثقلين ١: ٧٦٦ في تفسير العياشي قال أبو عبد الله (ع) لموسى بن ابيم : اتدري ما الحرج ؟ قال : قلت : لا ، فقال بيده وضم أصابعه : كالشيء المصمت ... وفيه عنه (ع) في قوله تعالى : « ومن يرد ان يضلّه ... » قال : قد يكون ضيقاً وله منفذ يسمع منه ويبصر والحرج هو اللثام الذي لا منفذ له يسمع به ولا يبصر منه .

ذلك وهي حالة نفسية تجسم في حالة حسية من ضيق النفس وكربة الصدر والرهق المضني من التصعد في السماء .

وهنا « في السماء » دون « إلى السماء » لمحة إلى أن الصعود إلى السماء منه ميسور كما نتصعد إليه نحن بالطائرات والصواريخ ، ففي السماء - خارجاً عن فضاء التنفس والممكن الصعود إليه منها بحالة غير مخرجة - فضاء لا يمكن الصاعد إليه للتنفس أو التلبث والتريث إلا بصورة مخرجة مخرجة للإنسان عن طوقه ، وهذا من الملاحم القرآنية : إمكانية الصعود في السماء ، وصعوبته من حيث مضائق النفس وسواها .

وهكذا يكون مثل من « يجعل صدره ضيقاً حرجاً » ليس له مجال للتصعد إلى سماء المعرفة بوحى وسواء ، حيث الفطرة منه مستورة والعقلية معقولة بطوع الهوى ، والصدر ضيق حرج والقلب مقلوب ، والفؤاد متفقد بنيران الشهوات والحيونات ، حيث الله « نكت في قلبه نكتة سوداء وسد مسامع قلبه ووكل به شيطاناً يضلّه » (١) : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقبّض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » (٣٧ : ٤٣) .

وذلك رجس على تلك الصدور غير المؤمنة ، فذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون « رجس لا محيد عنه على أية حال و » ذلك بما كسبت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد « فالرجس يمثل لنا زيناً وقذاراً : « كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (٨٣ : ١٤) فكما أن القلوب ترين كذلك الصدور كل حسبها وبحساب تضيّقها .

(١) نور الثقلين ١ : ٧٦٥ عن أبي عبد الله (ع) - مضى صدره في شرح صدر المؤمن - وإذا أراد بعبد سوء نكت . . . ثم تلا هذه الآية : « فمن يرذ الله ان يهديه . . . »

ولأن القلوب هي في الصدور : « ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » فضيق الصدر الحرج يضيق القلب ، كما و « أن القلب ليتجلجل في الجوف يطلب الحق فإذا أصابه اطمأن » (١) .

وهكذا الله يُطمئن القلوب المؤمنة أن يشرح الصدور وهي برأيات القلوب ، تحصل فيها حُصالة ما في الصدور « فإذا أعطاه ذلك نطق لسانه بالحق وعقد قلبه عليه فعمل به .. » (٢) ويضيق الصدور فتضيق القلوب التي في الصدور ، ومن مميزات المنشرح صدره للإسلام معرفة لطائف القرآن التي لا يعرفها ويتنبه لها إلا من شرح الله صدره للإسلام حيث « صفا ذهنه ولطف حسه وصح تمييزه » (٣) .

ذلك ، وهنا قيلات - هي ويلات على السذج المجاهيل - حول هذه

(١) المصدر في اصول الكافي عن ابي عبد الله (ع) قال : ان القلب ..

(٢) المصدر ٧٦٦ في روضة الكافي بإسناده الى ابي عبد الله (ع) حديث طويل يقول فيه : واعلموا ان الله إذا اراد بعبد خيراً شرح الله صدره للإسلام فإذا أعطاه ذلك نطق ... فإذا جمع الله له ذلك تم له اسلامه وكان عند الله ان مات على ذلك الحال من المسلمين حقاً وإذا لم يرد الله بعبد خيراً وكله إلى نفسه وكان صدره ضيقاً حرجاً فإن جرى على لسانه حق لم يعقد قلبه عليه فإذا لم يعقد قلبه عليه لم يعطه الله العمل به فإذا اجتمع ذلك عليه حتى يموت وهو على تلك الحال كان عند الله من المنافقين وصار ما جرى على لسانه من الحق الذي لم يعطه الله أن يعقد قلبه ولم يعطه العمل به حجة عليه فأتقوا الله وسلوه أن يشرح صدوركم للإسلام وان يجعل المستكم تنطق بالحق حتى يتوفاكم وانتم على ذلك .

(٣) المصدر ح ٧٦٧ في كتاب الاحتجاج عن امير المؤمنين (ع) حديث طويل يقول فيه : ثم ان الله جل ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدث المبدلون من تغيير كلامه قسم كلامه ثلاثة اقسام : فجعل قسماً منه يعرفه العالم والمجاهل وقسماً لا يعرفه إلا من صفا .. ممن شرح صدره للإسلام ، أقول : « تغيير كلامه » يعني تغيير المعنى دون اللفظ لمكان صيانة القرآن عن التحريف بقاطع الأدلة .

الآية وأشباهاها ، كـ: ان الهداية والضلالة إنما هما من الله وليس للمهتدي والضال أية حيلة في هداية أو ضلال ؟ والقرآن يجيب في عشرات من الآيات عن أمثال هذه الشطحات أن هذه الهداية والضلالة اللتين ينسبهما الله إلى نفسه ، إنهما ليستا بدائيتين دون سابقة ، بل هما جزاء ، فه الذين اهتدوا زادهم هدى « (١٧: ٤٧) » فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم « (٥: ٦١) » فلإنما يريد الله أن يشرح صدور الذين هم في طريق الهدى فيؤيدهم ويوفقهم لها من فضله ، ويريد تضيق صدور الذين هم في طريق الردى مصيرين عليها فيسد عليهم أبواب الهدى فتحاً لأبواب الردى جزاءً وفقاً من عدله .

ففي البداية يزيّن الله الإيمان في قلوب المكلفين ، فإذا زاغت بما تخلفت أزاغها الله ، وإن صاغت وتابعت شروطاً للإيمان هداها الله ، فه إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينّا لهم أعمالهم فهم يعمهون « (٤: ٢٧) » ... ولكن الله حبّب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون « (٧: ٤٩) وعلى الجملة : « كذلك زينّا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » (١٠٨: ٦) .

أجل « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » وأما الذين يؤمنون فقد يشرح صدورهم للإسلام ، فليس من الله إلّا العدل بالنسبة للذين لا يؤمنون والفضل للذين يؤمنون : فه من يؤمن بالله يهد قلبه « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .

إذاً « فمن يرد الله أن يهديه » هو المهتدي أولاً أو القابل لها في صميمه والساعي لها ، والهدى الثانية هي الإسلام لله حقاً بعد ظاهر الإسلام والإيمان ، ثم « من يرد أن يضله » هو من الذين لا يؤمنون ، كما قال الله : « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » .

سورة الأنعام / آية ١٢٦ ٢٧٣

فليس ذلك الموقف من المؤمن الهداية الأولى المتحري عنها ، ولا من الكافر الضلالة الأولى العامل لها ، إنما هما هدىً بعد هدىً وضلالة بعد ضلالة جزاء من ربك عطاء حساباً أو عقاباً وفقاً .

ذلك ، ولأن المهتدي لا يسطع على طليق الهدى إلا قدر ما يسطع فالله هو الذي يُطلق هدايه بما يشرح صدره للإسلام ، وكذلك الضال لا يسطع أن يجعل ضلاله طليقاً فالله هو الذي يُطلق ضلاله حتى لا يسطع - بعد - على هدى

ذلك ، والمنشحة صدورهم ، النيرة قلوبهم : « هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، وباشروا روح اليقين ، واستلنوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدان ارواحها معلقة بالمحل الأعلى » (١٤٧ ح / ٥٩).

﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴾ (١٢٦):

إن « صراط ربك » صراطان ، صراط ربوبيته الخاصة به : « إن ربي على صراط مستقيم » (٥٦: ١١) « قال هذا صراط علي مستقيم » (٤١: ١٥).

وصراط جعله للسالكين إلى مرضاته : « إهدنا الصراط المستقيم » وأين صراط من صراط ؟ .

والمعني هنا من « صراط ربك » هو الأول ، صراط الإبتلاء لعباده شرحاً لصدور وتضييقاً لأخرى ، « مستقيماً » لا عوج له إذ ليس ظلماً بالعباد بل هو فضل لطائفة وعدل لآخرين .

وقد يعني « هذا صراط ربك مستقيماً » اضافة إلى هذا ، الصراط الثاني فانهما لا يختلفان في كونهما « صراط ربك » مهما اختلف سلوك

الأول به تعالى في ربوبيته والثاني بخلقه في مربوبيتهم .

و « ربك » دون « رب العالمين » وما أشبه، لمحة إلى الصراط الثاني حيث الأول لا يختلف بالنسبة له تعالى في جميع المكلفين ، والثاني تختلف في درجاته ، أو يقال إن صراطه تعالى في ربوبيته تشريعاً لهذه الشرعة الأخيرة يختلف عما لسائر الشرائع ، كما يختلف صراط السالكين في هذه الشرعة عما قبلهم .

و « صراط ربك » هنا بتلك الإضافة المطمئنة توحى بالثقة والطمأنينة المبشرة بالنهاية المرغوبة ، فهذه هي سنة الله في الهدى والضلالة ، وتلك هي شرعة الله في الحل والحرمه، كلاهما من « صراط ربك » سواء في ميزان الله ، لحمة في سياق كتاب الله .

« قد فصلنا الآيات » في ذلك الصراط « لقوم يذكرون » الهدى عن الضلال .

فقوم يذكرون هم على صراط مستقيم من صراط ربك المستقيم فلهم ما لأصحاب الصراط المستقيم :

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٢٧) :

« دار السلام » وما أدراك ما هي دار السلام ؟ إنها دار يدعو الله إليها عباده الصالحين السالكين صراطه المستقيم « والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » (١٠ : ٢٥) وهذا من إضافة الموصوف إلى صفته .

دار تستروح فيها أرواحهم برّوح المعرفة والزلفى وروح الطمأنينة العليا ، سلاماً طليقاً يخلق على كيانههم ككل « عند ربهم » عندية الحضور كما يمكن ، ناظرين رحمته ، حاضرين عنايته ، لا تغيب عنهم ولا يغيبون

سورة الأنعام / آية ١٢٧ - ١٢٨ ٢٧٥

عنها « وهو وليهم » يلي أمرهم « بما كانوا يعملون » ولاية بولايتهم لله وحماية بحمايتهم شريعة الله .

ولأن « السلام » إسم من أسماء الله فقد تعني فيما عنت « دار الله السلام » ولكن قد تبعده « عند ربهم » حيث العبارة « لهم دار الله عند الله » أو يقال « لهم دار السلام » : الله السلام ، وداره السلام « عند ربهم » لمكان ربوبيته المقتضية لكونه تعالى سلاماً ولكون داره سلاماً ، « وهو » الرب السلام والسلام الرب « وليهم بما كانوا يعملون » .

ذلك ودارهم في كل النشآت الثلاث هي دار السلام مهما كان الأخرى هي أخرى بالسلام ، لأنها خالص السلام دون كاله كما في الأولى .

ويا للمؤمنين المستقيمين على صراط مستقيم من تشريفات :

١ - أن « لهم دار السلام » مختصة بهم قضية تقدم الضرف .

٢ - وأنها الدار المخصوصة بالسلام : الله ، أو السلامة الطليقة .

٣ - و « عند ربهم » لمحة لأمعة إلى قربهم إليه .

٤ - « وهو وليهم » إلى قربه الخاص إليهم برحمته الخاصة .

وذلك « بما كانوا يعملون » قلباً وقالباً حيث انقطعوا إلى الله عما سواه ، فما كان رجوعهم إلا إليه ، ولا توكلهم إلا عليه ، ولا أنسهم إلا به ، ولا تخضعهم إلا له ، فلما تعلقوا به بكل كيانه لم يتولوا إلا إياه « فهو وليهم بما كانوا يعملون » .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْنِعْ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبُّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٢٨) :

« ويوم يحشرهم » : كل العالمين المكلفين ، مخاطباً الثقلين « يا

معشر الجن قد استكثرتهم من الإنس « فما هو استكثارهم منهم ؟ هل هو أنهم أكثر منهم ؟ وليس موضع سؤال تنديد فإنه تعالى هو الذي خلقهم قبلهم « والجن خلقناه من قبل من نار السموم » (٢٧: ١٥) وهو الذي عمّرهم أكثر منهم ! ثم العبارة الصالحة له ليست « قد استكثرتهم » إذ لم يكونوا هم الذين أكثروا أنفسهم ، ولا « من الإنس » بل « على الإنس » ! .

فإنما استكثارهم استخدامهم كثيراً الإنس عِدَّةً وَعُدَّةً وهم كفرة الجن وفسقتهم ، دون المؤمنين منهم فضلاً عن مرسلهم ، إذ أفتتنديد وارد مورده : أن الجن الضالين استكثروا من إضلال الإنس وكما قال الله « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » (٦: ٧٢) إضافة إلى سائر طرق الإضلال الرهق .

وهنا جواب معشر الجن مسكوت عنه إلى أولياءهم من الإنس : « وقال أولياءهم من الإنس » وهم الذين كانوا يتولونهم في حقل الضلالة : « ربنا استمتع بعضنا ببعض » : متعة الحياة الضالة ، تعاوناً في تلك المتعة اللعينة المعنية من حيوة الحياة ، الخليطة من شهوات الجن والإنس واللّهوات .

« وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا » وهو أجل الموت الذي ينقطع به التكليف ، ثم لأجل البرزخ قضية « يحشرهم جميعاً » الخاصة بيوم الجمع وليس كذلك البرزخ .

إلا أن البرزخ ليس أجلاً في مجال التكليف ، وذلك التساءل يوم الجمع قضية ناره والأجل هو أجل الموت .

« قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله » إخراجاً لبعض عنها إلى الجنة إذا ذاق وبال أمره ، وإخراجاً لآخرين إدخالاً لهم لردح في الزمهرير ، وإفناء للنار مع أهل النار الآبدية ، وكل ذلك « إن ربك حكيم عليم » حيث الحكمة العليمة تقتضي عدم التسوية بين أهل النار حيث هم

مختلفون في استحقاق النار بين هذا المثلث بمراحل متفاضلة لكل ضلع ضليع .

وقد يلمح طليق « استمتع بعضنا ببعض » لإمكانية متعة الجنس - وما أشبه - بينهما ، إلى سائر المُتَمَع المحظورة ، من مُتَمَع الخدمة والإستخدام والإستعلام في خفايا الأمور ، إلى سائر الشيطانات أعاذنا الله منها .

ذلك وفي رجعة أخرى إلى الآية نرى أن المشهد يبدأ معروضاً في المستقبل « ويوم يحشرهم . . » ولكن تقدير « يقول » يحول السياق من مستقبل يُنتظر إلى واقع يُنظر .

« يا معشر الجن . . » وكأنهم الآن حضور « قد استكثرتهم من الإنس » تنديد شديد باستكثارهم في إضلالهم قصداً إلى تسجيل تلكم الجريمة النكراء في نفس الأجل المؤجل لهم .

ثم لا نجد هنا جواباً من الجن حيث المضلل ليس له عذر ، ولكن قد يخيل إلى المضلل عذرٌ ما زعم أنه مستضعف في ذلك الحقل : « ربنا استمتع بعضنا ببعض . . . » إقرار بالغفلة العاطلة والغفوة الباطلة التي جعلت فيهم مجالاً لذلك الإستمتاع المزدوج ، مدخلاً للشياطين إلى نفوسهم في « أجلنا الذي أجلت لنا » فمن منفذ الإستمتاع دخل فيهم الشياطين ، حيث كانوا يتمتعون باستهواءهم والعبث بهم ، كما كان الإنس يتمتع بذلك الإستهواء ، وكأنها معاملة بين الجانبين في مختلف المُتَمَع المحظورة حتى « بلغنا أجلنا الذي أجلت لنا » محتوماً أو معلقاً ، محتوماً أو معلقاً .

﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١٢٩) :

« وكذلك » الإستمتاع المتبادل « نُؤَلِّي بعض الظالمين بعضاً » تولية للظالمين المضللين ولايةً على الظالمين المضللين : « ومن يعيش عن ذكر

الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » (٤٣ : ٣٧) - « وقبضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين » (٤١ : ٢٥) .

وتولية للظالمين المضللين حيث يتبعون المضللين ، توالياً ظالماً في هذا البين « بما كانوا يكسبون » ، فمكاسب السوء المغلظة تجعل الأولين يسمعون في إضلال الآخرين ، ومكاسب الآخرين في إحناء ظهورهم لركب الشياطين تجعلهم بهم مضللين فـ « لكل امرئ ما اكتسب من الآثم » (٢٤ : ١١) ولا يظلمون نقيراً .

ذلك وكما يروى عن النبي (ص) قوله في حق الولاية : « كما تكونون يولى عليكم » (١) .

فالمؤمن ولي المؤمن أياً كان وأيان ، والكافر ولي الكافر أياً كان وأيان ، فليس الإيمان بالله بالتمني ولا بالتخلي ، فلعمرى لو عملت بطاعة الله ولم تعرف أهل طاعة الله لم يضررك ، ولو عملت بمعصية الله وتوليت أهل طاعة الله لم ينفعك .

فهناك الله ولي الصالحين بما صلحوا وأصلحوا ، وهنا الظالمون بعضهم أولياء بعض « بما كانوا يكسبون » فكل ولاية - إذاً - مكسب لأهلها دون فوضى جزاف .

أجل و « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين

(١) الدر المنثور ٣ : ٤٦ - اخرج الحاكم في التاريخ والبيهقي في شعب الإيمان من طريق يحيى بن هاشم ثنا يونس بن أبي اسحاق عن أبيه قال : قال رسول الله (ص) :

سورة الأنعام / آية ١٣٠ ٢٧٩

كفروا أولياءهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

وهذه سنة ربانية لا حول عنها في الولاية خيرة وشريرة ، إذ لا بد في نجاح الأهداف جماهيرية وفردية من ولاية ، كفاحاً قاصداً لتحقيق المرام في أي مرام خيراً أو شراً .

ذلك ، فالحق أحق بحق الولاية تحقيقاً لدولة الحق وتسحيقاً لدولة الباطل ، وهو من أهم الواجبات الجماعية لكتلة الإيمان ، سلباً لعرقلة الكفر فإيجاباً لدولة الإيمان ، والله هو المستعان .

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُم آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَٰهَدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَٰهَدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (١٣٠) :

آية وحيدة في صراح التعبير عن كيان الرسالة بين معشر الجن والإنس ، يتساءلون فيها يوم الحساب عن إتيان رسل منهم .

ولأن معشر الجن والإنس هما صفتان اثنتان فقضية « ألم يأتكم رسل منكم » أن يكون رسلهم صنفين اثنين^(١) مهما كان أصل الرسالة في الإنس ، اللهم إلا عند اختتام الوحي بالرسول إلى العالمين أجمعين محمد (ص) حيث انقطع به الوحي^(٢) فرسل الجن عنده لا يحملون وحياً

(١) نور الثقلين ١: ٧٦٨ في عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا (ع) من خبر الشامي وما سأل عنه أمير المؤمنين (ع) في جامع الكوفة حديث طويل وفيه سأله هل بعث الله تعالى نبياً إلى الجن ؟ فقال : نعم بعث إليهم نبياً يقال له يوسف فدعاهم إلى الله فقتلوه .

(٢) المصدر عن أبي جعفر عليهما السلام قال في حديث طويل : ان الله عز وجل ارسل محمداً (ص) الى الجن والانس .

من الله ، إنما هم ممثلون للرسول (ص) بين قبيلهم كما تدل عليه آيات الجن والأحقاف : « قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً . يهدي إلى الرشd فأما به ولن نشرك بربنا أحداً . وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهياً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً » (٧٢: ٩) - « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين » (٤٦: ٣٢) ولقد تكفي العصمة في الداعية لكي يكون أسوة للمدعوين دون اشتراط عصمة الرسالة ، مهما كان لدعاة الجن قبل الرسالة الأخيرة عصمة الرسالة ، فالعصمة للداعية على أية حال هي قاطعة الأعدار .

ف« هو الذي أسكن الدنيا خلقه وبعث إلى الجن والإنس رسله ليكشفوا لهم عن غطاءها وليحذروهم من ضراءها ، وليضربوا لهم أمثالها ، وليبصروهم عيوبها ، ولينهجوا عليهم بمعتبر من تصرف مصائبها وأسقامها وحلالها وحرامها وما أعد الله سبحانه للمطيعين منهم والعصاة من جنة ونار وكرامة هوان » (١) .

(١) نور الثقلين ١: ٧٦٨ عن نهج البلاغة عن علي أمير المؤمنين (ع) ، وفيه .. واصطفى سبحانه من ولده (آدم) أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم ، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم ، لما بذل أكثر خلقه عهد الله إليهم ، فجهلوا حقه واتخذوا الأنداد معه ، واجتالهم الشياطين عن معرفته ، واقتطعتهم عن عبادته ، فبعث فيهم رسله ،

وهنا « معشر الجن والانس » المندد بهم في الخطاب العتاب ليسوا هم كلهم ، بل هم شياطين الجن والانس لمكان « شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » وسابق الخطاب العتاب « يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس » وان المعشر هم كل جماعة أمرهم واحد عشرة واحدة في أمرهم كفاراً أو مسلمين ، فجواباً عما قاله « أولياءهم من الإنس » يخاطبون نساءلاً « ألم ياتكم . . » والجواب « قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » فلا عذر لهم في شيطنتهم بتمتعاتهم المتبادلة المحظورة ودعاياتهم الضالة المضلة .

هنا « منكم » تقسم الرسالة بين معشر الجن والإنس إلى رسل من

وواتر اليهم أنبياءه ، ليستأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكروهم منسى نعمته ، ويحتجوا عليهم بالتبليغ ، ويثيروا لهم دفائن العقول ، ويروهم الآيات المقدرة ، من سقف فوقهم مرفوع ، ومهاد تحتهم موضوع ، ومعايش تحييهم ، وآجال تفتنيهم ، وأوصاب تهرمهم ، وأحداث تتابع عليهم ، ولم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل ، أو كتاب منزل ، أو حجة لازمة ، أو محجة قائمة ، رسل لا تقصُر بهم قلة عددهم ، ولا كثرة المكذبين لهم ، من سابق سُمي له من بعده ، أو غابر عرفه من قبله ، على ذلك نسلت القرون ، ومضت الدهور ، وسلفت الأبناء ، وخلفت الأبناء » (الخطبة ١/٣١) .

ذلك « وليقيم الحجة به (آدم) على عباده ، ولم يُخلهم بعد ان قبضه ، مما يؤكد حجة ربوبيته ، ويصل بينهم وبين معرفته ، بل تعاهدهم بالحجج على السن الخيرة من انبيائه ، ومتحملي ودائع رسالاته ، قرناً قرناً ، حتى تمت بنبينا محمد (ص) حجته ، وبلغ المقطع عذره ونذره » (الخطبة ١٧٤/٣/٨٩) « فاستودعهم في افضل مستودع ، وأقرهم في خير مستقر تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام ، كلما مضى منهم سلف قام منهم بدين الله خَلَف ، حتى أفضت كرامة الله سبحانه الى محمد (ص) . . أرسله على حين فترة من الرسل ، وهفوة عن العمل ، وغباوة من الأمم » (١٨٥/٩٢) .

الجن ورسل من الإنس ، إذ لو اختصت الرسالة برسل الإنس فـ « منكم » في قبيل الجن مسلوية ، كما لو اختصت برسل الجن كانت « منكم » في قبيل الإنس مسلوية .

والقول إن « منكم » لا تدل على أزيد من كون الرسل من جنس المخاطبين وهم مجموع الجن والإنس لا من غيرهم كالملائكة حتى يستوحشوا منهم ولا يستأنسوا بهم ولا يفقهوا قولهم . . إنه غريب في موقفه ، فإن مجانسة الرسول مع مجموع المخاطبين تتطلب إما كون الرسول إليهم من الجن كما هو من الإنس ، رسولاً ذا بعدين ! أم إن لكل رسول منهم .

كما وأن مجانسة الرسول مع المرسل إليهم من قواطع الأعداء إستاصالاً لها عن بكرتها حتى لا يقول جني لو أن رسولنا منا لكننا نعرف المسؤولية الكبرى فإنه أسوة لنا ، وكذلك الإنس ، فليكن لكل معشر عشيره من جنسه اجتثاً لجذور الأعداء .

ذلك ، وقد تلمح لاختلاف الرسل بين مختلف الجن والإنس آيات كـ : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » (٢٤: ٣٥) « ولكل أمة رسول . . » (٤٧: ١٠) ومن البين إختلاف أمتي الجن والإنس .

وكذلك « لو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » (٩: ٦) حيث المسانخة المؤنسة القاطعة للعذر ، هي مما يكمل بالغ الحجة الربانية .

ولا تدل آيات اصطفاء الرسل من الناس كـ : « الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس » (٧٥: ٢٢) و « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » (٣٣: ٣) إنها لا تدل على إختصاص الإصطفاء الرسالي بالإنس والملائكة ، وإنما تدل على أن الرسل الملائكي

والإنساني أصفى من سائر الرسل ، فرسل الجن هم على ضوء رسل الملائكة والإنس قضية هذه الآيات وآية المعشر هذه .

ولأن رسل الرسل رسل من الله تعالى كما في رسل المسيح (ع) فرسل الجن - ولا سيما قبل الرسالة الأخيرة - هم رسل الله بما يحملون رسالة الله مهما كانت فرعاً لرسول البشر ، وأما بعد ختم الرسالة فقد تعني رسالة الجن رسالة العصمة دون وحي مهما كان فرعاً على وحي القرآن إلى محمد (ص) ثم لا عصمة حاضرة زمن الغيبة، إذاً فرسالة الجن قبل ختم الرسالة هي رسالة فرعية بوحي على ضوء رسول الإنس وهي عند ختم الرسالة هيه دون وحي ، فإنما هي عصمة كافلة لأداء أمانة الوحي ، أم إن ربانيي الجن في زمن الغيبة الكبرى هم النواب العامون للإمام الغائب كربانيي الإنس بين الإنس .

وهنا « شهدنا على أنفسنا » في استجوابهم عن إتيان الرسل ، شهادة على أنفسهم أنهم أتتهم رسل منهم بكامل القصص لآيات الله وإنذارهم لقاء يومهم هذا .

ثم « وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » شهادة ثانية بعد معترضة الجملة : « وغرتهم . . » أنهم تركوا دعوة الرسل وغرتهم الحياة الدنيا فهم أولاء كافرون غير معذورين .

ولا تغر الحياة الدنيا إلا من ينغر بها ويغتر ، فلأنهم اغتروا بها حسن أن يقال إنها غرتهم ، كما و « غركم بالله الغرور » (١٤: ٥٧) .

والقول إن ضرورة المجانسة منقطعة في الرسول الملك إلى رسل الإنس والجن فلا ضرورة مطلقاً ؟ مردود بأن المجانسة مفروضة بين الرسول والمرسل إليهم ، وليست الرسل هم من المرسل إليهم لملائكة الوحي بل هم حملة الوحي إليهم ، رسالة منهم أولاء كوسطاء إلى سائر المرسل

إليهم ، ثم ولا عاذرة لهؤلاء الرسل ولو كانوا مرسلًا إليهم في رسالة الملائكة إليهم .

﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ (١٣١):

فالغفلة القاصرة هي العاذرة لأهلها دون المقصرة، وهي الغفلة التغافل في جو الرسالة الربانية ، فهـ « ذلك » الإرسال المتواتر لرسل الجن والإنس يعنى فيما عناه أن يكون إهلاك القرى بظلمهم دون غفلة قاصرة ، بل على تقصير منها بغفلة مقصرة ، إذا فهـ « وأهلها غافلون » تعني الغفلة القاصرة .

وقد تُخرج « وأهلها غافلون » غير الغافلين عما يتوجب عليهم أو يحرم عند الله وإن لم تصلهم دعوات الرسل، حيث الفطرة والعقلية الإنسانية مبصرة لأهلها ، ولكن الغفلة المقصرة في غير ما دعوة رسالية لا تتطلب الإهلاك مهما تطلبت حساباً يوم الحساب كما في كل الأحياء .

ذلك ، لأن الإهلاك يوم الدنيا ليس إلا لعظيم العصيان حيث يعمد في جو البلاغات الرسالية : « .. وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » (١٧: ١٦) « وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون » (٢٦: ٢٠٨) « ولو أنا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا » (٢٠: ١٣٤)، إذا فالغفلة المغفورة بالنسة لذلك الإهلاك تجمع المقصرة إلى القاصرة عند عدم البلاغ الرسالي « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » (٨: ٤٢) .

ذلك ، ولا يخص إهلاك القرى بتدميرها بأهلها ، بل وبإضلاله إياها أن يجعل صدورهم ضيقاً حرجاً، إهلاكاً في الأولى وآخران في الأخرى،

في البرزخ والقيامة الكبرى ، جزاءً وفاقاً .

ثم « بظلم » قد تعني إلى ظلمه سبحانه ظلمهم عن غفلة دون رسالة هادية ، فإهلاكهم وهم غافلون بظلم ظلم في غير جو الرسالة الربانية ، مهما كان لظلمهم جزاءً وفاقاً ، ولكنه ليس ذلك الإهلاك : « فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها » (٢٢: ٤٥) « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (١١: ١١٧) .

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمَلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٣٢):

« ولكلٍ » من الصالحين والطارحين من الجن والإنس ، « درجات » مهما كانت درجات الطالحين دركات : « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواهم جهنم وبئس المصير . هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون » (١٦٣: ٣) .

فكما الإيمان والعمل الصالح درجات ، كذلك لأصحابهما درجات حسبها ، وكما للكفر والعمل الطالح دركات فكذلك لأصحابها دركات تجمعها في صيغة واحدة درجات إما إلى الجنة وإما إلى النار .

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ (١٣٣):

« وربك » أنت يا أفضل المربوبين وأول العارفين والعابدين « الغني » فقط - دون من سواه ، فلو كان غني سواه لكان النص « غني » قضية تنكير الخبر ، ثم وهو على غناه « ذو الرحمة » على عباده دون مقابل ، لا رحيم سواه، وليست العبادة إلا لصالح العابدين فـ « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ » أنتم المتخلفين عن شرعته « ويستخلف من بعدكم ما يشاء » إنساناً وغير إنسان « كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » و « ذرية قوم » قد تعني من نطفة قوم آخرين أذهبهم ربهم بموت أو إهلاك .

وهنا « ما يشاء » دون « من يشاء » لمحة إلى واسعة رحمته ومنطلقته في إنشاءه ، فليس يختص خلقه بكم أنتم الناس ، أو أنكم القمة التي لا بديل عنها فـ« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز » (١٧: ٣٥) « إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين » (١٣٣: ٤).

هنا « ربك الغني » كـ« يا أيها الناس أنتم الفقراء » وتعريف « الغني » يعرفه انه هو فقط « الغني » حيث « غني » لا يحصر فيه الغنى ، كما الناس محصورون في الفقر ليس لهم إلا الفقر .

فـ« ربك الغني ذو الرحمة » تحصر الغنى والرحمة فيه ، فكل غنى ورحمة لأي غني ذي رحمة إنما تنشأ من رحمته وغناه لا سواه .

فالغني الطليق في غناه لا يحتاج إلى عبادة أم أية فاعلية ممن سواه ، ولا يحتاج إلى ظلم من سواه ، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف في غناه قدرة وعلماً ورحمة أماهيه من قضايا غناه .

ولو كان بعض الأغنياء أغبياء يظلمون لا حاجة وإنما لشقوة وقساوة ، فـ« ربك الغني ذو الرحمة » فطليق الغنى والرحمة يقتضيان كامل العدل والفضيلة ، فلا يفعل أو يقول ما يفعله أو يقول إلا عن غنى ورحمة ، رحمة لا يطلب بها جزاء لغناه ، وغنى يفيض به لرحمته ، فما هكذا الرب بحاجة إلى مربوبيه أم بحاجة إلى ظلمهم، إلا رحمة أو عذاباً هو في الحق رحمة تأديباً للمتخلفين وتعديلاً في العدل بين المخلوقين .

ذلك ، ومن رحمته أن يكلف عباده بما يكلفهم ، ومن رحمته إثابة من أطاعه وعقاب من عصاه ، كما من رحمته مزيد الثواب للمطيعين وأقل العذاب للعاصين وقبول التوبة وسائر التكفير للعصاة ما هو عدل وفضل خارجاً عن أية ظلامة بحقهم وبحق الآخرين .

وقد يعني تلحيق « الغني ذو الرحمة » بـ « إن يشأ . . » تكملة المعني
منهما ، أنه غني عنا رغم أننا في احسن تقويم ، ولا تخص رحمته العالية
بنا رغم أنه لم يخلق أفضل من تقويمنا أي تقويم فـ « إن يشاء يذهبكم
ويستخلف من بعدكم ما يشاء » .

والإستخلاف هنا كما الإستخلاف في « إني جاعل في الأرض خليفة »
لا يجعل خلق خليفة لنفسه وسبحانه ، بل خليفة عمن أذهب هناك وعمن
يذهب إن شاء هنا .

فـ « كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » على وحدة الجنس ، فقد
« يستخلف من بعدكم ما يشاء » إنشاء كل إنشاء حيث يشتركان في أصل
الإنشاء مهما اختلفا في مادته الفعلية، فهنا المادة «ذرية قوم آخرين» وهناك
التراب الذي هو أصل كل ذرية بأصولها .

ذلك ، فلا ينس الإنسان النسيان أنه باق برحمة الله ومشيتته ، فما
لأحد في نشأته وبقائه من يد ، ولا لله منه من يد ونعمة ، فلإذهبهم
واستخلاف ما يشاء من بعدهم هو عليه هين كما هان عليه إنشاءكم من ذرية
قوم آخرين .

فلا يخيل إلى شياطين الجن والإنس أنهم لهم طاقة ذاتية يتغلبون فيها
على الله فيضرونه ، أو ان المطيعين له ينصرونه وينفعونه ، فلإنما هي أيام
قلائل فيها يتلون ، ثم :

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (١٣٤) :

« إن ما توعدون » - أنتم المكلفين صالحين وطالحين من موت وحياة
البرزخ والقيامة بعده حساباً فتواباً وعقاباً « لآت » لا محالة ولات حين
مناص إذ فات يوم خلاص ، ولا تعلم نفس متى هو آت « والذي نفسي بيده
ما طنت عيناى وظننت أن شفري يلتقيان حتى اقبض ، ولا رفعت طرفي

وظننت أنني واضعه حتى أقبض، ولا لقيت لقمة فظننت أنني أسبغها حتى أغص بالموت، يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم في الموتى والذي نفسي بيده إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين» (١).

«وما أنتم بمعجزين» الله في هذه الفترة القليلة إذ لا تغيثون عن علمه تعالى وقدرته «ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار».

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١٣٥):

«قل» يا رسول الهدى «يا قوم» في حقل الدعوة الرسالية الأخيرة «إعملوا» خيراً أو شراً «على مكانتكم»: إمكانياتكم وكيانكم، فإنها لغوياً أبلغ التمكن الشامل لكليهما، ف«كل يعمل على شاكلته» (١٧: ٨٤).

«فسوف تعلمون» عين اليقين أنتم الصالحون بعد علم اليقين، وتعلمون علم اليقين إلى عين اليقين انتم الطالحون. «تعلمون من تكون له عاقبة الدار» الدنيا، وكلمة واحدة فاصلة «إنه لا يفلح الظالمون».

وعاقبة الدار هي الحياة العاقبة، فهي حياة الرجعة الصالحة في دولة الحق، وحياة البرزخ والقيامة و«له» تعني لصالحه ويقابلها «عليه» و«انه لا يفلح الظالمون» بيان لمن هي

(١) الدر المنثور ٣: ٤٧ - اخرج ابن أبي الدنيا في كتاب كامل الأمل وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري قال: اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت النبي (ص) يقول: ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر أن أسامة لطويل الأمل والذي نفسي بيده ...

عليه ، فإنما الإفلاح في الحياة للصالحين وللطالحين فلج وإفلاج .

وهنا الأمر « اعملوا على مكانتكم » للصالحين أمر تشريع وترغيب
فـ « إني عامل » إخبار بالعمل الرباني لهم توفيقاً هنا وجزاءً في الأخرى ،
و « إني عامل » إخبار ثان بالعمل الرسولي مواصلة في الدعوة الرسالية
وشفاعة لأهلها يوم يقوم الأشهاد .

وهو للطالحين أمر تقريع هو أشد من صراح النهي ، فـ « إني عامل »
إخبار بتقريع رباني هنا وفي الأخرى ، وتقريع رسالي تحقيقاً لواجبه أمام
الناكرين « فسوف تعلمون . . » وهذه الآية على غرار الآية : « قل اعملوا
فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة
فينبئكم بما كنتم تعملون » (٩: ١٠٥) و « إن الذين يلحدون في آياتنا لا
يخفون علينا أفمن يلقى في النار خيراً أمن يأتي آمناً يوم القيامة اعملوا ما
شئتم إنه بما تعملون بصير » (٤١: ٤٠) .

ذلك ، وقد يختص هكذا خطاب بالطالحين كما يخاطب هوّد قومه :
« ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب
يخزيه ومن هو كاذب وارقبوا اني معكم رقيب » (١١: ٩٣) ويخاطب
الرسول (ص) كافة الكافرين : « وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم
إنا عاملون » (١١: ١٢١) .

ذلك، ولكن الأبرز في ميادين الخطاب: « اعملوا على مكانتكم » هم
الطالحون مهما شمل البعض منها الصالحين .

ذلك ، ولو لم يكن الرسول (ص) واثقاً من الحق في دعوته وما يلحقها
هنا وفي الأخرى ، الصالحين صلاحاً والطالحين طلاحاً ، لم يكن من
المعقول ان يأمر الفريقين ان يعملوا على مكانتهم ، ولا سيما الطالحين ان
يعرقلوا سبيل الدعوة كما يستطيعون بـ « اني عامل » عمل المرسل، والرسول

بما امره وأيده ، رسول يهتد بهم بشخصه على رعاية ربه دونما تخوف من جمعهم أولاء الشياطين المعارضين لهذه الدعوة القدسية .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّدُكُونِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيْنَ أَرْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَبْنًى فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا

أُولَٰئِكَ هُمُ السَّفَهَاءُ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً
عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٣٦﴾ * وَهُوَ الَّذِي
أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ
كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ
وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ
حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ
الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٣٨﴾ تَمَنَّى أَزْوَاجٌ مِّنَ
الضَّالِّينَ أَثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ أَثْنَيْنِ قُلْ ءَالِدَاكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ
الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي
بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣٩﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ أَثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ
أَثْنَيْنِ قُلْ ءَالِدَاكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهَٰذَا
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ

عَلِمَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ
فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ
مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا
أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

تنديدات شديدة بالجاهلية العمياء الحمقاء في افتعالاتها وتشريعاتها
واقتراناتها فيها على الله ، تخيلات قاحلة جاهلة لا تستند إلى علم أو إثارة
من علم إلا اتباع الظن الخاوي عن أي دليل إلا تقاليد الآباء القدامى ليس
إلا .

فهؤلاء الحمقى جمعوا كافة الانحرافات والانجرافات في تخلفاتهم
عن حق التوحيد والتوحيد الحق ، فجعلوا أنفسهم آلهة كما هم آلهة
صنعوا آلهتهم من دون الله ، مهما ادعوا أنهم يعبدون من دون الله سواء
وسواهم ، فإن هم إلا عابدي أنفسهم في افتعالاتهم العقيدية والعملية .

هؤلاء يشركون بالله ما لم ينزل به سلطاناً وهم يرون الألوهية الأصلية
لله ، ولكنهم في عبادتهم يوحّدونها عملياً لشركائهم دون الله ، كما
ويختصون نصيباً لله ممّا رزقوا بغير الله ، فلا يعبدون الله - إذا - مع شركائهم
ولا يشركونه في الأنصبة المزعومة :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ

سورة الأنعام / آية ١٣٧ ٢٩٣

بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ
فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ :

فالذرة هو إظهار الله تعالى ما أبداه وأبدعه ، فهو الذرة للزرع
والضرع : الأنعام ، أو الإنسان وسائر الكون : « وهو الذي ذراكم في
الأرض وإليه تحشرون » (٧٩ : ٢٣) .

صحيح أن للإنسان دخلاً في الحرث ولكن الزارع في الحق هو الله :
« وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً
أكله » (١٤١ : ٦) : « أفرأيتم ما تحرثون ، أنتم تزرعونه أم نحن
الزارعون » (٦٤ : ٥٦) .

فـ « ما ذراً » من الحرث « هو الله أصلاً وفصلاً ، وقد جعلهم الله
مستخلفين فيه ولكنهم بحمقهم في عمقهم » جعلوا الله مما ذراً من الحرث
نصيباً فقالوا هذا الله بزعمهم « رغم أنه كله لله لا خصوص ما جعلوه لله ،
وإذا كان هذا الله بزعمهم فليصرف - إذاً - في سبيل الله دون شركائهم ،
فذلك - إذاً - زعمٌ على زعم في « هذا الله » إذ لا يبقى نصيب فيما يزعمونه
- عملياً - لله .

انهم « قالوا هذا الله بزعمهم وهذا لشركائنا » فليصل نصيب كلٍّ إليه ،
فما كان لله يُصرف في سبيله ، وما كان لشركائهم يصرف في سبيلهم ،
ولكن « فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله » إختصاصاً لها أولاً وأخيراً
لشركائهم « وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم » قائلين إن الله غني لا
يحتاج إلى نصيبه ، وشركاءنا فقراء فليكن الكل لهم دون الله « ساء ما
يحكمون » أصلاً وفصلاً ، فأصل تقسيمهم باطل عاطل إذ المال كله لله ،
وفصله بين الله بين شركائهم باطل ثان إذ لا يسوى بالله سواه في أصل أو
فصل ، وتخصيصه بعد باطل الفصل والأصل بشركائهم باطل ، ثالثاً من
باطل الحكم تهكماً وزوراً زين لهم كأنه هو الحق ، تبريراً له أن الله غني

عن نصيبه ، فلماذا جعلتم له نصيباً ؟ لأنه فقير حين جعلتم ثم أصبح غنياً عند إيصاله إليه ! .

ولقد كانوا « إذا اختلط ما جعل للأصنام بما جعل لله ردوده ، وإذا اختلط ما جعل لله بما جعلوه للأصنام تركوه وقالوا : الله غني ، وإذا تخرق الماء من الذي لله في الأصنام لم يسدوه ، وإذا تخرق من الذي للأصنام في الذي لله سدوه وقالوا : الله أغنى » (١) .

وهنا « شركائنا » و « شركائهم » دون « شركاء الله » كمن تكون تصديقاً ضمناً للإشراك ولا لمحة ، فإنما الشركاء المختلفة هي شركاءهم فإنهم هم المختلقون إياهم ، كما وهم شركاءهم في الانتفاع مما جعلوه لهم نصيباً دون الله ، وكما هم شركاءهم في أنهم من خلق الله ، وليسوا بالله أو شركاءه ، فذلك ثالث من الشركاء تعنيه « شركائهم » - و - « شركائنا » .

ذلك ، وهنا التقاء لبسطاء من أهل الكتاب والمسلمين ومجاهيلهم مع المشركين في هذه القسمة الضيزى ، أن يتجهوا إلى أنبياء الله وأوليائه أكثر من الله ، وأن يختصوا بالتجاراتهم ونذورهم وعهودهم وأيمانهم بهم من دون الله إلا أحياناً قلائل ، وترجيحاً عملياً لأمكنة خاصة على بيوت الله ،

(١) نور الثقلين ١ : ٧٦٨ عن المجمع انه المروي عن أئمتنا عليهم السلام ، وفي الدر المنثور ٣ : ٤٧ - اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله تعالى « وجعلوا الله ... » قال : جعلوا الله من ثمارهم ومائهم نصيباً وللشيطان والأوثان نصيباً فإن سقط من ثمرة ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه وإن سقط مما جعلوا للشيطان في نصيب الله ردوه إلى نصيب الشيطان فإن انفجر من سقى ما جعلوا لله في نصيب الشيطان تركوه وإن انفجر من سقى ما جعلوه للشيطان في نصيب الله سرحوه فهذا ما جعل لله من الحرث وسقى الماء وأما ما جعلوه للشيطان من الأنعام فهو قول الله « ما جعل الله من بحيرة ... » .

ولذكر الرسل وأئمة الدين وولايتهم على ذكر الله وولايته ، إلتقاء في ذلك كله مع جاهلية الإشراك بالله في الأصل والقاعدة .

ولئن سألتهم ما هذه الترجيحات المناخرة لعقيدة التوحيد ؟ يجيبون أن الواصل إليهم واصل إلى الله ، والحاصل منهم حاصل من الله ، وأن ولايتهم هي ولاية الله « ساء ما يحكمون » ! :

﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْزَوْهُمْ وَيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (١٣٧) :

«وكذلك» البعيد عن الهدى « زين لكثير من المشركين قتل أولادهم» خشية إملاق أم تقريباً لشركائهم « شركاءهم » في أنهم مخلوقون كما هم ، وفي زعمهم أنهم شركاء الله « زين . . ليردوهم » إرداء إلى الردى وإبعاداً عن الهدى « وليلبسوا عليهم دينهم » لباس الحق في ذلك القتل الفداء إفتراء على الله كأنه هو الذي سمح لهم قتلهم « ولو شاء الله فعلوه » ولكنه ما سيرهم على تركه قضية الاختيار الإختبار « فذرهم » في خوضهم يلعبون « وما يفترون » حين لا تنفعهم الذكرى ولا يشعرون .

فهنا « قتل أولادهم » دون « بناتهم » توحى بأنه لا يعني خصوص وأد البنات ، بل ويعمه إلى قتل سائر الأولاد ذكراً وأنثاً خشية إملاق أو خوفاً هواناً إمساكاً لهم على هون ، أو تقريباً للآلهة كما يضبطه تاريخ الوثنيين في ثالوث قتلهم أولادهم ، والقرآن يصرح بها في آيات كـ « وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت » (٨: ٨١) - « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب » (٥٨: ١٦) « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقهم وإياكم » (١٥١: ٦) ، ذلك وهنا « قتل أولادهم » يعمهما وفداء عن الآلهة .

وأما « شركاءهم » فقد تعني ثالوث الشركاء من آلهتهم التي ألهمهم أو ثنائاً وطواغيت ، تزييناً من كلِّ حَسَبه ، ومن شياطين المشركين المشاركين لهم في الإشراف إذ يوحون إليهم زخرف القول غروراً ، ومن سائر شركاءهم في الإشراف .

ذلك ، ولكن « لكثير من المشركين » قد لا يناسب ثالث ثلاثة ، فهم هم الكثير أنفسهم والقليل هم المضللون لهم ، معبودين لهم أم مضللين يشاركونهم في الإشراف بالله ، فإنهم هم القلة القليلة المضللة للكثرة الكثيرة المضللة .

فقد كانوا يندرون لآلهتهم أن يقدموا البعض من أولادهم لهم سفهاً بغير علم : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين » (١٤٠) - « زين . . ليردوهم » وهو الإهلاك نفسياً وجسدياً ، أن يهلكوهم في الدارين ، فقد يتمثل ذلك الإرداء الإهلاك في قتلهم أولادهم ، ثم في إفساد حياتهم الإجتماعية جملة وتفصيلاً ، وصيرورتهم ماشية ضالة يوجهها رعاتها الشياطين ، تحكيماً مضللاً عليهم في كل حيوية إنسانية ، « وليلبسوا عليهم دينهم » الطاريء وهو الإشراف ، ليلبسوه لباس الدين الحق فإن فيه التضحية في سبيل الله وهم يضحون في سبيل آلهتهم ، ودينهم الأصل الفطري حيث يلبسون بهذه الخرافات اللامعقولة دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ودينهم الذي كانوا عليه من الشرعة الإبراهيمية كما ويفتخرون بابراهيم (ع) .

ثالوث من شركائهم زينوا لهم ليلبسوا عليهم مثلاً من دينهم في ثالوث من قتل أولادهم سفهاً بغير علم ! .

فالتصورات المتلبسة بالدين قد تنشأ ثقلًا ساحقاً لا تقف له جمهرة

الناس البسطاء ما لم يعتصموا بالدين الحق ، وهذه التصورات الجاهلية قد نمت في الجاهلية المتحضرة قدر تقدمها في علومها التجريبية وشهواتها الحيوانية ، جاهلية تختلف أشكالها ومشاكلها ، وتتحد جذورها ومنابعها ، وتتماثل قواعدها وقوانينها .

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثُ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَغْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (١٣٨) :

« وقالوا » بين أقاويلهم المشرعة إفتراء على الله « هذه أنعام وحَرِّث حِجْر » محجور عليها كالأربع المذكورة في المائدة : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » (١٠٣) فهي حِجْر في حقل الأكل « لا يطعمها إلا من نشاء » كخدمة الآلهة من الرجال دون النساء وسائر الرجال ، وحِجْر في حقل الركوب : « وأنعام حرمت ظهورها » على أي راكب « وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها » ومنها التي كانوا يهلئون بها لغير الله ، والتي كانوا لا يركبونها في الحج ، فقد كانت أنعاماً خاصة لردفها به « أنعام لا يطعمها وأنعام حرمت ظهورها » فهي التي كانوا يحرمون ذكر اسم الله عليها دون سائر الأنعام التي يتركونه عليها دون تحريم ، ذكراً لإسم غير الله أو تركاً لذكر أي اسم عليها .

وذلك كله « إفتراء عليه » : الله ، كأنه هو الذي حرم ما حرموه « سيجزيهم وصفهم » المفترى على الله « بما كانوا يفترون » جزاءً وفاقاً .

فقد كانوا يعيّنون قسماً من أنعامهم وحريثهم لآلهتهم فيحرمونها على غير الرجال الخادمين لها السادنين إياها ، وأنعام يحرمون ظهورها كالأربعة المذكورة في المائدة ، المبيّنة فيها ، وأنعام يركبونها ولكنهم لا يذكرون اسم

الله عليها ذبحاً وركوباً فلا يحجون عليها ولا يلثون ، بل يُذكر أسماء
أصنامهم عليها في الحالتين ! .

والفرقة على الله في شرعة تشرع بالأهواء ، هي أخطر من سنّ شرعة
محاددة لشرعة الله ، حيث الأولى تضلل البسطاء حيث تنتقب بنقاب شرعة
الله ، ولكن الثانية ظاهرة جاهرة لا تضلل إلا قليلاً منهم لا يرجون الله وقاراً
فيحادونه جهاراً ، ومن المفترين على الله هؤلاء الذين يزعمون أن الله فوض
إلى رسوله ربوبية التشريع حكومية أو أحكامية ، وأنحس منهم من هم
يحولون هذه الولاية التشريعية - بزعمهم - إلى فقهاء الأمة ، أن لهم سنّ
أحكام حسب المصالح المستجدة ، وأن ولايتهم أهم من أحكام الله
الفرعية ، فلهم أن يبذلوها إلى ما يستصلحون ، وحكمهم فيما حكموا هو
حكم الله ! .

ذلك ! رغم اختلاف أحكام الفقهاء روحية وزمنية ، فهل ان في
أحكام الله اختلاف ؟ أو أن شرعة الله ناقصة تحتاج إلى مصلحيات
الفقهاء ؟ !

هنا آية صارحة بحق ولاية الرسول (ص) الشرعية هي « النبي أولى
بالمؤمنين من أنفسهم » فهل هو أولى منهم بأصل الإيمان فله أن يحوله
كيف يشاء ، فهذه أولوية بأحكام الله من نفسها ، والنتيجة الحاسمة هي
أولوية بالله من الله في أحكامه ! .

كلا ! إنما هي أولويته بالمؤمنين من أنفسهم في حقل رسالته الشرعية ،
وهذه الأولوية الشرعية الطليقة هي قضية عصمته الطليقة ، وأنهم قد
يقصرون في شرعة الله أو يقصّرون ، فهو الذي يسد كل الفراغات والثغرات
الإيمانية بمسد الرسالة المعصومة تبيناً متيناً لا يجهلون ، وتسديداً لهم عما
يتجاهلون ، فقد تختصر ولايته الرسالية وتختصر في تبين أحكام الله
وتحكيمها ، دون زيادة عليها ولا نقيصة عنها ، فإنهما أية تخلقة أخرى

هي كلها تخلف عن رسالة الله ، إذ لا تفويض أباه في أي حكم روعي أو زماني ، وإنما « لتحكم بين الناس بما أراك الله » ليس إلا .

فقد بين الله في كتابه وسنة نبيه كلما تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة من أحكام أولية أو ثانوية أماهيه وليس للرسول (ص) فضلاً عن الفقهاء سنُّ أحكام من عند أنفسهم . وطنطنة أصالة أصول الدين ومنها الولاية الرسالية المحولة إلى فقهاء الأمة ، وأن الفروع هي فروع لها ، فلتتقدم ولاية الفقيه التشريعية على الأحكام الفرعية ، إنها طنطنة حمقاء والله منها براء ، حيث الرسالة التي هي من أصول الدين لا تعني في أصلها إلا بيان الوحي الرسالي ، فأين المعارضة بين الرسالة وأحكامها حتى يأتي دور تقدم الأصل على الفرع ؟ ثم ولا أصالة للرسالة إلا بيان أحكام الله دون مناصرة لها بمصلحيات مختلقة ، فلو أن الرسول تخلف عن حكم من أحكام الله لخرج عن الرسالة إلى الربوبية .

ومن ثم إن قضية خلود الشريعة الإسلامية عدم التبديل في أحكامها ولا قيد شعرة ، فالله نفسه إذ ختم دينه بهذه الشريعة لا يرى لنفسه ولاية تشريعية في تبديلها ، فكيف تكون هذه الولاية المصلحية لفقهاء الأمة ؟!

كلًّا وألف كلًّا ، فان الضوابط المسرودة في الكتاب والسنة فيها الكفاية للمكلفين إلى يوم الدين ، وليس للفقيه إلا استفراغ الوسع لاستنباطها من الكتاب والسنة .

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّثْقَالُ ذَرَّةٍ فِيهِ شُرْكُوكُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٣٩) :

« ما في بطون هذه الأنعام » قد تعم البانها إلى أجنتها إلا أن الألبان هي - بالفعل - في الضروع لا في البطون ، مهما كان أصلها في البطون ،

وأن « وإن يكن ميتة » تخص الأجنة دون الألبان ، ثم الألبان لم تحرم في وقت ما على صغار البنات ولا سواهن من الأناث ، ومن ثم « أما اشتملت عليه أرحام الأئنيين » تقرر المعنى مما في بطون هذه الأنعام أنها الأجنة .

« خالصة لذكورنا » فقط « ومحرم على أزواجنا » وهن كل الأناث ، تزوجت أم لما أم لا ، لمقابلتهن به « ذكورنا » و « إن يكن » و « ما في بطون هذه الأنعام » « ميتة » ماتت في بطونها أو عند موتها أو ذبحها ، أم وبعد ولادها « فهم فيه شركاء » أزواجهم « سيجزيهم وصفهم » هذا إفتراء على الله ، فرقاً بين الذكور والأناث فيما في بطون هذه الأنعام « إنه عليهم » بما قالوا « حكيم » بما يجزيهم ، وترى ما هو دور « هذه الأنعام » دون « الأنعام » ؟ قد تعني « هذه » أنعاماً خاصة كالبحيرة : التي درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة : التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء .

ثم كيف هي « خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا » وكلا الخالصة والمحرم وصفان لما في بطون هذه الأنعام ؟ قد تكون تاء « خالصة » للمبالغة ، أم هي للتأنيث اعتباراً بالأجنة المعنية من « ما في بطون » و « محرم » مذكراً اعتباراً بلفظ « ما » أم ولأن كلا الوجهين جائزان حيث الموصوف المؤنث في عناية « ما » ليس إلا مجازياً .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١٤٠) :

تلحيفة لما سلف حقيقة بالذكر في ختام العرض لبعض ما تقولوه خلاف شرعة الله ، ذكراً لأهم الخطرات الخاسرة الأنفسية : « قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم » ثم تحريم قسم ما رزقهم الله افتراءً على الله أنه هو الذي حرّمه « قد ضلوا » عن الحق « وما كانوا مهتدين » إلى الحق .

وهنا « قتلوا أولادهم » تعم ثالوث قتلهم دون إختصاص ببعض دون بعض لمكان « أولادهم » دون « بناتهم » ولا تقييد لـ « أولادهم » في حقل القتل بجانب دون آخر .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١٤١) :

هذه من غرز الآيات المعممة للزكاة على كافة الثمرات ، وقد سبقت نظيرتها بفارق عدم التصريح بحقه يوم حصاده حيث استبدل عنه بـ « أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » : « وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (٩٩: ٦) حيث الأمر بالنظر يعم النظر المعرفي والمصرفي إيتاء لحقه يوم حصاده دون إسراف سلبياً أو إيجابياً .

فقد يتقدم النظر المعرفي إلى ثمره إذا أثمر وينعه على النظر المصرفي إذناً في الأكل منه : « كلوا من ثمره إذا أثمر » وأمرأ بإيتاء حقه يوم حصاده : « وآتوا حقه يوم حصاده » فهما متشابهتان تفسر بعضهما بعضاً و « إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .

« وهو » لا سواء « الذي أنشأ » تكويناً بديعاً « جنات » البساتين تجن شجراتها حيث تلتف من فوق الأرض في فضائها « معروشات » عرّشها إنسانها كالأعنان ، أم ربها كالنباتات الملتفة بالأشجار ، المجتنة مع بعضها البعض من فوقها « وغير معروشات » كسائر الأعنان غير المعروشة وسائر الأشجار دون عروش لها إنسانية ولا ربانية .

ومن غير المعروشات وهي المستقلة في قيامها « والنخل والزروع مختلفاً
أكله والزيتون والرمون متشابهاً » كل في أثمارها ، في طعومها واشكالها
والوانها وسائر أقدارها ، وغير متشابه في هذه بعضها أو كلها .

« كلوا من ثمره إذا أثمر » : من ثمر المنشأ بأمر الله ، أو من ثمر ما ذكر
دون إختصاص بالآخر وهو الرمان ، إذ لا إختصاص له بسماع الأكل وإيتاء
الحق ، وحتى لو اختلف بالآخر لكفى تدليلاً على واجب الزكاة في الرمان
نقضاً لاختصاصها بالغلات الأربع .

والأمر بأكله إذا أثمر سماح له حيث الموقف موقف الحظر ، لأن
المنشأ لها هو الله : « هو الذي أنشأ » فهو المالك لها فلا يجوز الأكل
منها إلا بإذنه ، ثم « وآتوا حقه » دليل أن الفقراء هم شركاءهم فيه ، فهذا
محظور ثان للأكل منه قبل إيتاء حقه .

ولكنه تعالى رحمة منه ، وتقديماً لصاحبه على غيره في الأكل منه ،
بأمرنا سماحاً « كلوا من ثمره إذا أثمر » تلحيقاً له بإيتاء حقه : « وآتوا حقه
يوم حصاده » وهو الزكاة المفروضة « ولا تسرفوا » في الأكل من ثمره تجاوزاً
عن حق الأكل : العدل المعتدل ، إسرافاً في قدره فوق الحاجة ، أم إسرافاً
في صرفه وإن قليلاً في المعصية ، أم إسرافاً في إشراك الأصنام في الحرث
والأنعام ، ثم تقتيراً في التصديق منه (١) .

كما « ولا تسرفوا » في الإيتاء منه أن تؤتوا كله أو كثيراً منه بلا إبقاء

(١) نور الثقلين ١ : ٧٧١ عن القمي بسند متصل عن أبي عبد الله (ع) حديث طويل يقول
فيه (ع) : وفي غير آية من كتاب الله يقول : انه لا يحب المسرفين « فنهاهم عن
الإسراف ونهاهم عن التقتير لكن امر بين امرين لا يعطي جميع ما عنده ثم يدعو الله
أن يرزقه فلا يستجيب له .

لقدر الحاجة (١) ، أم في ترك الأكل منه كالعادة (٢) أم في إيتاءه لغير مستحقه ، أم في تقسيمه بلا تسوية بين المحاويع قدر الحاجة ، فكلوا منه عدلاً وآتوا حقه يوم حصاده عدلاً وفضلاً « إنه لا يحب المسرفين » أي كانوا وفي أي كان وأيان .

هنا « آتوا حقه يوم حصاده » : حق ما ذكر وحق الله - فحق الله حق فيما ذكر لأهل الله - برهان ساطع لا مرد له على حق مقدّر معلوم يؤمر صاحب الجنات والمزارع بإيتاءه يوم حصاده ، كما و « في أموالهم حق معلوم - للسائل والمحروم » (٢٥: ٧٠) وإن كان أيضاً « في أموالهم حق للسائل والمحروم » (١٩: ٥١) ولكنه أيضاً معلوم به حق معلوم .

إذا فـ « حقه يوم حصاده » هو الحق الواجب إيتاءه دون إقتار ولا إسراف ، وذلك من بدائيات الحق المعلوم ، ومن ثم الأنصبة المسرودة في السنة مرحلة ثانية لحقه يوم حصاده .

والقول « إنه حق غير واجب الزكوة » ، إذ ليس في بعض ما ذكر في

(١) روى الطبري وغيره عن ابن جريج قال : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جد نخلأ فقال : لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته فأطعم حتى امسى وليست له ثمرة فأنزل الله « ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » اقول : ذلك من باب الجري حيث الآية مكية وقصة بن قيس مدنية ، فقد ينطبق كل إسراف على الآية كما هي القاعدة في كل الآيات المبينة لمثلها من القواعد ، أو الخطابات الخاصة بالغاء الخصوصية لشمولية الأحكام القرآنية .

(٢) المصدر علي بن ابراهيم عن ابيه عن ابن ابي عمير عن هشام بن المشي قال : سأل رجل ابا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل « وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » فقال : كان فلان بن فلان الأنصاري - سماء - وكان له حرث وكان إذا أخذ يتصدق به ويبقى عياله بغير شيء فجعل الله عز وجل ذلك سرفاً .

الآية زكاة ، على أن الآية مكية وحكم الزكاة مدني ^(١) ، إنه غريب في نوعه ، إذ إن « ليس في بعض ما ذكر في الآية زكاة » هي في نفسها مصادرة ودعوى دون برهان إلا ضده كتاباً وسنة، ومن الكتاب الآية نفسها الفارضة الزكاة على غير الغلات الأربع وإن لم تأت فيها صيغة الزكاة ، إذ نحن مع واجب الإيتاء ، نتابع دليله أيّاً كانت صيغته ، إيتاء وإعطاء وإنفاقاً وصدقة وخمساً وزكاة ، فلا تهماña صيغة خاصة في واجب الأداء مهما اختلفت تقديراته كضرائب مستقيمة وغير مستقيمة .

فالإيتاءات الشرعية كلها إعطآت وصدقات وإنفاقات وزكوات ، بل والكل كذلك زكوات حيث الزكاة هي المعطاة المزكية لنفس المزمكي ونفيسه ، والمزكية لدنس الفقر فردياً وجماعياً ، حالياً ومالياً ، الجاعلة المجموعة المتفاوتة المتهافئة متعارفة متألّفة كأسنان المشط حيث تعيش بذلاً دون أية منة أو جور ، وسامحاً متعالياً قد يجعل الفقير في حرمة أكثر من الغني .

ثم حكم الزكاة ليس حكماً مدنياً حتى يستغرب ذكره في هذه المكية ، فإن عشرات من آيات الزكاة تحلّق على العهدين ، من مكيات تسع تفرضها ^(٢) ومدنيات أربع تتحدث عن فرضها في الشرائع السالفة ^(٣) فإنها تنجر إلى شرعة الإسلام ما لم تنسخ ، ثم مكيات ثلاث منها هذه « وآتوا

(١) كما في الميزان للمغفور له العلامة الطباطبائي قدس الله روحه ٣١٣:٧ وغيره من المفسرين ومؤلفي آيات الأحكام وسائر الفقهاء ، فقد تناقله العلامة الطباطبائي دون مراجعة إلى الآيات المكية للزكاة اعتماداً على النقل .

(٢) وهي ١٥٦:٧ و ٤:٢٣ و ٣:٢٧ و ٣٩:٣٠ و ٤:٣١ و ٧:٤١ و ١٤:٨٧ و ٢٠:٧٣ و ١٨:٩٢ .

(٣) وهي ٤٣:٢ و ٣١:١٩ و ٥٥ و ٧٣:٢١ .

سورة الأنعام / آية ١٤١ ٣٠٥

حقه يوم حصاده « وآية المعارج » في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم « (٢٥) والذاريات (١٩) باستثناء « معلوم » الذي هو معلوم من آية المعارج ، والجمع : (١٦) آية مكية في فرض الزكاة مكيّاً ، ثم المدنية الخاصة بها (١٤) آية تعني الزكاة بوجه عام ، فأين اختصاص فرض الزكاة بالعهد المدني ، اللهم إلا الأنصبة الخاصة المدنية قضيةً المرحلية في بيان الأحكام

ذلك ، بل هي من أوليات الفرائض المكية ، نراها مع الصلاة قرينتين في كثير من آياتها (١) ونحن لا نعرف سوى الخمس - إن كان غير الزكاة - ضريبة إسلامية مفروضة بصورة عامة سوى الزكاة ، وكما يروى عن النبي (ص) « ليس في المال حق سوى الزكاة » (٢) .

صحيح أن هنالك آيات تأمر بالإنفاق والإيتاء والتصدق والإعطاء والتخمس خالية عن لفظ الزكاة ، ولكنها تعم الضريبة المستقيمة الشاملة وهي الزكاة المعبر عنها بـ « حقه » و « حق معلوم » والضريبة غير المستقيمة الخاصة بموارد الحاجة كما « يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (٢: ٢١٩) وهو الزائد عن الحاجة المتعادة دون إسراف ولا تبذير أو تقتير .

(١) وكما في وسائل الشيعة ٦: ٥ صحيحة الفضلاء الأربع محمد بن مسلم وأبي بصير وبريد وفضيل كلهم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالا : فرض الله الزكاة مع الصلاة ، وعن نهج البلاغة عن علي (ع) : تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا عليها . . ثم إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام فمن أعطاها طيبه النفس بها فإنها تجعل له كفارة ومن النار حجاباً ووقاية فلا يتبعها أحد نفسه ولا يكثرن عليها لهفه وإن من أعطاها غير طيب النفس بها يرجو بها ما هو أفضل منها فهو جاهل بالسنة مغبون الأجر ضال العمل طويل الندم « وفيه عنه (ع) سؤسوا إيمانكم بالصدقة وحسنوا أموالكم بالزكاة وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء » .

(٢) تفسير الفخر الرازي ١٣: ٢١٤ .

وعلى أية حال لا مشاحة في لفظة الزكاة وسواها فإنها تعم كل إيتاء يزكي المال والحال والمجتمع عن مختلف الأدران الفردية والجماعية ونكباتها .

فهذه الآية هي من الآيات التي تثبت حقاً ثابتاً في كل الثمرات ، دون اختصاص بالغللات الأربع المخصصة في الفتاوى في حقل الزكاة ، فعليك إيتاء حقه ثم سمّه ما شئت زكاةً أو غير زكاة .

أجل قد تختلف حالة الزكاة في العهد المكي عن العهد المدني كما اختلفت في نفس العهد المدني ، اختلافاً في أنصبة الزكاة ومواردها ، سياسة تدريجية في أخذ الزكاة ، مرحلية في أبعادها ، أداءً وأخذاً وقدرًا كما تأتي في آيتي الصدقات : « خذ من أموالهم صدقة . . » « إنما الصدقات للفقراء والمساكين . . » .

ومختلف الحديث حول « آتوا حقه يوم حصاده » معروض على القرآن فيصدق ما وافقه ^(١) ويؤول أو يطرح ما خالفه ^(٢)

(١) من الموافق للآية ما في الدر المنثور ٣ : ٥٠ - اخرج عبد بن حميد عن قتادة « وآتوا حقه يوم حصاده » قال : الصدقة التي فيه ذكر لنا ان نبي الله (ص) سن فيما سقت السماء أو العين السائحة أو سقى النيل أو كان بعلاً العشر كاملاً وفيما سقى بالرشا نصف العشر وهذا فيما كان يكال من الثمر . . » .

وفيه اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس « وآتوا حقه يوم حصاده » يعني الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيله ، وفيه عن طاوس مثله وعن الحسن في الآية قال هو الصدقة من الحب والثمار ، وذهب إليه سعيد بن المسيب والضحاك .

ومن طريق أصحابنا في نور الثقلين ١ : ٧٧٠ عن الكافي عن القمي عن أبيه عن حماد بن عيسى عن جريس عن زرارة ومحمد بن مسلم وأبي بصير عن أبي جعفر عليهما السلام في قول الله عز وجل : « وآتوا حقه يوم حصاده » فقالوا جميعاً قال أبو =

جعفر عليهما السلام هذا من الصدقة تعطي المسكين القبضة بعد القبضة ومن الجذاد الحفنة بعد الحفنة حتى يفرغ ويعطي الحارث أجراً معلوماً فيترك من النخل معافاة وام جعور و يترك للحارسين يكون في الحائط العذق والعذقان والثلاثة لحفظه اياه .

وفيه عن تفسير العياشي عن سماعة عن ابي عبد الله (ع) عن ابيه عن النبي (ص) انه كان يكره ان يصرم النخل بالليل وان يحصد الزرع بالليل لان الله يقول : « وآتوا حقه يوم حصاده » قيل يا نبي الله وما حقه ؟ قال : ناول منه المسكين والسائل ، وفيه عنه عن ابي بصير عن ابي عبد الله (ع) في الآية : فسماء الله حقاً ، قال قلت : وما حقه يوم حصاده ؟ قال : الضفت وتناوله من حضرك من اهل الخاصة ، ورواه مثله أبو الجارود عن ابي جعفر عليهما السلام ، وفي الصحيح عن زرارة ومحمد بن مسلم وابي بصير في الآية هذا من الصدقة يعطي المسكين القبضة بعد القبضة ومن الجذاد الحفنة بعد الحفنة حتى يفرغ .

(٢) في الدر المنثور ٣: ٤٩ عن ابي سعيد الخدري عن النبي (ص) في الآية قال : ما سقط من السنب ، وفيه أخرج أبو عبيد وابن المنذر عن انس ان رجلاً من بني تميم قال يا رسول الله (ص) أنا رجل ذو مال كثير واهل وولد وحاضرة فأخبرني كيف انفق وكيف اصنع ؟ قال : تخرج زكاة مالك فانها طهرة تطهرك وتصل اقاربك وتعرف حق السائل والجار والمسكين .

ومن طريق اصحابنا في الوسائل (٦: ١٣٤) عن ابي مريم عن ابي عبد الله (ع) في الآية قال : تعطي المسكين يوم حصادك الضفت ثم إذا وقع في البدر ثم إذا وقع في الصاع العشر ونصف العشر ، وفي نور الثقلين ١: ٧٧٠ عن الكافي عن معاوية بن شريح قال سمعت ابا عبد الله (ع) يقول : في الزرع حقان حق يؤخذ به وحق تعطيه ، قلت : وما الذي يؤخذ به وما الذي اعطيه ؟ قال : اما الذي تؤخذ به فالعشر ونصف العشر واما الذي تعطيه فقول الله عز وجل : « وآتوا حقه يوم حصاده » يعني من حصدك الشيء بعد الشيء ولا اعلمه إلا قال الضفت ثم الضفت حتى يفرغ .

اقول : من الملاحظ في احاديث الحقيين انهما يتعلقان بما ذكر في الآية ككل ، فقد دلت - على أية حال - على تحليق واجب الزكاة على كل الثمار .

ثم قد يعني الحقان ان الأول هو الفرض المكي والثاني هو الفرض المدني ، وحتى ان كانا في المدنية فالحق المكي هو الأول .

ذلك ، وآيات الزكاة كلها طليقة أو عامة في كل الأموال ولا تقبل التخصيص بالتسع المشهورة فإنه تخصص للأكثرية الساحقة من الأموال ، مع أن روايات التسع معارضة - على قلتها وعلتها - بزهاء مائة حديث تدل على عمومية الزكاة، وتلك زهاء عشرة متضاربة ومعارضة للقرآن والسنة ، اللهم إلا أن تفسر بمرحلية الزكاة في « عفى رسول الله (ص) عما سوى ذلك » حيث يدل على أن فرض الله في الزكاة يحلّق على كل الأموال ، فعفى رسول الله (ص) عما سوى التسع كسياسة المرحلية في تطبيق فرضها ، إذ لا يحق للرسول (ص) أن يعفو عما فرض الله إلا تدرجاً في تحقيق ما فرض الله .

ذلك ، ولأن الزكاة حسب المستفاد من الآيات والروايات تكفي مؤنة فقراء المسلمين وسائر الحاجيات الفردية والجماعية الإسلامية المذكورة في مصارف ثمانية ، وحين تختص بالتسعة الشهيرة على قلتها القليلة وعلتها العلية ليست لتكفي مؤنة الفقراء من هؤلاء الثمان فقط ، بل ولا مؤنة يوم واحد من السنة ، فكيف يعقل إختصاصها بهذه التسعة ، وكما قد يأتي القول الفصل في موارد الزكاة في آيتي « خذ من أموالهم » و « إنما الصدقات . . » ونكتفي هنا بما تقتضيه آيتنا .

وقد يقال إن الزكاة ليست حق يوم الحصاد بل هو حق يوم الجمع ، فحق يوم حصاده حق سوى الزكاة ؟ ولكن « حقه يوم حصاده » كما تعني « آتوا يوم حصاده » كما في البعض من الثمار ، كذلك تعني « حقه يوم حصاده » وهو الحق المتعلق بالثمار يوم الحصاد ، ثم « آتوا » طليقة - فكما - تناسب إيتاءه يوم حصاده ، كذلك تناسب أصل إيتاءه في وقته المقرر له كيوم جمعه لجمع من الثمار .

ولا أشمل من « آتوا حقه يوم حصاده » حيث تجمع الإثنين، يوم حصاده

لما يجمع في نفس الوقت من الخضر ، ويوم جمعه لما لا يجمع يوم حصاده .

والقول إن الحصاد لا يشمل الفواكه من الزيتون والرمان ، مردود بأن الحصاد هو القطع ولا يختص بشيء خاص وكما « حتى جعلناهم حصيداً خامدين » (٢١: ١٥) وقول النبي (ص) يوم فتح مكة: «ترون أوباش قريش أحصدوهم حصداً» فيوم حصاده هو يوم قطعه فاكهة وحجاً وما أشبه مما يُقطع ويُقطف من الثمار .

وأما المروي عنه (ص) : ليس في الخضروات صدقة^(١) فساقط لمخالفته آيات الصدقات والزكوات المتعلقة بكل الأموال ، وهنا « الزرع » طليقة تشمل كل الزروع دون استثناء ، وترى « يوم حصاده » تعني يوم حصاد كل الثمر ، فما حصده قبل ليس فيه حق ؟ الظاهر من « كلوا من ثمره » أن ليس فيما يأكله قبل حصاد الكل حق ، اللهم إلا فيما يحصده تدريجياً لأجل بيعه فإنه داخل في « يوم حصاده » حيث القصد هو الحصاد من أجل البيع أو الإبقاء لأكل الأيام التالية حتى آخر السنة ، إذا فالمستثنى من إتياء حقه هو ما يؤكل تدريجياً قبل حصاد الكل أو الحصاد للبيع .

فقد يقتسم كل ذلك إلى ما يؤكل منه كالعادة المستمرة ، وما يباع ، وحقه يوم حصاده يختص بالثاني .

﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءُ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١٤٢):

كما من الأنعام أكل كذلك « ومن الأنعام حمولة وفرشاً » يتعمد فرشها

(١) آيات الأحكام للجصاص ١٤: ٣ بسند عن موسى بن طلحة عن أبيه أن رسول الله (ص) قال:

والحمل عليها ، فالحمولة هي المعتدة للحمل « وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » (١٦: ٧) كما وتحملكم ، « وفرشاً » من أصوافها وأوبارها حيث تصنعون بها فرشكم ، وفرشاً تفرش لصغرها ، أم عدم تحملها للحمل كالضبي وما أشبه ، ومنها ما تجمع كونها حمولة لكم ولأثقالكم وفرشاً من أوبارها كالإبل .

وهنا « من الأنعام » عطف على « أنشأ جنات » و « أنشأ لكم » من الأنعام حمولة وفرشاً أم و « كلوا . . » وكلاهما صالحان والجمع أجمل .

وقد تلمح « كلوا مما رزقكم الله » أن « فرشاً » لا تعني فرش الأصواف والأوبار حيث لا تناسب الأكل ، إضافة إلى أن « حمولة » تلمح إلى أن « فرشاً » هي نفس الأنعام دون أجزاءها الصوفية والوبرية .

فمن الأنعام ما هي حمولة للأثقال وفرش للركب ، ومنها ما هي فرش للركب لا تستعمل لحمل الأثقال كأفراس الركوب ، أم لا تصلح لأي حمل كالضأن والمعز فهي فرش في أصوافها ، وفرش تفرش للذبح أم هي كالفرش لصغرها فهي أمثال الفرش المفروش عليها .

وهل يجوز الأكل منها على كونها حمولة وفرشاً ؟ « كلوا مما رزقكم الله » نعم جل الأكل كأصل اللهم إن لطوارئ وملابسات ، مثل الفرس الذي يسوى الآفاً وما قيمة لحمه إلا عشرات ، فإن أكل لحمه سرفٌ وهناك عنه بديل كالأنعام الأكل بثمان قليل وطعم ألد ، فالتحليل - إذاً - ليس إلا بالنسبة لأصول الحمولة والفرش مع غض النظر عن الحالات الطارئة .

« كلوا مما رزقكم الله » محللة إلا ما حظر عليه الله « ولا تتبعوا خطوات الشيطان » تحريماً لما أحله الله أو تحليلاً لما حرمه الله ، تشريعياً أو عملياً ، فإن للشيطان خطوات فيما رزقكم الله من قصيرة يسيرة إلى وسعة عسيرة وإلى أوسع وأعسر حتى يوردكم موارد الهلكة إجلالاً لكم

على كرسى التشريع إفتراءً على الله أو محادة ومشاقة لله « إنه لكم عدو مبين » يبين عداؤه فيما يخطوبكم من خطواته المضللة المزللة .

هذا رزق الله وخلقه، والشيطان لم يخلق شيئاً ولم يرزق، فما لكم تتبعونه في رزق الله وخلقه وهو لكم عدو مبين ! .

ومن غريب الوفق عددياً توافق الشيطان والملك في القرآن بمختلف صيغهما ، في (٦٨) مرة ، كفاحاً بينهما كما هو قضية العدل ولكن النجاح للملائكة حيث هم مؤيدون من عند الله العزيز الحكيم .

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِينَ حَرَّمُوا
أُمُّ الْأُنثَيْنِ أُمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ نُبَشِّرُهُنَّ بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴾ (١٤٣) :

« ثمانية أزواج » هنا بدل البعض عن الكل حيث الأنعام الحاملة والفرش أكثر من هذه الثمانية الأزواج التي هي أربعة : ضأن ومعز وإبل وبقر ، ذكراً وأنثى ، حيث الأفراس والحمير وأشباههما من الإناث - ولا سيما صيدها - خارجة عن هذه الأربعة ، فهذه الأنعام « تعم كافة ذوات القوائم الأربع المحملة أكلاً وحمولةً وفرشاً دون اختصاص بهذه الأربع .

فهو الذي أنشأ هذه الأنعام ، وأهمها هذه الأزواج الثمانية وأنتم تحرّمون منها وتحللون وذلك شأن من أنشأها دونكم أنتم المنشئين كما هي ، ثم : « قل » لهؤلاء المجاهيل « ءالذين حرموا » من الضأن والمعز « أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين » وحين تدعون تحريماً بين هذه الثلاثة ، إذاً فهذه نبشرون بعلم « على ذلك وهو الوحي » إن كنتم صادقين « في دعواكم .

ذلك ، ولأن التحريم كما التحليل لرزق الله ومنشأته لا يحمله إلا علم الله ، وهو وحيه إلى أصحاب الوحي ، فهل أنتم منهم فتدعون ما

تدعون ، أم أوحى إليّ ما لا أعلمه وأنتم تعلمون ؟ .

« ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قلّ الذكّرين » (١٤٤) فما هو « علم » يثبت ما تدعون ؟ أهو شهادة الله ووحيه ؟ « أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا » إدعاءً لوحى يختص بكم أنتم المشركين وأنا الرسول من الله عنه محروم ؟ وذلك إفتراء على الله أن يوحى إلى أمثالكُم ، أو يختصكم أنتم بما يحرم عنه رسله ! « فمن أظلم ممن إفتري على الله كذباً ليضل الناس بغير علم » : وجدانيّ ، لا سبيل له إلى حكم الله ، أو وحي يختص بأصحابه « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » الذين يظلمون شرعة الله وأهل الله .

وهنا « ثمانية أزواج » تعني الأربعة المزدوجة من الذكورة والأنوثة ، حيث الذكر زوج الأنثى كما الأنثى زوج الذكر ، واختصاص هذه الأربعة بالذكر هنا وفي الزمر : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » لأهميتها البالغة بين الأنعام ، وأن فيها حمولة وفرشاً وأكلاً ، وكل زوج من هذه الثمانية يعم الوحشية الجبلية منها إلى أهليتها ، فلا يعني « الأنثيين » الوحشي والجبلي لمكان « الذكّرين حرم أم الأنثيين » وإلا أصبحت ستة عشرة زوجاً^(١) . لا ، إنما هما الذكر والأنثى كما « خلق الزوجين الذكر والأنثى » (٤٥:٥٣) .

(١) نور الثقلين ١ : ٧٧٤ عن تفسير القمي قال (ص) : قوله : « من الضأن اثنين » عن الأهلبي والجبلي « ومن المعز اثنين » عن الأهلبي والوحشي الجبلي « ومن البقر اثنين » يعني الأهلبي والوحشي الجبلي « ومن الأبل اثنين » يعني البخاتي والعرب فهذه أحلها الله « وفيه عن روضة الكافي عن أبي عبد الله (ع) مثله قال : حمل نوح (ص) في السفينة الأزواج الثمانية قال الله عز وجل : « ثمانية أزواج . . . » وفيه عن الكافي عن داود الرقي قال : سألتني بعض الخوارج عن هذه الآية « من الضأن اثنين . . . » ما الذي أحل الله من ذلك وما الذي حرم ؟ فلم يكن عندي فيه شيء فدخلت على أبي عبد الله (ع) وأنا حاج فأخبرته بما كان فقال : إن الله تعالى أحل في الأضحية =

سورة الأنعام / آية ١٤٥ ٣١٣

ذلك ، وهذه مواجهة دقيقة رقيقة يتتبع بها مكامن أوهام الجاهلية الجَهلاء ، استعراضاً لكل واحد من المواضع والمواضع التي تجاهلوا عن حقها إلى أباطيلها، ليكشف فيها عن السُخف الذي لا يقبل دفاعاً ولا تعليلاً إلاً عليلاً ضئيلاً لحيدٍ يخجل منه صاحبه حين ينكشف له النور ويرى ألاً سند له من علم أو إثارة من علم إلاً تقاليد عمياء .

لذلك هنا يقرر لهم ما حرمه الله لكيلا يتجاوزوه إلى سُخف التشريع منهم إفتراء جاهلاً على الله :

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤٥):

هنا « ميتة أو دماً مسفوحاً » - تنكرأ فيهما - تلمح لكون الآية هي أولى ما نزلت بشأن محرمات الأنعام ، وقد نزلت بعدها مكية ثانية تشير إليها : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلن الله غفور رحيم » (١٦: ١١٥) ثم في مدنية

بمعنى فإلضان والمعز الأهلية وحرم ان يضحي بالجبلية وأما قوله : « ومن الأبل اثنين ومن البقر اثنين » فان الله تعالى أحل في الأضحية الأبل العرب وحرم فيها البخاتي وأحل البقر الأهلية ان يضحي بها وحرم الجبلية فانصرفت الى الرجل فأخبرته بهذا الجواب فقال : هذا شيء حملته الأبل من الحجاز .

أقول : حرمة الجبلية في الأضحية لأنها من الصيد المحرم في الحرم والاحرام ، وأما الحديثان الأولان فقد لا يناسبان ظاهر الآية حيث تعني كل ذكر وأنثى لا كل أهلي ووحشي ، اللهم إلا أن يعني « اثنين » كلا الاثنين ، ذكراً وأنثى وأهلياً ووحشياً ، ولكن الفصيح - إذا - ان يقال ستة عشر أزواج ، ثم الأهلي والوحشي من كل يعتبر واحداً .

أولى : « إنما حرم .. وما أهل به لغير الله فمن اضطر .. فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم » (١٧٣: ٢) ومن ثم في مدنية أخرى هي الأخيرة من السور « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيت وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق .. فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » (٣: ٥) .

فالمحرمة من بهيمة الأنعام - وهي فقط حقل التحريم في هذه الآيات - ليست إلا ما ذكر في الأنعام هنا وفي الثلاث الأخرى ، وفي آخرتها مزيد قضية ختام الوحي بها ، ولكنه مزيد إيضاح ، حيث « المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع » إذا ماتت بهذه الأسباب فهي من مصاديق « الميتة » وإن لم تمت فـ « إلا ما ذكيت » تحللها ، ثم « وما ذبح على النصب » وهي من مصاديق « ما أهل لغير الله به » وأما « أن تستقسموا بالأزلام » فليست محرمة في خصوص حقل الأنعام بل هي من الميسر المحرم في آتي البقرة والمائدة ، إذاً فلا محرم في حقل الأنعام أصلياً من حيث المجموعة ، دون أجزاء من كل منها ، إلا « الميتة وما أهل لغير الله به » تذكيراً بشرط أصيل للحل وهو الذبح الشرعي ، وآخر كشيرة توحيدية مضادة لشعيرة الشرك وهو ذكر اسم الله عليه ، فلأن الإهلال حسب المتعود لم يكن يخرج من كونه لله أو لغير الله ، فتحريم ما أهل لغير الله به إيجاب للإهلال لله كما فصلنا كل ذلك في المائدة ، ذلك وفي احتمال « لا أجد » الحالة الحاضرة تصبح آية المائدة مفصلة لهذه المحرمات أو مزيدة عليها ما لا يدخل فيها ظاهراً بيئاً ، ولكن الأول أظهر .

وهنا « دماً مسفوحاً » كنص أولي لتحريم الدم ، تحول حوله النصوص الثلاثة الأخرى النازلة بعدها « الدم » فاللأم فيها هي لعهد الذكر ، فتعني « دماً مسفوحاً » ذكر من ذي قبل ، فلا يحرم من الدم إلا المسفوح منه مهما

اطلق في التوراة حرمة الدم دون تقييد بمسفوح وسواه ^(١) والتفصيل محول إلى آية المائدة فراجعها .

وقد تعني « لا أجد » مضارعة - تشمل الحال والاستقبال - عدم وجدان محرم أصيل في حقل بهيمة الأنعام إلا هذه المذكورات منذ نزول هذه الآية حتى الوحي الأخير على ذلك البشير النذير ، فما ورد في تحريم لحوم الحمر الأهلية أو سواها مرفوضة ^(٢) ، فإنما يحرم المفترس من الحيوان لا سواه وكما ثبت عن النبي (ص) انه « نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير » ^(٣) فكل ما ليس من الأنعام من حيوان

(١) في التورات سفر اللاويين ١٧: ١٢ « لذلك قلت لبني اسرائيل لا تأكل نفس منكم دماً ولا يأكل الغريب النازل في وسطكم دماً » ومثله في التكوين ٩: ٤ .

(٢) مثل ما في آيات الأحكام للجصاص ٣: ٢٠ من حديث الزهري عن الحسن وعبد الله ابني محمد بن الحنفية عن ابيهما انه سمع علي بن ابي طالب (ع) يقول لابن عباس نهى رسول الله (ص) عن اكل لحوم الحمر الإنسية وعن متعة النساء » ورواه عنه (ص) ابن عمر وجابر والبراء بن عازب وابن ابي اوفى وسلمة بن الأكوع وأبو هريرة وأبو ثعلبة ، والمقداد بن معدى كرب وابو ثعلبة الخشني وانس بن مالك وسعيد بن جبير ، روه عنه (ص) مثله ، ويعارضه - بعد الآية - ما روي عن عبد الرحمن بن مغفل عن رجال من مزبة فقال بعضهم غالب بن الأجر وقال بعضهم الحر بن غالب انه قال : يا رسول الله (ص) انه لم يبق من مالي شيء استطيع ان اطعم فيه اهلي غير حمرات لي قال : فاطعم اهلك من سمين مالك فانما كرهت لكم جوال القرية ، اقول : بذلك يتبين المعنى من حرمة الحمر الأهلية انه من باب الإسراف دون الحرمة الذاتية ، وهكذا الأمر في الافراس واشباهها من الركوب التي هي اصلح للركوب من الأكل ، وكما في نور الثقلين ١: ٧٧٤ عن التهذيب عن ابي جعفر عليهما السلام في حديث ونهى رسول الله (ص) عن اكل لحم الحمير والخيول وانما نهاهم لأجل ظهورهم ان يفنوه وليست الحمر بحرام ثم قرأ هذه الآية .

(٣) المصدر ٢٢ عن ابن عباس قال : نهى رسول الله (ص) . . ورواه علي بن ابي طالب =

٣١٦ الجزء السابع

البر محرم لكونها من السباع في الأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون» (٥: ١٦).

و«لا أجد» لصاحب الوحي الأخير بوحى من الله بهكذا تعبير هي صيغة أخرى عن عدم وجود وحي يحمل تحريماً في حقل بهيمة الأنعام أكثر مما ذكرت في آية الأنعام .

إذ من المستحيل أن يوحى الله تعالى إليه محرماً في هذا الحقل سوى ما ذكر ثم هو لا يجده ، اللهم إلا ألا يوحى إليه الله ما حرّمه وذلك ضئيلة في الوحي ونقض لكمال الرسالة ، مع أنه أوحى إليه «قل لا أجد . . .» أي لا يوجد وحي بهذا الصدد إلا ما أوحى ، فقد كفى النص «قل لا أجد» دلالة على حلية الدم غير المسفوح .

لذلك فالدم غير المسفوح من المحلل في شرعة القرآن أياً كان ،

مركز تحقيقات كميتر علوم ديني

والمقداد بن معدي كرب وأبو هريرة وغيرهما .
ومن طريق أصحابنا المرسل في محكي المنع عن النبي (ص) كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير والحمير الأنسية حرام .

أقول : حرمة الحمير الأنسية تبين أنها لظهرها الذي هو انفع وكما ورد في الخيل ، عن أبي عبد الله (ع) عن لحوم الخيل ؟ فقال : لا تأكل إلا أن تصيبك ضرورة ، (الكافي ٢٤٦: ٦ والتهذيب ٣: ٣٤٨) وصحيح ابن مسكان عن أبي عبد الله (ع) سأله عن أكل الخيل والبغال فقال : نهى رسول الله (ص) عنها فلا تأكلها إلا أن تضطر إليها ، (الكافي ٢٤٦: ٦ والتهذيب ٢: ٣٤٨) وصحيح سعد بن سعد عن الرضا (ع) سأله عن لحوم البرازين والخيل والبغال فقال : لا تأكلها .

وفي موثق سماعة سألت أبا عبد الله (ع) عن المأكول من الطير والوحش فقال : حرم رسول الله (ص) كل ذي مخلب من الطير وكل ذي ناب من الوحش فقلت ان الناس يقولون من السبع فقال لي يا سماعة السبع كله حرام وان كان سباعاً لا ناب له وانما قال رسول الله (ص) هذا تفصيلاً ، (الكافي ٦: ٢٤٧).

اللهم آمّن غير الحيوان المحلل ، وأما الطير المحلل وما أشبه من غير بهيمة الأنعام فما له دمان فالمسفوح منه محرم ، وما له دم لا يسفح أو غير المسفوح منه فمحلّل ، فإن « دماً مسفوحاً » طليقة مهما كانت بهيمة الأنعام هي الأصل فيه ، فلو لم يكن للسفح دخل في حرمة الدم لكان لاغياً في موضوع التحريم ، ولسنا نستدل - فقط - على حل غير المسفوح من الدم بمفهوم الوصف ، فإنما تقتصر على تحريم المسفوح بالنص ثم لا دليل على تحريم غيره، وإن كان الاستدلال به صحيحاً. حيث الدم غير خارج عن مسفوح وغير مسفوح. والمحور هو الذي له مسفوح وسواه ، فالحيوان الذي ليس له دم مسفوح ، أو الدم غير المسفوح من الذي له مسفوح وغير مسفوح، دمه حلال ، ثم الدم من غير الحيوان أخرى بالحل ، فإنما الحيوان المحرم يحرم دمه بدليل حرمة كله .

وهنا « فانه رجس » قد يختص بـ « لحم خنزير » ولكنه يصلح شمولاً له « ميتة أو دماً مسفوحاً » إلى « لحم خنزير » ولو كان القصد إلى خصوص « لحم خنزير » لكان صالح التعبير بتقديم « لحم خنزير » ثم « فانه رجس » حتى يختص به ، وما تأخير « أو فسقاً أهل لغير الله به » إلاّ لأنه يحمل مصداقين اثنين ثانيهما « ما ذكيتم » حيث فيه بقية الحياة ، فليس - إذاً - رجساً بصورة طليقة مهما كان فسقاً مات بذلك الإهلال أم لم يمّت .

ذلك حكم العائد غير المضطر « فمن اضطر غير باغٍ ولا عاد فان ربك غفور رحيم » .

وهنا « اضطر » في بناء المجهول تقيّد الحل بما كان الإضطرار دون إختيار ، فقد يضطر الانسان بما يقدمه هو باختيار فلا غفران ولا رحمة عليه في أكله إضطرارياً مهما وجب عليه حفاظاً على الأهم ، ولكن الذي يُضطر دونما إختيار منه ، وإنما أوقع في حالة الإضطرار دون أية محاولة « فان ربك غفور رحيم » .

ثم المضطر لا عن إختيار قد يكون باغياً يبتغي أكل الحرام ، أم عادياً عاصياً ففاجأه الإضطرار ، أم عادياً في أكله أكثر من قدر الإضطرار ، فهؤلاء هم كما المضطر باختيار لا تشملهم « فإن ربك غفور رحيم » مهما كان على المضطر المقصر أن يأكل قدر الضرورة حفاظاً على الأهم من نفسه وصحته .

وترى « فمن اضطر . . » فهو غير آثم ، كيف تناسبه « فإن ربك غفور رحيم » ؟ علّه لأن لذلك الإثم واقعين اثنين ، واقع العقوبة الأخروية وهو خاص بباغ أوعاد أو من اضطر باختيار ، وواقع الضرر أتوماتيكياً بتلك الأكلة المحظورة وهو مورد الغفر والرحمة الربانية بسند الإضطرار غير المقصر .

تلحیقة :

بهیمة الأنعام وهي غیر السباع كلها محللة بنص القرآن ، والمحرّم هو كل مفترس من الحيوان ذي مخلب أو ناب كما ثبت في متواتر السنة ، وكذلك من حيوان البحر غیر السمك والروبيان ، والتفصیل إلى فقه السنة .

ذلك ، ولأن حرمة البعض من بعض الأنعام في شرعة التوراة قد تصبح ذریعة للتحريم الجاهلي ، لذلك یبین الله أنها كانت ابتلائیة لردح من الزمن ثم أحلت .

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ
وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ
ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ

يَبْغِيهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ
ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾
سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا
وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا
إِنْ نَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ
الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلْ
شُهِدَ كُرَ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا
فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَايِنَتِنَا
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾
* قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ
شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ
نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطْنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ

ذَالِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ
 الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا
 بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ ۚ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
 وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا
 ذَالِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا
 صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۚ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ
 عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَالِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾
 ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ
 وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ۚ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ
 يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا
 لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ
 طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾
 أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ
 فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَن

أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِعَايَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي
الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا
يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (١٤٦) :

أجل ، فلم تحرم عليهم ما حرمت ذاتياً ، إنما « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » (٤ : ١٦٠) حيث « كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . . » (٣ : ٩٣) :

و « الذين هادوا » هم الذين رجعوا عن الحق بعد اهتدائهم إليه وهم ثلة وفي القرآن شيء كثير من تهودهم وتعندهم، ثم وهم الذين رجعوا إلى الحق وهم قلة ، والفريقان معنيان هنا بـ « الذين هادوا » فقد حرم الله عليهم ككل - طالحين وصالحين - طيبات أحلت لهم « فتنة لا تصيبين الذين ظلموا منكم خاصة » (٨ : ٢٥) فعلى الطالحين فتنة شروا ابتلاء وعلى الصالحين فتنة خير وإعتلاء ، ومما حرمت عليهم هو صيد الحيتان يوم السبت : « وإسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبثون لا تأتيتهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » (٧ : ١٦٣) .

« حرمنا كل ذي ظفر » من حيوان البر والطير وهي من أعظم النعم

٣٢٢ الجزء السابع

« ومن البقر والغنم حرمتنا عليهم شحومهما » الشامل للإليات ، وقد كانوا يبيعونها ويأكلون أثمانها ، حيلة شرعية لا خبر في الشرع عنها ، وقد لعنهم رسول الله (ص) بحيلتهم الغيلة قائلاً : « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها »^(١) فإن « حرمتنا » الواردة على موضوع لا تختص بوضع خاص له ، بل تعم كل المحاولات فيه ، وقد نص التورات على حرمة الشحوم^(٢) .

« إلا ما حملت ظهورهما » من شحومهما « أو الحوايا » هي المباعر والمصارين ، واحدها الحوية أو الحاوية وهي الدوارة في بطن الشياه والأبقار ، فهي - إذا - الشحوم الملتصقة بالمباعر والمصارين « أو ما اختلط بعظم » فهذه الشحوم الثلاثة استثنت عن « شحومهما » و « ذلك » التحريم في حقل طيبات محللة في أصولها « جزيناهم ببيعهم » المتواصل على عباد الله وشرعة الله « وإنا لصادقون » في ذلك الجزاء والتحريم بسببه .

ذلك ، وقد أحل الله في شرعة المسيح (ع) ما حرمه في التوراة على الذين هادوا : « ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعون » (٣ : ٥٠) .

فلا يحمل شرعة الإنجيل إلا هكذا تحليل ، فليس فيه - إذا - غيره من

(١) الدر المنثور ٣ : ٥٣ - أخرج ابن مردويه عن اسامة بن زيد قال : قال

رسول الله (ص) : . . . ورواه عنه (ص) مثله عمر بن الخطاب وأبو هريرة وابن عباس وفي الأخير زيادة : وإن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه . .

(٢) كما في سفر اللاويين ٣ : ١٤ - ١٧ « ١٤ » ويقرب منه قربانه وقوداً للرب الشحم الذي يغشي الأحشاء وسائر الشحم الذي على الأحشاء ١٥ والكليتين والشحم الذي عليهما الذي على الخاصرتين وزيادة الكبدة مع الكليتين ينزعها ١٦ ويوقد الكاهن على المذبح طعام وقود لرائحة سرور كل الشحم للرب ١٧ فريضة دهرية في أجيالكم في جميع مساكنكم لا تأكلوا شيئاً من الشحم ولا من الدم » وكذلك في ٧ : ٢٤ - ٢٧ .

نسخ لا جليل ولا قليل ، اللهم إلا مزيدات من تنظيمات خلقية من توجيهات السيد المسيح (ع) ، فشرعة الإنجيل هي شرعة التورات في الأصل ، كما يكرره السيد المسيح (ع) في الإنجيل ، ويعتبر القرآن نفسه بعد التوراة تأشيراً عسيراً إلى هذه الوحدة : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضاوا ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم » (٤٦ : ٣٠) .

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٤٧) :

فهو أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأعظم المتجبرين في موضع النكال والنقمة ، ومن رحمته الواسعة تحليل الطيبات وتحريم الخبائث ، ومن نقمته تحريم طيبات على الذين هادوا ببغيهم ، ومن نكاله على الذين يحرمون ما أحل الله ويحلون ما حرم الله نكال الآخرة والأولى .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (١٤٨) :

بعد كل هذه التنديدات بالإشراك بالله والحجاجات على المشركين بالله نسمعهم قد يبررون موقفهم من عقيدتهم وأعمالهم الشركية بأن المشية إنما هي لله ، فلو شاء الله ألا نشرك به ما أشركنا ولا حرّمنا من شيء إذ لسنّا نقدر أن نتغلب على مشيئة الله ، فحين أشركنا وحرّمنا علمنا أنه ليس خلاف مشيئة الله ، بل هو الذي يشاء شركنا وتحريمنا ، فشركنا وتوحيده وتحريمنا وتحريمه وتوحيدها خلاف مشيئته إشراك به .

هنا « سيقول » إخبار بالمستقبل أنهم ما قالوه حتى الآن وسيقولونه بعد

الآن كما : « وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباءنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين » (١٦ : ٣٥).

ولأن النحل نازلة بعد الأنعام فأية النحل هي مما سيقولون ، وهكذا يتبررون في عقيدتهم الجاهلة النكدة متظاهرين بالإخلاص لله والتسليم لمشية الله المتأكدة لإشراكهم بالله ، فإن « لو » تحيل مشيئة لترك الإشراك وتحتم مشيئة الإشراك ، فنحن - إذا - عمال تحتيم الإشراك لله من الله .

وهؤلاء الأنكاد بين مجبرة ناكرة للإختيار في كل الأفعال ، وغير مجبرة خالطة بين المشيئة التكوينية والتشريعية ، وكلاهما كذب من القول وزور وغرور : « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » : « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم » (٤٣ : ٢٠) - « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » فتقبل فريتكم علينا « إن تبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » .

ذلك « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (١١ : ١١٩) - « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتستلن عما كنتم تعملون » (١٦ : ٩٣) - « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً » (١٠ : ٩٩).

وهنا عطف الظاهر «ولا آباءنا» على الضمير في «ما أشركنا» دليل على أنه من صالح الأدب ، إذا فمن سوء الأدب قول بعض أهل الأدب إن عطف الظاهر على المضمرة قبيح ، حيث القائل هو القبيح السفه (١) والقرآن هو الوجيه .

(١) وهو سيئويه واضرايه ممن تقولوه .

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَذَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٤٩):

إنها ليست حجة الظن كما تزعمون ، فإن الظن لا يغني عن الحق شيئاً ، إنما هي علم أو إشارة من علم آفاقياً وأنفسياً^(١) « قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ » تبلغ الجاهل كما العالم مهما اختلفت حجة عن حجة^(٢) ولكنما « الحجة البالغة » تبلغ إلى كافة المكلفين بالمبلغين الرساليين رسلاً وأئمة معصومين عليهم السلام^(٣) والذين يحملون عنهم .

ذلك ، وأبلغ حجج الله الطاهرة الظاهرة هو القرآن العظيم ، فإنه الأكبر في الثقلين ، وهو الظاهر لا يغيب والباقي مر الدهور مهما غاب الرسول والأئمة من آل الرسول (ص) أم ماتوا ، ولأن الرسول (ص) وذويه حجة مع

(١) نور الثقلين ١: ٧٧٥ عن اصول الكافي بعض اصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال : قال لي ابو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام يا هشام ان الله على الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة فاما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة خليهم السلام واما الباطنة فالعقول .

(٢) نور الثقلين المصدر في امالي الشيخ الطوسي باسناده الى مسعدة بن صدقة قال سمعت جعفر بن محمد عليهما السلام وقد سئل عن قول الله « فلله الحجة البالغة » فقال : ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : عبدي اكننت عالماً ؟ فان قال : نعم قال له : افلا عملت بما علمت وان قال : كنت جاهلاً قال له : افلا تعلمت حتى تعمل فيخصمه فتلك الحجة البالغة .

(٣) نور الثقلين ١: ٧٧٦ في اصول الكافي عن سدير عن ابي جعفر عليهما السلام قال قلت له ما انتم ؟ قال : نحن خزان علم الله ونحن تراجمة وحي الله ونحن الحجة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض .

وفيه عن ابي عبد الله (ع) قال كان امير المؤمنين (ع) باب الله الذي لا يؤتى الا منه وسيله الذي من سلك بغيره هلك وكذلك يجري ائمة الهدى واحداً بعد واحد جعلهم الله اركان الارض ان تميد باهلها وحجته البالغة على من فوق الارض ومن تحت الثرى .

القرآن ، فالسنة هي حجة هامة مبينة للقرآن : « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً » (١٦٥:٤).

فالرسول بجانب الكتاب حجة علمية وعملية ، فهو أسوة فيهما كيلا يقال لم نفهم الكتاب كله ، أم لا نستطيع أن نعمل بالكتاب كله ، والرسول أمثلة للكتاب كله ، حجة تقطع كل الأعذار .

ذلك-وفاء التفريع الأول فيه « فله » تقلب حجتهم عليهم إذ لا حجة لهم على دعواهم فليس عندهم عليها من علم فيخرجوه ، والتفريع الثاني في « فلو شاء » حجة أخرى على غرقهم في لجنتهم أنه لا يشاء تسييراً على الهدى بل هو تخير اختياراً للهدى أو للردى « فلو شاء لهداكم أجمعين » وليس إختيارهم الشرك تحقيق مشيئة تشريعية أم وتكوينية مسيرة لهم على الشرك ، ومن الحجّة البالغة لله الفطر والعقول الحاكمة بتوحيد الله وهم تاركوهما إلى ظنون وتخيلات تخيلات تعارض كافة الحجج الآفاقية والأنفسية ! .

فلأن « لله الحجّة البالغة » دونما تقصير أو قصور ، وهو يشاء تشريعياً تحقيقها واقعياً ، « فلو شاء » ذلك تكويناً تسييراً « لهداكم أجمعين » ولكنه على حجته البالغة في كل الحلقات يبتليكم بما تختارون .

فليس عدم صدّه عن الإشراك به لرضاه به أو عجزه عن ذلك الصد ، إنما هو حكمة بالغة تكليفاً حنيفاً عطيفاً في دار البلية والإختبار بالإختيار .

وهذه الآية هي من تلك التي تدلنا على واقع الأمر بين أمرين دون جبر ولا تفويض من جهات عدة : فإن « كذلك كذب » تنديد بالقول « لو شاء الله ما أشركنا » في خرافة الجبر ، ثم ومديده « حتى ذاقوا بأسنا » ومن ثم التجهيل بفارغ الحجّة « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » تدليلاً على

سلبية العلم فيما هم يدعون بصورة طليقة ، وسحقاً لما خيل إليهم من حجة « إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » والخرص هو أقبح أنواع الكذب ، حيث لا يملك حجة وهو فرية وقحة على الله .

ذلك ، لأن الجبر يبطل رسالات الله ، ويمس من كرامة الربوبية فضلاً وعدلاً ، ويهدم صرح التشريعات عن بكرتها ، وهم يدعون الجبر نكراً للرسالات ، وإباحية لكل الشهوات والشيطانات ، وجمعاً لله حيث يسير الكل على كل الشرور والخيرات ، بين تحقيق المتضادات ، وحيث يسير جمعاً على التوحيد وآخرين على الإشراك ، جمعاً بين وحدته وتعددته ، وجمعاً بين إرساله رسل الخير النبيين ورسل الشر الشياطين ، وذلك أقبح الافتراءات على رب العالمين و « كذلك كذب الذين من قبلهم » الله ورسله « حتى ذاقوا وبال أمرهم » .

إن الحجة البالغة الإلهية على ما يحمله المرسلون شهادة ربانية على صدقهم ، فمن هم شهداءكم على ما تدعون من أصول وفروع ؟

﴿ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ ﴾ (١٥٠) :

« قل » لهؤلاء المدعين الزور بكل تزوير وغرور لو كان لكم شهداء على ما تدعون فـ « هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا » الذي تحرّمون « فإن شهدوا » فشهادتهم عاطلة باطلة إذ لا ترتكن إلى ركن وثيق من علم أو اثارة من علم « فلا تشهد معهم » إذ لم يوح إليك ما أوحى إلى شياطينهم « ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا » في هذه الشهادة الزور فإنهم في ثالث منحوسين : التكذيب بآيات الله قاعدته ، ثم « الذين لا يؤمنون بالآخرة - وهم بربههم يعدلون » : تهديماً لصرح التوحيد والنبوة والمعاد .

فإنهم يعدلون بالله من خلقه ما يشتهون وهم بالآخرة هم كافرون وهم
بآيات الله هم يكذبون !

ذلك ! فكيف تقبل شهادة الخائضين في ثلوث الكفر ، وليست لتقبل
شهادة المؤمنين لو شهدوا بما يضاد ما أوحى إليك ، فكما هم يتبعون
أهواءهم لو شهدوا فأنت متبع أهواءهم لو قبلت شهادتهم ! .

وإنها مواجهة فاصلة مستأصلة لمزاعم المتخلفين عن شرعة الله سواء
المشركين الرسميين أو الذين يزاولون حق الحاكمية والتشريع للناس إفتراءً
على الله أم تشريعاً مشاقاً لتشريع الله بما لم يأذن به الله .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا
الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ
ذَلِكَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٥١) :

هنا وفيما يتلو سردٌ مجملٌ جميلٌ عن كافة المحرمات الأصلية
والفرعية : الرئيسية في شرعة القرآن ، وهي عشرة كاملة معظمها في صيغة
النهي وأخرى في صيغة الأمر المستفاد منها النهي عن هذه ، وهذه العشرة
تحلق على كافة المرفوضات والمفروضات في شرعة الله كضوابط رئيسية
يستنبط منها كافة الفروع إستفساراً لها من سائر القرآن ومن السنة ، وقد
تلاها الرسول (ص) على جموع حيث عرض عليهم نفسه رسولاً ، كنموذج
شامل عن رسالته القدسية (١) .

(١) الدر المنثور ٣: ٥٤ - أخرج أبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن علي بن ابي
طالب (ع) قال : لما امر الله نبيه (ص) ان يعرض نفسه على قبائل العرب خرج الى
منى وأنا معه وأبو بكر وكان أبو بكر رجلاً نساباً فوقف على منازلهم ومضاربهم بمنى =

ف« قل » لهؤلاء وكل هؤلاء المكلفين على مدار الزمن الرسالي إلى يوم الدين « تعالوا » إلي كرسول من الله « أنل عليكم ما حرم عليكم ربكم » :
 ١ - « ألا تشركوا به شيئاً » - كما لم يشرك الله بنفسه شيئاً - في أي من شؤون ربكم بواسع ربوبيته المحلقة على كافة الشؤون الخاصة به ، المخالصة له ، تكويناً وتشريعاً ، خالقية ومعبودية أماهيه .

و « شيئاً » هنا تستأصل أي شيء من شؤون ربوبيته عن أي شيء من خلقه ف« لا تشركوا شيئاً - به شيئاً » إجتثاثاً لكل بذور الإشراف بالله في كل

فسلم عليهم وردوا السلام وكان في القوم مفروق بن عمر وهاني بن قبيصة والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك وكان اقرب القوم إلى أبي بكر مفروق وكان مفروق قد غلب عليهم بياناً ولساناً فالتفت إلى رسول الله (ص) فقال له : إلى مَ تدعوا يا أخا قريش ؟ فتقدم رسول الله (ص) فجلس وقام أبو بكر يظله بثوبه فقال النبي (ص) ادعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإني رسول الله وإن تؤووني وتنصروني وتمنعوني حتى أؤدي حق الله الذي أمرني به فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد ، قال له وإلى مَ تدعوا أيضاً يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله (ص) : قل تعالوا - إلى - تتقون فقال له مفروق وإلى مَ تدعوا أيضاً يا أخا قريش فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه فتلا رسول الله (ص) : ان الله يأمر بالعدل والإحسان . . . فقال مفروق : دعوت والله يا قرشي إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال وقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك وقال هاني بن قبيصة قد سمعت مقالتك واستحسنيت قولك يا أخا قريش ويعجبني ما تكلمت به ثم قال لهم رسول الله (ص) ان لم تلبشوا إلا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم - يعني أرض فارس وإنها كسرى - ويفرشكم بناتهم أتسبحون الله وتقصدونه فقال له النعمان بن شريك اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش فتلا رسول الله (ص) : انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً . . ثم نهض رسول الله (ص) قابضاً على يد أبي بكر .

٣٣٠ الجزء السابع

دركاته ، وحصيلته خالص التوحيد لله في كل درجاته ، فعلى كل قدر إمكانيته طرد الإشراك بالله ، وسرد توحيد الله في قسالة وحالة وأفعاله « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

ذلك ، فهي ببقية لضمير الفطرة على خالص التوحيد ، وتنقية له من أوساب الشرك ، وتنقية العقل من أوساب الخرافات ، ومن تقاليد الجاهلية الجهلاء العمياء ، وبصورة شاملة تخلية للحياة عن عبودية العباد تحلية لها بعبودية الله وحده لا شريك له ، فإن الشرك في كل صورته هو المحرم الأول حيث يجر إلى كل محرم ، والمنكر الأول الذي يجب حشد الإنكار له كله .

وترى كيف يكون مما حرم عليكم ربكم « ألا تشركوا . . وبوالدين إحساناً » فهل عدم الإشراك هناك وفعل الإحسان هنا مما حرم عليكم ربكم ؟ .

والجواب أولاً أن « حرم » تعني جعل الحريم، ثم بين ذلك الحريم بالنهي عن الحرام والأمر بالواجب ، فلكل حريم بذلك التحريم .

وثانياً : « أتلى » قد تعني تلاوة ما يبين المحرمات سواء أكانت بصيغة النهي كما في مناهيها، أم بصيغة الأمر كما في أوامرها ، وهما يجتمعان في بيان أصول المحرمات .

ولأن « الوالدين » هما المكنن الأول للناشئة إيلاداً بإذن الله ، وتربية وترقية ، فلهما الدور الثاني بعد الله :

٢ - « وبوالدين إحساناً » إذا فترك الإحسان بهما محرم ، وليس فقط الإساءة إليهما ، فهنا نعرف - كضابطة - أن الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده العام وهو هنا ترك الإحسان ، فإن إساءة فمحظور مؤكد .

وقد عد الإحسان بالوالدين في عديدة كهذه بعد النهي عن الإشراك

بِالله والأمر بتوحيد الله كـ «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبوالدين إحساناً» (١٧: ٢٣) - «وإذ قال لقمان لإبنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه» (٣١: ١٤).

ذلك ، لأنهما - الشاملين لوالدي الروح كالدعاة إلى الله ووالدي الجسم - هما مجريان لولادة الجسم والروحية الإنسانية السامية ، فأفضل الوالدين هما النبي وعلي عليهما السلام ^(١) كما يروى عنه «أنا وعلي أبوا هذه الأمة» .

٣ - «ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم» - «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأً كبيراً» (١٧: ٣١) والإملاق هو الإنفاق أو كثرته لحد الإفتقار ، وهنا «من إملاق» تعني واقعه ، أن ثقل الإنفاق لحد الإفتقار يحملكم على قتل أولادكم ، ولكن المنفق عليهم في الحق هو الله «نحن نرزقكم وإياهم» ، وقد يعني «من إملاق» خشيته إلى واقعه ، كما و «خشية إملاق» قد تعني واقعه إلى خشيته ، فلا الإملاق ولا خشيته بالذي يبرر قتل الأولاد إذ إن أقصى التكليف هنا أن يُنهي الإملاق إلى موت الأولاد جوعاً ، فلماذا تقتلونهم - إذاً - أخوفاً من موتهم ؟ وقتلهم أسوأ حالاً ! أم خوفاً من موتكم ؟ فكذلك الأمر ! ، ثم الولد يأتي برزقه من الله ، فثقله على الأرض ورزقه على الله .

وأصل الإملاق هنا واقعه الذي هو للآباء ، فذلك يُطمئن الآباء هنا

(١) نور الثقلين ١: ٧٧٧ عن تفسير القمي قال : الوالدان رسول الله وامير المؤمنين عليهما السلام .

اقول : راجع آيات الأسرى ولقمان نجد تفصيل البحث حول المفروض نجاء الوالدين .

قبل الأولاد ، وأصله في الأسرى الخشية التي هي في الأصل للأولاد ، ولذلك يُطْمَئِن الأولاد هناك قبل الآباء ، ولأن الإملاق تُستعمل لازماً ومتعدياً ، فإملاق الأنعام لازم هو الإفلاس ، وإملاق الأسرى متعدٍ هو الإنفاق حيث يفلس .

٤ - « ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن » والفواحش هي المتجاوزة حدها أم إلى غير صاحبها، ووايلاه إذا اجتمع فيها التجاوزان لا سيما إذا تجاوزت إلى المجتمع تشييعاً لها بينهم بتشجيع فهو - إذا - ثالث الفاحشة : تجاوزاً حدها وإلى الغير ثم إلى المجموعة .

« ما ظهر منها » حيث هو بالمرئي « وما بطن » في الباطن كالفواحش العقيدية (١) أم « ما ظهر » على رؤوس الأشهاد مهما كانت تحديثاً عما بطن « وما بطن » عن الأشهاد مهما كان ظاهراً في خفاء (٢) وهما على أية حال تشملان كافة الفواحش لمثلث الأقوال والأحوال والأفعال ، باطنة في نفسها أو ظاهرة ، متخفية أو متجاهرة، ما هي فواحش .

ثم « ولا تقربوا » تأكيد للإبتعاد عن الفواحش ألا تقترب إلى مقدماتها التي تجعلك تقتربها ، فالمعاصي حرم الله فمن حرم حول الحمى أو شك أن يدخل فيها ، ففي مثل فاحشة الزنا يعني من قربها ما يقرب إليها من

(١) نور الثقلين ١: ٧٧٧ عن المجمع عن أبي جعفر عليهما السلام أن ما ظهر هو الزنا وما بطن هو المحالة .

(٢) الدر المنثور ٣: ٥٥ عن ابن عباس قال : كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنا بأساً في السر ويستقبحونه في العلانية فحرم الله الزنا في السر والعلانية ، وفيه عن عكرمة في الآية « ما ظهر منها » قال : ظلم الناس « وما بطن » قال : الزنا والسرقه .

وفي نور الثقلين ١: ٧٧٧ في الكافي عن أبي عبد الله (ع) قال : إن الله تبارك وتعالى غيور يحب كل غيور ولغيرته حرم الفواحش ظاهرها وباطنها .

سورة الأنعام / آية ١٥١ ٣٣٣

مقدمات وملابس كالتهتك والإختلاط المثير والكلمات والإشارات والحركات والنبرات والضحكات المثيرة وكل الإغراءات والتزيينات والإستعارات والإستهتارات ، فإنها كلها مما تقرب إلى فاحشة الزنا . وهكذا سائر الفواحش العقيدية والأخلاقية والعملية ، فردية وجماعية حيث القرب من مقدماتها يورد المقترّب في أصولها .

٥ - « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » وهنا « إلا بالحق » إستثناء منقطع حيث المستثنى منه « النفس التي حرم الله » أو متصل إذا كان المستثنى منه فقط « النفس » وبالحق إن دور « بالحق » حظر عن قتل النفوس كضابطة ، سواء التي تعلم أنها محرمة فقد حرمها الله أصلياً ، أو التي لا تعلم أنها محرمة أصلياً فإنها محرمة حسب ذلك الأصل : « إلا بالحق » فما لم تحقق هدر دم وأن الحق هدره ليس لك أن تهدره .

ومن الملاحظ في السياق القرآني أن هذه المنكرات الثلاث ، نجدها متلاحقة مع بعض ، ولأنها متشاركة متشابهة في الأخطار ، فالنفس المشتركة ميتة ، والمجتمع الذي لا يحترم النفوس ولا يحترز عن الفحشاء ميت .

فالأصل في النفوس الإنسانية الحرمة اللهم إلا ما خرج بدليل يُحقّ الحق في هدرها ، كالنفس القاتلة عمداً دون حق، أو الساعية في الأرض فساداً أو المرتدة عن الدين ، أو المحصنة في زنا ، وقد يروى عن النبي (ص) أنه « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بأحدى ثلاث كفر بعد إيمان وزناً بعد إحصان وقتل نفس بغير حق » (١) .

ذلك ومن غريب الوفق عديداً في القرآن أن عديد الغضب والفاحشة بمختلف صيغهما مثلاًن فلكل (٢٤) وهذه لمحة لطيفة بأنهما صنوان متمثالان حيث الفاحشة تستعجر الغضب !

(١) تفسير الفخر الرازي ١٣ : ٢٣٣ .

« ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » - « ذلكم » من محظور محظور
« وصاكم به » ريبكم توصية خاصة بين سائر التوصيات « لعلكم تعقلون »
وتربطون أنفسكم برباط التقوى ، ضابطاً عن الطغوى ، عقلاً عن الله ما
يقيكم عن أصول المحرمات ومن ثم ما يليها :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلِفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ
ذَا قُرْبَىٰ وَيَعْهَدِ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذْكُرُونَ ﴾ (١٥٢) :

وهذه الأربع المتممة للخمس السابقة بواحدة تالية هي في عشرة
كاملة ، تكملة لعقوبة الايمان أن نتذكرها « لعلكم تذكرون » فنحافظ عليها .

٦ - « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ »
وأحسن القرب هنا هو أحسنه نفعاً له وأقربه صالحاً لأجله ، فلا يستدين
الولي من مال اليتيم دون فائدة محللة ، ولا يأخذ إجرة على عمل الولاية إلا
إذا كان فقيراً فقدر الضرورة ، ولا يبقى ماله دون عائدة « حتى يبلغ أشده »
حيث يجب رده إليه وهو إيناس رشد منه وهنا يجوز القرب بالتي هي حسن
كسائر الأموال لسائر البالغين لخروجه عن يتمه ، وليس قرب الظلم فإنه محرم
في أموال الناس ككل ، و « أشده » جمع الشد هي شد الجسم والعقل
والرشد ، فلا يكفي بلوغه النكاح كما في آية النساء : « وابتلوا اليتامى حتى
إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم » فحين يبلغ
اليتيم أشده فلا يتم حتى يستمر « لا تقربوا . . . » فالقرب بالتي هي حسن
كما السئىء محظور حالة يتمه ، ولكنه غير محظور بعد أشده ، فبين القرب
السيء والحسن والأحسن ، يؤمر بالنسبة لمال اليتيم بالقرب بالتي هي
أحسن ، وينهى عن الحسن كما السيء ، ثم إذا بلغ أشده يرفع الفرض عن
الأحسن إلى الحسن كطبيعة الحال في كل الأموال ، ومن الأحسن « فمن
كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » حيث يجمعهما ترك

الأجر المرسوم في مثله من عمل الولاية .

٧ - « واوفوا الكيل والميزان بالقسط » وهو هنا العدل وزيادة ، إيفاء لما يكال أو يوزن في التعاملات ، والقسط هنا هو معيار الكيل والوزن ، حيث الإيفاء بغير معيار قد لا يكون إيفاء .

وليس هذا الأمر وذلك النهي إلا قدر الوسع : « لا نكلف نفساً إلاّ وسعها » وكما في سائر التكاليف الشرعية ، حيث الضابطة الثابتة فيها هي قدر المستطاع ، وهو هنا : « من أوفى على يديه في الكيل والميزان والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيها لم يؤخذ وذلك تأويل وسعها » (١) .

فقد تشمل قاعدة الوسع واسع الظروف في مختلف التكاليف ، مهما كان موردها هنا التكليف بالنسبة لمال اليتيم وإيفاء الكيل والميزان بالقسط .

فكما لا يكلف المسلم في إيفاء الكيل والميزان إلاّ وسعه ، كذلك لا يكلف في مال اليتيم إلاّ وسعه ، فالولي الذي لا يسعه - لمكان فقره - ألا يأخذ من مال اليتيم قوته لا يكلف إلاّ وسعه ، وأما الغني فلا « فمن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » .

٨ - « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » عدلاً في القول أيأ كان دون أي إفراط فيه ولا تفريط ، وعدلاً في المقول والمقول فيه ، قولاً له أو عليه « فاعدلوا ولو كان » المقول فيه « ذا قربى » دون إفراط في صالحه تفريطاً

(١) السدر المشور ٣: ٥٥ - أخرج ابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال تلا رسول الله (ص): «أوفوا الكيل والميزان. وفيه عن ابن عباس قال: قال رسول الله (ص): يا معشر التجار انكم قد وليتم أمراً هلكت فيها الأمم السالفة قبلكم المكيال والميزان ، وفيه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله (ص) ما نقص قوم المكيال والميزان إلاّ سلط الله عليهم الجوع .

على غيره ، أو تفريطاً فيه إفراطاً على غيره ، حيث القرابة ليست بالتي تحوّل القول عن العدل ، فالحق لا يعرف قريباً عن غريب، كما الباطل لا يعرف غريباً عن قريب، ففي حقل الشهادة وهي أخطر الحقول نجد الله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » (٤: ١٣٥) .

وفي حقل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (١٦: ١٢٥) وهكذا الأمر في كافة الحقول قولاً باللسان أم بالكتابة أم بالأركان ، فالميزان الوحيد في الكل هو العدل، دون نقيصة فإنها الظلم ، وإن كان مزيد فهو فضل .

٩ - «وبعهد الله أوفوا» عهداً في الفطر والعقول والشرائع الإلهية، فيما عهده لنفسه علينا من توحيده وطاعته وعبادته ، وهنا « عهد الله » عهد علينا : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » (٣٦: ٦٠) .

وعهداً منا له علينا وهنا « عهد الله » عهدنا له علينا فيما سمح لنا : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » (١٦: ٩١) - « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » (٣٣: ٢٣) ، وعهوداً فيما بيننا حيث يمضيها الله وهنا « عهد الله » ما أمضاه بيننا ، فإيجاب الوفاء بعهد الله هو مثلثة الجهات كما العقود : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » و « العهد » : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً » (١٧: ٣٤) .

ذلك ، وفي تقديم الظرف : « بعهد الله » على المظروف : « أوفوا » تقديم للزاوية العليا من مثلث العهود على الآخرين ، أن نفى بعهدنا علينا

ثم بعهدنا له ، ومن ثم بعهدونا فيما بيننا، وقد سبق من عهد الله عهد التوحيد والإحسان بالوالدين وعدم القتل إلا بالحق وعدم قرب الفواحش وعدم قرب مال اليتيم إلا بالتتي هي أحسن والإيفاء بالكيل والميزان .

« ذلكم » الأربع من أحكام الشريعة « وصاكم به لعلكم تذكرون » ما كتب في كتاب الفطرة والعقلية السليمة من الست الأصلية التي وصاكم به لعلكم تعقلون .

١٠ - ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٥٣):

« هذا » الذي وصاكم به من الخمس الأولى وهي النواميس الخمس والأربع الأخرى التي تكملها وهذا القرآن الحاوي لمسالك الهدى ، « وان هذا صراطي » الخاص بي للسالكين إلي حالكونه « مستقيماً » لا عوج له أصلياً وفرعياً « فاتبعوه » فإنه السبيل المستقيم بين سائر السبل « ولا تتبعوا » سائر « السبل فتفرق بكم عن سبيله » : الصراط المستقيم « ذلكم » الصراط الحق وحق الصراط « وصاكم به لعلكم تتقون » سائر السبل ، والسبل هي الطرق ، ولا تتفرق هي بهم ، وإنما هم الذين يفارقون نهجها ويتبعون عوجها .

فصراط الله واحد والسبل إليه عدة هي درجات ، وهذه سبل المؤمنين ، ثم تقابلها سبل المغضوب عليهم والضالين ، وهما المعنيان بالسبل المنهي عنها في « لا تتبعوا » .

وقد تعني « صراطي » إلى صراط الله صراط رسول الله إلى الله ، فإنه من قوله حسب الأمر : « قل تعالوا أتت . . وأن هذا صراطي » مهما كان الصراط هو صراط الله ، ولكن الرسول الهادي إليه المهتدي به وهو على صراط مستقيم ، له الصراط رسولياً ورسالياً ، كيف لا وهو من أنعم المنعم

عليهم : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » (٤ : ٦٩).

وقد نستدعي ليل نهار أن يهدينا ربنا إلى صراطهم : « إهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

ذلك ولكن نسبة الصراط إلى الله هي نسبة المسلك إليه ، ونسبته إلى هؤلاء المنعم عليهم هي نسبته إلى سالكه ، فصراط الله لنا هو الذي قرره لنسلكه إليه ، وصراطه هو الذي نسلكه إلى الله .

إذاً فـ « صراطي » نسبة إلى الله هو الأول ، ونسبة إلى الرسول هو الثاني ، ثم ونسبة إلى سائر السالك ليست إلا على ضوء صراط الرسول بما يهدي الله ، وصراط الرب في ربوبيته خاص به لا يعدوه إلى سواه « إن ربي على صراط مستقيم » والصراط إلى الرب خاص بالمربوبين لا يعدوهم إليه .

في هذه العشر مما « حرم ربكم عليكم » لا نجد صراح النهي التحريم إلا في خمس هي الإشرار بالله وقتل الأولاد من إملاق وقرب الفواحش وقتل النفس المحترمة وقرب مال اليتيم إلا بالتتي هي أحسن ، كأكبر المحرمات في حقل العقيدة والنفس والعرض والمال والعقل، وهي النواميس الأصلية التي يجب الحفاظ عليها في كافة الشرائع الإلهية .

ثم الخمس الأخرى لا تدل على التحريم إلا بصيغة إيجاب أضدادها « وبالوالدين إحساناً - وأوفوا الكيل والميزان بالقسط - وإذا قتلتم فاعدلوا - وبعهد الله أوفوا - وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه » إذاً فالمحرم فيها ترك الإحسان بالوالدين، وبخس المكيال والميزان، وترك العدل في القول، ونقض عهد الله، واتباع سائر السبل ، مما يدل على أن الأمر بالشيء لزامه النهي

عن ضده العام ، وأن هذه تكملة للنواميس الخمس .

وفي كل من هذه النواميس الخمس سلب وإيجاب ، فالسلب في ناموس العقيدة « ألا تشركوه شيئاً » - « ولا تتبعوا السبل » والإيجاب « وبعهد الله أوفوا » - « وبإلوالدين أحساناً » - « وإن هذا صراطي .. » والسلب في ناموس النفس « لا تقتلوا » ومن إيجابه « إذا قتلتم فاعدلوا » والسلب في ناموس العرض « لا تقربوا الفواحش » ومن إيجابه « إذا قتلتم فاعدلوا » والسلب في ناموس المال « لا تقربوا مال اليتيم » وإيجابه « إلا بالتي هي أحسن » و « أوفوا الكيل والميزان » ثم الإيجاب في ناموس العقل هو الإيجاب في النواميس الأربعة الأخرى فـ « ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » .

ثم « لعلكم تذكرون » بعد أقسام ، و « لعلكم تتقون » بعد العاشرة ، تذكرة لإيجاب الواجب وترك المحرم ، وإتقاء عن المحظور في ترك الواجب وفعل المحرم .

مركز تحقيق كتاب تيسير علوم إسلامي

ذلك ، فلهذه الآيات الثلاث موقف عظيم في القرآن العظيم يتطلب الرسول (ص) أن يبايع عليها في قوله : « أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث » (١) .

أجل « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه .. » « فاعلموا أنما السبيل

(١) الدر المنثور ٣: ٥٤ عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله (ص) : « أيكم ... ثم تلا « قل تعالوا ... » ثم قال : فمن وفى بهن فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته ومن أخره إلى الآخرة كان امره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه .

أقول : « كانت عقوبته » بالنسبة للشرك مردودة فإن الله لا يغفر ان يشرك به ، اللهم إلا شركاً كالرثاء .

سبيل واحد جماعه الهدى ومصيره الجنة وأن إبليس إشتري سبلاً متفرقة جماعها الضلالة ومصيرها النار .

ولقد « خط رسول الله (ص) خطأ بيده ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ الآية (١) .

وهكذا نختم السياق الطويل من السورة الذي بدء بقوله تعالى « افغير الله أبتغي حكماً . . » ضمناً بين هذا المبدء وذلك الختام بقضية الحاكمية والتشريع ، فإن الصراط المستقيم كمادة الدعوة هو القرآن العظيم ، وكداعية هو الرسول (ص) ومن يحذو حذو الرسول كالأئمة من عترة الرسول عليهم السلام ، فإنهم السبل إلى رسول الله كما هو السبيل إلى الله ، فالمتخلف عنهم متخلف عن سبيل الله قدر تخلفه فإنهم أبواب علم رسول الله (ص) .

وكما يروى عنه (ص) قوله : « معاشر الناس أنا صراطه المستقيم الذي أمركم باتباعه ثم علي من بعدي ومن ولدي من صلبه أئمة يهدون بالحق وبه يعدلون » (٢) .

(١) المصدر اخرج احمد وعبد بن حميد والنسائي وابن المنذر وابن ابي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : خط . . . رواه مثله عنه (ص) جابر بن عبد الله .

(٢) نور الثقلين ١ : ٧٧٩ في كتاب الاحتجاج للطبرسي باسناده الى الامام محمد بن علي الباقر (ع) عن النبي (ص) حديث طويل وفيه خطبة الغدير وفيها : « معاشر الناس ان الله قد امرني ونهاني وقد امرت علياً ونهيته فعلم الأمر والنهي من ربه عز وجل فاسمعوا لأمره تسلموا واطيعوه تهتدوا وانتهوا لنهيه ترشدوا وصيروا الى مراده ولا تتفرق بكم السبل عن سبيله معاشر الناس انا صراطه المستقيم . . » وفيه تفسير =

ذلك ، ولصراط الله منعة تمنع عن التفرق والإنزلاق والإنحياق ، كما
ولسائر السبل منعة تمنع عن الإنسلاك إلى صراط الله فـ « لا تتبعوا السبل »
المختلفة عن سبيل الله « فتفرق بكم عن سبيله » .

صحيح أن سبيل الله أيضاً سبل ولكنها سبل تنتهي بسلاكها إلى
الصراط حيث الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق : « يا أهل الكتاب قد
جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير
قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من إتبع رضوانه سبيل
السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط
مستقيم » (١٦: ٥) - « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع
المحسنين » (٢٩: ٦٩) ثم المسلك النهائي لهذه السبل : « ويهديهم إلى
صراط مستقيم » .

فأين سبل الظلام التي تتفرق بكم عن سبيله من سبل السلام التي
توصلكم إلى سبيله ؟ .

ذلك ، وفي نظرة أخرى شاملة إلى هذه الآيات الثلاث نجدها تحمل
أحكاماً تشترك فيها كل شرائع الدين ، ومثلث التعبير بـ « وصاكم » فيها قد
يشير إلى ذلك الإشتراك وكما في آية الشورى : « شرع لكم من الدين ما
وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن
أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . . » (١٣: ٤٢) فإن في هذه الوصايا العشر
نجد أصل الدين ككل ، ففيها الحفاظ عليه كأصل .

القمي عن الامام الباقر (ع) في الآية قال : نحن السبل فمن ابى فهذه السبل .
اقول : وفي معناه روايات عدة تعني تفسير الجري والتطبيق على ثاني المصدقين
لداعية الصراط ، وهكذا يجري في العلماء الربانيين العارفين العاملين بكتاب الله
وسنة رسول الله (ص) .

ثم وتذييل الآية الأولى بـ « لعلكم تعقلون » علّه لأن ما تشمله من حرّمات هي قضية أصيلة للفطرة والعقلية الإنسانية غير المعقولة بعقالات الهوى .

وتذييل الثانية بـ « لعلكم تذكرون » يعني تذكّر ما في الفطرة والعقل بتأمل فإن ما تحمله ليست كما الأولى في ظهورها وبهورها ، فقد يحتاج في عقلها بتعبئة العقل بتذكر وتعمل وتأمل .

وتذييل الثالثة بـ « لعلكم تتقون » يعني واقع التقوى الحاصلة بذلك التعقل والتذكر ، إتقاء عما يخالف الفطرة والعقلية الصالحة ، وكل ذلك بذلك الوحي المنيف ، إجتماعاً لمثلث الوحي فطرة وعقلية وشرعة ، والأخيرة هي المكملة لما في الأولين .

فقد يكون الإنسان على صراط التقوى ما دام هو في صراط التعقل والتذكر ، تبنياً للفطرة كأصيل أول ، وللشرعة كأصل آخر ، فبينهما التعقل والتذكر ، عقلاً عن كلا الفطرة والشرعة ، وتذكراً لأحكامهما حسب المستطاع والمقدرة ، فـ « لا نكلف نفساً إلاّ وسعها » .

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٥٤) :

تري ما هو دور « ثم » هنا و « تعالوا أتل » تلاوة قرآنية ليست إلاّ بعد « آتينا موسى الكتاب » ؟ اللائح من « أتل عليكم . . » كما سبقناه أن هذه التلاوة تحمل إجمالاً عن كافة شرائع الدين ، المتلوة على كافة الأمم الرسالية ، وحيث لا يحمل تفصيلها في هذه الخمس إلاّ شريعة التوراة ومن ثم القرآن ، فقد تعني « ثم » تراخي التفصيل في هذين الكتابين عن الإجمال المتلول لهذه العشرة الكاملة .

فـ « ثم » بعد تقرير هذه العشرة من أصول التشريعات المشتركة بين كل

الشرائع « آتينا موسى الكتاب تماماً » دون نقصان كتفصيل أول للردح الزمني الخاص لشرعة التوراة « تماماً على الذي أحسن » الله من إجمال هذه العشر، تماماً على قراره وقراره لموسى ، فهو تفصيل أول تام على ضوء ذلك الإجمال الهام ، و « تماماً على الذي أحسن » محمد (ص) من تلاوة ما حرم عليكم ، و « تماماً على الذي أحسن » موسى من جهاده في رسالته وجهوده و « تماماً على الذي أحسن » من بني اسرائيل في تطبيق هذه النواميس العشرة، كما « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » (١٤٥: ٧) فإن أحسنها هذه العشرة .

و « تماماً على الذي أحسن » هنا تطبيق لما وعد المحسنين من ذي قبل : « وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين » (٥٨: ٢) .

و « تماماً على الذي » هو « أحسن » مما سبقه من كتابات الوحي ، فإن فيها تماماً للنواميس العشرة حسب الحاجات في أدوارها ، ولكن الشرعة التوراتية هي تمام أحسن من التمام في سائر الكتب السابقة عليه .

ذلك وقد تعني « تماماً على الذي أحسن » خماسية الأحسن قضية حذف الفاعل والمتعلق ، فذلك الجمع الخماسي هو تمام على الذي أحسن في أدب اللفظ وحذب المعنى .

فـ « الكتاب » هنا على أية حال يحمل أول تمام لتفصيل النواميس العشرة « تفصيلاً لكل شيء » منها دون إبقاء ، « تفصيلاً » أول كما يناسب الردح الزمني للشرعة التوراتية « وهدى » للعالمين « ورحمة » لهم كما يقتضيه ذلك الدور المحدد « لعلهم بقاء ربهم يؤمنون » : لقاء معرفياً وعبودياً هنا ، فلقاء يوم الحساب للثواب والعقاب ، وفي « لعلهم . . »

تعريض بني اسرائيل حيث أنكروا لقاء الله لحدّ حذفوا آيات القيامة عنها اللهم إلا شذرة مشيرة ! .

ذلك ، وكما نرى الشرعة التوراتية ترتكن على النواميس العشرة مهما وضحت لها فروعاً هي المعنية بـ « وتفصيلاً لكل شيء » وليس الإنجيل شرعة جديدة بعد التوراة اللهم إلا في تحليل ما حرم فيها عقوبة كما مضت « ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم » .

لذلك لا يذكر الإنجيل هنا بعد التوراة في حقل التفصيل ، وكما لم يذكره الجن الذين استمعوا القرآن إذ « قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم » (٤٦ : ٣٠) فإنما يذكر القرآن هنا وهناك دون فصل .

أجل « ثم آتينا موسى الكتاب تماماً . . » إحياء بأن هذا الصراط المستقيم ممتد من ذي قبل في كل رسالات الله ، وأتم شرعة من ذلك الصراط قبل شرعة القرآن هي التوراة ، ثم القرآن تكملة له وتكملة لسائر الشرائع كما يحق ويمكن ، حاملاً في صرحه لبنات الخلود دون زوال ولا اضمحلال :

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١٥٥) :

أفـ « هذا » القرآن « كتاب أنزلناه مبارك » كبركة التوراة دون زيادة عنه ؟ إذا فلا جديد فيه حتى يتبع بعد التوراة ما فيه ! إنه « مبارك » بصورة طليقة تحلق على أرض التكليف جغرافياً وتاريخياً إلى يوم الدين ، فأين مبارك من مبارك ، وليس « لعلكم ترحمون » إلا لذلك المبارك لما انقضى دور الأول ؟ .

وقد « يمثل القرآن » على ما يروى من رسول القرآن حجة للمؤمنين به

العاملين، وحجة على الكافرين به والتاركين ^(١).

لقد أنزل ذلك الكتاب المبارك قطعاً لأية حجة وبينةً طليقةً من الرب
حليقة على كل الطلبات ، حقيقة بالإتباع إلى يوم الدين :

﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ
دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ (١٥٦):

والطائفتان المنزل عليهما الكتاب المفصل بعد إجمال النواميس العشرة
هما اليهود والنصارى ، وهذه دلالة ثالثة قرآنية على أن التورات كتاب شرعة
أحكامية لكلا اليهود والنصارى، كما وهو للعالمين أجمعين حتى زمن نزول
القرآن .

فاختصاص نزول الكتاب المفصل بطائفتين دون نزول ثان على الأميين
وهم قوم لُدّ ليسوا ليُحَنُّوا إلى كتاب أنزل على غيرهم ، ذلك حجة قد تقطع
عذرهم عما هم « ولو جعلناه قرآناً أعجباً لقالوا لولا فصلت آياته أعجبي
وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » (٤١: ٤٤) « ولو نزلناه على بعض
الاعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين » (٢٦: ١٩٨) .

(١) الدر المنثور ٥٦: ٣ - اخرج ابن ابي شيبة وابن الضريس عن ابيه عن جده سمعت
رسول الله (ص) يقول : يمثل القرآن يوم القيامة رجلاً فيؤتى الرجل قد حمله فخالف
أمره فينتثل له خصماً فيقول يا رب حملته إياي فبشس حاملي تعدى حدودي وضيع
فرائضي وركب معصيتي وترك طاعتي فما يزال يقذف عليه بالحجج حتى يقال فشأنك
فيأخذ بيده فما يرسله حتى يكبه على منخره في النار ويؤتى بالرجل الصالح قد كان
حمله وحفظ أمره فينتثل خصماً دونه فيقول يا رب حملته إياي فحفظ حدودي وعمل
بفرائضي واجتنب معصيتي واتبع طاعتي فما يزال يقذف له بالحجج حتى يقال له :
شأنك به فيأخذ بيده فما يرسله حتى يلبسه حلة الإستبرق ويعقد عليه تاج الملك
ويسقيه كأس الخمر .

أقول : هي كما يقول الله « لا غول فيها ولا تأثيم » .

وترى كيف يصدق « أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا » والتوراة شرعة عالمية ؟ ذلك تخيل منهم وكثير هؤلاء الذين يعيشون هذا التخيل رغم نصوص القرآن بأهميته التوراة ، أو اعتذار أن محور الدعوة التوراتية هم طائفتان من قبلنا ، ولغتهم غير لغتنا ، ودعوتها - على أية حال - ما وصلت إلينا « وإن كنا عن دراستهم لغافلين » كيفما كانت الغفلة ، تقصيراً من حملتها حيث لم يبلغوها إلينا أم بلغوها محرفة عن جهات أشرعها .

لا سيما « وإن كنا عن دراستهم » لهذا الكتاب « لغافلين » فقد درسوا الكتاب النازل عليهم صالحة أم طالحة ونحن عنها غافلون إذ لم تصل إلينا من دراستهم شيء إلا إنذار رسالة بتحريفات وتجديفات ، فكيف نكلف بكتاب ما وصلت إلينا دعوته إلا محرفة مزورة لا تكفيها الآن حجة فضلاً عن الغافلين ، وحتى لو كانت غفلتنا معقدة فنحن الآن حيارى إذ حرفوا الكتاب فلا يفيدنا - إذا - كما لا يفيدهم ، فلنذكر بكتاب لا يحمل ما حملته التوراة من تحريفات وتجديفات : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » (١٦: ٤٤) « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (١٦: ٦٤) .

ذلك ، وحتى لو كانت التوراة نازلة علينا كما لهم فواقع التحريف فيه يفرض تجديد الوحي مع جديد استمراره واستقراره واستقطابه كافة المكلفين إلى يوم الدين ، فهاتان حجتان اثنتان ، ثم ثالثة :

﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ (١٥٧) :

«واقسموا بالله» لو لم ينزل عليكم القرآن « لو أنا أنزل علينا الكتاب لكننا

سورة الأنعام / آية ١٥٧ ٣٤٧

أهدى منهم » « واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً » (٤٢: ٣٥) .

ذلك ، ولا تختص تلك الأعذار بالأميين العرب ، المخاطبين الأول بالقرآن ، بل هي تحلق على كافة المكلفين ، لمكان تحرف التوراة فلا تظل حجة على الأجيال ، وأنها تحمل من أحكام مؤقتة لا تتحمل لقضية الخلود ، فإنما يذكر هنا أعذار الأميين لأنهم هم المواجهون الأولون لوحي القرآن ، فلتقطع أعذار الحملة الأولى لهذه الرسالة القرآنية ومن ثم العالمون أجمعون .

ذلك « فقد جاءكم » عرباً وسواهم آية « بينة من ربكم » تحمل كافة البينات : « أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى » ؟ (١٣٣: ٢٠) بينة ليست فوقها بينة « من ربكم » على مدار الزمن الرسالي ككل « وهدى ورحمة » تحملان كل هدى الله ورحماته ، إذاً « فمن أظلم ممن كذب بآيات الله » هذه البينات القاطعات لكل الأعذار « وصدف عنها » منعاً وإعراضاً شديداً مديداً إعراضاً لأنفسهم وإعراضاً لآخرين، حيث الصدف هو المنع والإعراض ، « سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا » أيأ كان وأيان في حقل القرآن « سنجزي » « سوء العذاب » هو دقيقه دون رقيقه ، فإن دقيقه عدل ورقيقه فضل وهم أولاء الأنكاد يستحقون فضلاً وإن في العذاب « بما كانوا يصدفون » ويعرضون .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ

أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي

بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنَتْ

مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا
 مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا لَسْتَ
 مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا
 يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَنْ
 جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾
 قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ
 إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ
 صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾
 لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾
 قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ
 كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَىهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ
 رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾
 وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ
 بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ

الْعِقَابُ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٨﴾

لقد تمت الحجة وحقّت كلمة الله على ناكريها دونما إبقاء لأية عاذرة إلا غادرة حاسرة خاسرة ، فحتى متى ينكرون بينات الله المكرورة المتواترة على أعينهم وأسماعهم فماذا ينتظرون ؟ .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ (١٥٨) :

إستفهامات إنكارية هي في الحق إستفهامات لناكري بينات الله ، هي في ثالث المستحيل ذاتياً أو مصلحياً في صالح الدعوة ، والضلع الأوسط منه هو من المستحيل ذاتياً أن « يأتي ربك » بنفسه إلى هؤلاء الأغباش الأنكاد ليخبرهم بنفسه أنه واحد لا شريك له وأن محمداً (ص) رسوله ، فحتى لو أمكن إثبات ربك إليهم - ولا يمكن إثباته اليك وأنت أفضل رسله - فهل ينحصر تصديقه بإثباته نفسه ، فهلاً تصدقون أنتم أي رسول في تعاملاتكم المتعددة إلا أن يأتيكم المرسل بنفسه ؟ تلك إذا قسمة ضيزى !

وأما تفسير إثبات الرب بإثبات موقف الحساب فلا مجال له هنا وصحيح التعبير عنه وفصيحته « أن يأتي يوم القيامة » ثم وهم ناكروه فكيف هم ناظروه ؟ فإثبات الرب هنا نظرة غالطة للمشرّكين وكما في البقرة : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور » (٢١٠) فهو نظرة رؤية الله كما سألها اليهود : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل . . » (١٠٨ : ٢) .

فمجيء الرب برؤية الجزاء يوم الجزاء حتم لا مرد له وهو مجيء الحساب فالشواب والعقاب ، وإثباته يوم الدنيا بهذه الربوبية مستحيلة

مصلحياً، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل ، ثم إتيانه بذاته مستحيل ذاتياً على أية حال .

وأما « أن تأتيهم الملائكة » رسلاً إليهم ؟ فـ « لو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » (٦: ٩) وقد سبق في قول فصل أن الرسالة الملائكية إلى البشر غير صالحة في كل أبعادها .

أو أن تأتيهم ملائكة مصدقين للرسول : « أو جاء معه ملك » (١١: ١٢) أم « لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً » (٢٥: ٧) ثالثاً منحوس من متطلبات لهم جاهلة .

فروية الملائكة لهم - على أية حال - ممنوعة إلا يوم الموت « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً » (٢٥: ٢٢) « لو ما تأتينا الملائكة إن كنت من الصادقين . ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين » (١٥: ٨) .

وأما أن « يأتي بعض آيات ربك » غير الرسولية ولا الرسالية، فأيات العذاب المزمجر المدمر فتلجأوا إلى الإيمان مخافة البأس ؟ فحينئذ « لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » حيث الإيمان عند رؤية البأس ^(١) كاذب مُلجأ : « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به

(١) نور الثقلين ١: ٧٨٠ في عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا (ع) من العلل بإسناده إلى أبي إبراهيم بن محمد الهمداني قال قلت لأبي الحسن الرضا (ع) لأي علة غرق الله تعالى فرعون وقد آمن به وقرَّبَ بتوحيده ؟ قال : لأنه آمن عند رؤية البأس والإيمان عند رؤية البأس غير مقبول وذلك حكيم الله تعالى ذكره في السلف والخلف قال الله تعالى : فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا « وقال عز وجل : « يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً » .

مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون « (٤٠ : ٨٥) .

ذلك مهما شذ عنه شاذ يؤمن حقاً عند رؤية البأس : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » (١٠ : ٩٨) فهم قد كسبوا في إيمانهم خيراً وكما هنا « أو كسبت في إيمانها خيراً » فالإيمان مكسب وليس غاية ، فكسب الخير في الإيمان هو - فقط - المؤمن للمؤمن ، دون صورة منه بلا سريرة وسيرة ، فالنفس التي آمنت من قبل ولما تكسب في إيمانها خيراً لا ينفعها إيمانها عند رؤية البأس ، كما التي تؤمن عندها دون كسب لخير ، وليس من الخير عمل الإيمان دون إيمان في القلب ، مهما كان إيمان في القلب خيراً وإن لم يلحقه العمل كما يجب ، فـ « خيراً » هو إيمان القلب ، ثم عمل الإيمان ، و « خيراً » دون « الخير » لمحة إلى أن إيماناً ما في القلب كسب في الإيمان ينفع صاحبه عند البأس إذا عمل صالحاً على ضوءه فـ « في إيمانها » دليل على واقع الإيمان دون صورته فقط ودعواه ، فكسب الخير فيه أن يبرز في عمل صالح ما قل منه أو كثر ، حيث التارك لأي من الصالحات ليس إيمانه إلا دعوى فارغة فـ « الرجل يكون مصرأ ولم يعمل عمل الإيمان ثم تجيء الآيات فلا ينفعه إيمانه » ^(١) فالإيمان الراكد غير السكاسب خيراً لحيلولة المعاصي والتوغل فيها لا يفيد صاحبه ^(٢) ، إذ

(١) نور الثقلين ١ : ٧٨٦ في تفسير العياشي عن زرارة وحمزان ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في قوله « يوم يأتي .. » قال : طلوع الشمس من المغرب وخروج الدابة والدجال والرجل يكون مصرأ .

(٢) وفيه عن عمرو بن شمر عن أحدهما عليهما السلام في قوله « أو كسبت في إيمانها خيراً » قال : المؤمن حالت المعاصي بينه وبين إيمانه لكثرة ذنوبه وقلة حسناته فلم يكسب في إيمانه خيراً .

لا توبة له ولا سيما عند بأس الموت : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن » (١٨: ٤) .

والمستفاد من « أو كسبت في إيمانها خيراً » أن الإيمان دون عمل صالح - هو قضيته - لا ينفع صاحبه ، أم هو ليس واقع الإيمان بل هو دعواه حيث الإيمان أيّاً كان يظهر في العمل على قدره : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٨١: ٢) فالعمل الصالح ترجمان الإيمان .

وترى ما هي « بعض آيات ربك »؟ إنها آيات عذاب الإستئصال في دار الدنيا (١) قبل الرجعة أو بعدها .

ثم ما هي بعض آيات ربك هنا وكم هي ؟ إنها بطبيعة الحال للجوءهم إلى إيمان هي من الآيات البينات بعد القرآن ، التي لا تبقي مجالاً للناكرين إلا الإيمان ، تخوفاً من آية تدمرهم أماهيه مما يلجئ إلى إيمان .

فليست هي كل حادثة مكرورة مبرّ الزمن كالطوفانات والبركانات واضرابهما من مكرورات الآيات مما يؤل إلى قضية الطبيعة في مختلف تحولاتها ، بل هي آية تدل الناكرين لوجود الله أو توحيده أم رسالاته على أنه الحق لا ريب فيه ، كرجوع فِرْق من الموتى عن أجداثهم وخروج صاحب الأمر بآياته السماوية والأرضية ، وهو في أصل ظهوره وفصله أكبر آية ، وظهور غرائب من علامات ظهوره ، آيات خارقة العادة كآيات الرسالات رغم انقطاع الرسالات بأسرها ، مما تدل على حقها في حاقها .

(١) نور الثقلين ١: ٧٨٠ في كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين (ع) حديث طويل وفيه معنى الآية « فانما خاطب نبينا (ص) هل ينظر المنافقون والمشركون إلا أن تأتيهم الملائكة فيعابنهم أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يعني بذلك امر ربك والآيات هي العذاب في دار الدنيا كما عذب الأمم السالفة والقرون الخالية .

ولقد تواترت الروايات حول ظهور صاحب الأمر بمثلث آياته قبله ومعه وبعده فهو عجل الله تعالى فرجه الشريف - نفسه - من « بعض آيات ربك » في طول عمره وسعة أمره وتأسيس دولته العالمية الكبرى على ضوء القرآن (١).

ومن الآية « دابة الأرض » كما في النمل : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » (٨٢: ٢٧).

ومنها كأغربها معنى « طلوع الشمس من مغربها » كما تواتر عن النبي (ص) وأئمة أهل بيته عليهم السلام (٢).

ولا تنافي عديد الآيات « بعض آيات ربك » حيث إن بعض المجموع يعصم الواحد منه والعديد ، كما وأن « يوم يأتي » لا يختص بيوم واحد ، فقد يشملان إتيان آيات في أيام .

مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

(١) نور الثقلين ١: ٧٨١ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة عن أبي عبد الله (ع) قال في قول الله عز وجل : « يوم يأتي بعض آيات ربك ... » فقال : الآيات هم الأئمة عليهم السلام والآية المنتظر القائم (ع) فيومئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل « قيامه بالسيف وإن آمنت بمن تقدمه من آباءه عليهم السلام .

(٢) في الدر المنثور ٣: ٥٧ - ٦٣ - أخرج آية « طلوع الشمس من مغربها » عن جماعة عن النبي (ص) منهم أبو سعيد الخدري وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وحذيفة بن اليمان وأبو ذر وابن عباس وعبد الله بن أبي أوفى وصفوان بن عسال ومعوية بن أبي سفيان وعبد الله بن عمرو العاصي وأنس والحسن وأبو أمامة وحذيفة بن السيد ، هؤلاء الأربعة عشر الذين أخرج عنهم عن النبي (ص) أن « طلوع الشمس من مغربها » هذه أو من هذه الآية ، ثم الراوون عن أئمة أهل بيته كأمثال هؤلاء أم يزيدون .

وترى في الحق إن الشمس سوف تطلع من مغربها قبل يوم القيامة ؟
وفي ذلك خراب العالم بتساقط المنظومة الشمسية وسائر المنظومات ! .

فهل إنه مأول بطلوع شمس الإسلام من المغرب حيث يتهافت أهله
في دولة المهدي (ع) إلى تقبل الإسلام قبل سائر المسلمين ، فلذلك
لا تذكر في روايات الظهور حروب آنذاك على صاحب الأمر (ع) إلا من بلاد
إسلامية دون سائر البلاد .

ولكنه يعارض نصوصاً من التواتر عن النبي (ص) أنه في الحق واقع
الطلوع المعاكس للشمس من مغربها ، فليصدق ذلك الطلوع مالم يطلع
معارضاً لثابت العلم والقانون الكوني ، إلا أن تواتر طلوع الشمس من
مغربها يقل عن تواتر رد الشمس وهما بمعنى واحد وخلفية واحدة من
الناحية الكونية ، ومهما لا نصدق رد الشمس لفرض أداء صلاة العصر في
وقتها لما فيه من مناحرات العدالة فضلاً عن العصمة واضرابها ، فقد نصدق
طلوع الشمس من مغربها بوجه مشترك بينهما ، وغاية الأمر هنا أن نقول :
لا ندري هنا دونما هناك .

ومن هذه الآيات المزمجرة فتح يأجوج ومأجوج المصرح به في
القرآن ، وأمثالها من ثابتات الآيات بثابت السنة القدسية (١) .

« قل انتظروا » ممكنة الآيات « إنا منتظرون » « بعض آيات ربك » يوم
الدنيا ، و « منتظرون » إتيان الملائكة يوم الموت ويوم الأخرى .

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٤ : ٧ عن البراء بن عازب قال : كنا نتذكر أمر الساعة إذ
أشرف علينا رسول الله (ص) فقال : ما تتذكرون ؟ قلنا نتذكر أمر الساعة قال : إنها
لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : الدخان ودابة الأرض وخسفاً بالشرق وخسفاً
بالمغرب وخسفاً بجزيرة العرب والدجال وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج
ونزول عيسى ونار تخرج من عدن .

هذه نماذج من آيات ظهور صاحب الأمر ، ولكنها ليست كلها بالتي نمنع عن قبول الإيمان ، اللهم إلا التي هي من آيات البأساء الملجأة إلى الإيمان ، وأما صاحب الأمر نفسه وصوت الحق السائر منه الذي يحمله الأثير إلى كافة العالمين وما أشبه ، فليس الإيمان عندها مرفوضاً محظوراً بل هو مفروض من محبوب .

أجل ، فالآية المخوفة هي التي عندها « لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً » دون الآيات غير المخوفة .

ولأن الأصل في عدم نفع الإيمان أن يكون دعواه الفارغة دون حقيقته ، فقد تعم هذه الآية إلى المخوفة منها غير المخوفة ، إذا فـ بعض آيات ربك « قد تشملهما ، مهما كانت المخوفة هي الأصلية بدورها في سلبية النفع .

فالمؤمنون الحقيقيون عند هذه الآيات ولا سيما المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه ينفعهم إيمانهم الجاد أو المتجدد قضية صادق الإيمان ، وأنه (ع) تملأ به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، والذين محضوا الكفر محضاً من الراجعين بعد الموت أو الكائنين عند ظهور ولي الأمر ، هؤلاء لا ينفعهم إيمانهم لعدم كونه صادقاً كما في الآخرين ، أم مضى دور قبول إيمانهم كالراجعين ، فلإنما المؤمنون الذين يؤمنون حقاً ، والكاسبون في إيمانهم خيراً هم الذين ينفعهم إيمانهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١٥٩) :

« الذين فرقوا دينهم » أيأ كان ، إشراكاً أم توحيداً ، فمهما كان تفريق الدين في الإشراك طبيعته ، فالتفريق لدين التوحيد هو خلاف طبيعته بل وتختلف عن طريقته ، بل هو نقض له ونقص في كيانه فـ : « لا تكونوا من

المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون » (٣٠: ٣٢) « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات » (٣: ١٠٥) فقد « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه . . . » (٤٢: ١٣) .

أجل و « إن الذين فرقوا دينهم » مؤمنين إلى مشركين ومشركين إلى مؤمنين « وكانوا شيعاً » متفرقين منذ كانوا أم منذ مديد من الزمن ، فشرعة الشيع هي التي تنحو منحى تفريق الدين : تفرقاً على تفرق « ظلمات بعضها فوق بعض » ! « لست منهم في شيء » فإنك رسول التوحيد ، فلا أمر لك معهم سلباً أو إيجاباً حيث لا ينحون نحو الوحدة لا نصيب لك منهم إذ لست منهم في شيء من الحق ، حيث لا نصيب من الحق في حقل تفرق الدين وتمزق اليقين ، فليس لك شيء من أمرهم المفرق لمكان المفاصلة التامة بين الدين الموحد والدين المفرق اللهم إلا أن يشوبوا إلى الدين الموحد الحق .

فد إنما أمرهم « الأمر » إلى الله « في يوم الله » ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون « من شيعهم وتفرقهم في دينهم ، إنباءً بحقيقة باطلهم حيث تظهر يوم تبلى السرائر ، وإنباءً بجزاءهم الذي هو في الحق تفرقهم عن الحق وتفرقهم في الحق .

وترى الذين وحدوا دينهم لغير الله طاعة لطاغوت واحد فلم يفرقوه ، اليسوا هم معهم من الموثخين ؟ « فرقوا دينهم » نعم هؤلاء وإياهم حيث فرقوا طاعتهم عن طاعة الله ، فد دينهم « إن كانت طاعة الله فهي تفرقة في طاعة الله بسائر التفرقات ومنها « تؤمن ببعض ونكفر ببعض » كما منها طاعة الله في بعض وطاعة أهواءهم في بعض ، وإن كان طاعة غير الله فهي الممفرقة عن بكرتها عن طاعة الله .

فإن دين الفطرة والعقلية السليمة هو حقاً دين الحق ، والتخلف عن ذلك الدين هو تفرق الدين عن قضية الفطرة والعقلية .

إذاً فهـ فرقوا دينهم « تعم دينهم الطاعة الباطلة حيث فرقوها عن الدين الحق ، ودينهم الفطري إذ فرقوا عنه قضيتـها ، ودينهم الطاعة الحق حين يفرقون فيها فيتفرقون بمختلف التفرقات والتفرقات ، حيث الزوايا الثلاث هي كلها فارغات عن الحق المـرام، وكضابطة ثابتة ليس تفريق الدين محظوراً إلا ما نحى منحي الباطل تقصيراً في الدين الحق، فتفريق الحق عن الباطل فرض على أهل الحق مهما فرق بين أهل الحق المجاهيل ، والتوحيد في الحق فرض مهما حاول المدعون الحق في الفرقة بين أهل الحق .

ولو أن التفريق - ككل - كان محظوراً لكانت الدعوات المفرقة الرسالية بين المؤمنين والكافرين محظورة ، فأنما التفريق القاصد الظالم هو المحظور المحظور .

وبصيغة واحدة التفرق في دين الله كما التفرق عن دين الله هو فراق فارغ عن دين الله فهـ « إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب » (٣: ١٩) « ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » (٣: ٨٥) .

فالمفرقون دينهم عن دين الله ، والمفرقون بين دين الله ، تفريقاً بين الله وبين رسل الله « ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله » (٤: ١٥٠) .

أم تفريقاً بين رسل الله ، أم بين رسالات الله « والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم » (٤: ١٥٢) ، أم اي تفريق يناحر طبيعة دين الله الموحّد وهو الإسلام لله ، هؤلاء كلهم من « الذين فرقوا دينهم » مهما كانوا دركات كما المسلمون لله درجات .

هؤلاء المفرقون دينهم « لست منهم في شيء » من دينهم ، لأنك داعية الوحدة والتوحيد ، وكل شيء منك كرسول موحد يختلف عن كل شيء منهم مفرقين « إنما أمرهم إلى الله » لا إليك حيث نفضت يديك عن بلاغهم المفروض وليس عليك إبلاغهم واقعياً إلى الحق فـ« إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو اعلم بالمهتدين » (٥٦: ٢٨) ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون .

فاليهود والنصارى على تفرقهم أيادي سبا في دينهم هم من الذين فرقوا دينهم عن دين الإسلام وكانوا قبل ذلك شيعاً متفرقة في دينهم ، ومنهم « أهل البدع والأهواء من هذه الأمة لا »^(١) والخوارج^(٢) ، ومن هؤلاء هم الذين فارقوا باب مدينة علم النبي (ص) علياً (ع) وصاروا أحزاباً^(٣) كما منهم الشيعة الذين لم يشايعوه كما يحق فأصبحوا عليه شيناً وشنيعة ، ولا سيما العلماء المتفرقون عن كتاب الله كأصل ، فمفرقون أتباعهم أيادي سبا إذ لم يرتكنوا إلى ركن وثيق ، هو بالإتباع الطليق حقيق ، تاركين للإعتصام بحبل الله ، معتصمين بظنوناتهم ومشكوكات ، معتبرين إياها حججاً وليست إلا لججاً غامرة هامة .

(١) الدر المنثور ٣: ٦٣ - أخرج الحكيم الترمذي وابن جرير والطبراني والشيрази في الألقاب وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي (ص) في قوله : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً » قال : هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة .

(٢) المصدر عن أبي امامة عن رسول الله (ص) أنهم الخوارج ، وفيه عن عمر بن الخطاب أن رسول الله (ص) قال لعائشة يا عائش : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً » هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة يا عائشة إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة أنا منهم بريء وهم مني براء .

(٣) نور الثقلين ١: ٧٨٢ في تفسير القمي عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية قال : فارقوا أمير المؤمنين (ع) وصاروا أحزاباً .

فلو أن علماء الإسلام إتخذوا القرآن نبراسهم الوحيد ومتراسهم الوطيد لم يعيشوا ذلك الاختلاف العارم .

ذلك ، ولكن المحور الاصيل في ذلك التنديد المديد هم المشركون وأهل الكتاب الذين لا يؤمنون فإنهم أولاء هم واجهة الخطاب العتاب من ذي قبل مهما شمل التنديد كل هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً .

فذلك مفرق الطريق بين الرسول (ص) ودينه كله وبين كل المفرقين دينهم ، سواء أكانوا من المشركين الذين تمزقهم أوهام الجاهلية شيعاً ، أو من اليهود والنصارى الذين مزقتهم المذهبيات الشاردة عن شرعة الله ، فأصبحوا ملأً ونحلاً ومعسكرات ودولاً ، أو من غيرهم ما كان وما هو كائن وما سيكون من مذاهب مختلفة متخلفة بين المسلمين .

فالوقفة الأولى لأي مسلم أمام عقيدة غير إسلامية هي المفرقة الأولى عن الإسلام، كما الوقفة أمام أي حكم وسلطة غير إسلامية هي من أهم المفرقات، وبينهما متوسطات من المفرقات ، فإنما الإسلام للجماهير المسلمة هو الالتقاء على محض الإسلام والإسلام المحض والسلام .

فيا ويلاه من أهل الرأي والهوى ، فقد « ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه ، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه ، ثم يجتمع القضاة عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً ، وإلّهم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد ، أفأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فأطاعوه ، أم نهاهم عنه فعصوه ، أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه ، أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى ؟ أن أنزل الله ديناً تاماً فقصر الرسول (ص) عن تبليغه وأداهه والله سبحانه يقول : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » وقال « تبياناً لكل شيء » وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنه لا اختلاف فيه

فقال سبحانه : « ولو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » (١).

ذلك « وآخر قد تسمى عالماً وليس به فاقتبس جهائل من جهال وأضاليل من ضلال ونصب للناس أشراكاً من حبائل غرور وقول زور ، قد حَمَلَ الكتاب على آراءه وعطف الحق على أهواءه . . يقول : أقف عند الشبهات وفيها وقع ويقول : اعتزل البدع وبينها اضطجع » (١٥٤/٨٥).

فه المعروف فيهم ما عرفوا والمنكر عندهم ما أنكروا مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المهمات على آرائهم ، كأن كل امرئ منهم إمام نفسه قد أخذ منها فيما يرى بعرض ثقات وأسباب محكمات » (١٥٧/٨٦).

فقد « خاضوا بحار الفتن وأخذوا بالبدع دون السنن » (٢٧٠/١٥٢).
« فلما افضت (الخلافة) إليّ نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته ، وما استن به النبي (ص) فاقتديته فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما - طلحة والزبير - ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهلته فاستشيركما وإخواني من المسلمين ، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما ، وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة - التسوية بين المسلمين في تقسيم الأموال - فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوى مني ، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله (ص) قد فرغ منه ، فلم أحتج إليكما فيما قد فرغ الله من قسمته وأمضى فيه حكمه ، فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبي ، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر » (٣٩٧/٢٠٣).

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٨: ٦٢ عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبقيّة الجمل حسب أرقام الخطب كلها من نهج البلاغة عنه (ع).

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١٦٠):

« جاء بالحسنة وبالسيدة » دون « أتى أو عمل » تعبير قاصد إلى خاصة معناه ، فقد يأتي بحسنة ثم تُحَبَط، أو يأتي بسيدة ثم تغفر أو تكفّر ، فقد يعني « جاء بالحسنة أو السيدة » جاء ربه في حياة الحساب وبدايتها الحياة البرزخية ، جاء ومعه حسنة أو سيدة ، وهما وصفان لمحذوف معروف بقرينة المقام وهو « العقيدة والعملية » فإنهما الباقيتان مع الإنسان حتى الموت ، وأما النية فلا تبقى حتى يجاء بها ، اللهم إلا النية الحسنة حيث تبقى بفضل الله ، وأما النية السيئة فلا جزاء لها إلا مثلها ^(١) وهو نية السيئة دون واقعها ، وهذه قضية المماثلة بين النية وجزاءها عدلاً : « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها » (٢٧: ١٠) والنية السيئة ليست مما يكسب إلا بعقيدة سيئة أو عملية سيئة وليست النية مكسوبة ، وإنما هي كاسبة لعقيدة أو عملية ، ثم لا مماثلة بين سيئة الجزاء ونية السيئة ، وهنا « هم لا يظلمون » تطارد واقع الجزاء بنية السيئة ، كما تطارد عدم الجزاء أو عدم المماثلة بين الحسنة وجزاءها ، و « عشر أمثالها » فضل فوق العدل ، وآيات عدة مثل « وما تجزون إلا ما كنتم تعملون » (٣٧: ٣٩) تحصر سبب الجزاء بالعمل ، وليست النية عملاً إنما هي نية العمل، كما العمل ليس نية إنما هو

(١) الدر المنثور ٣: ٦٤ - اخرج جماعة عن ابن عباس عن النبي (ص) فيما يروى عن ربه « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له عشر إلى سبعمئة إلى اضعاف كثيرة ومن هم بسيدة ... » وفيه عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : قال الله تعالى : إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة وإذا عملها فاكتبوها بعشر أمثالها وإذا هم بسيدة فلا تكتبوها فان عملها فاكتبوها بمثلها فان تركها فاكتبوها له حسنة ثم قرأ الآية ، أقول : وقد تواتر عن النبي (ص) ان نية السيئة وهمها ليس لها جزاء .

العمل بالنية ، ومهما كانت العقيدة عمل القلب ولكن « ما كنتم تعملون » قد لا تشملها ، فإنما اشتراط العمل بكونه صالحاً كما في « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » يربط صلاح العمل بصالح العقيدة والنية .

وترى كيف يذكر « عشر » و « أمثالها » مذكر ؟

ذلك لأن هناك مضاف محذوف هو « حسنات » تعني حسنات « عشر أمثالها » جزاء فضلاً كما في « مثلها » فإنها « سيئة مثلها » جزاء عدلاً .

وأولى ما نزلت بشأن مزيد الجزاء في الحسنة هي « من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون » (٢٧ : ٨٩) وقد قررت آيتنا « خير منها » بـ « عشر أمثالها » كضابطة تحلق على كل الحسنات (١) ومنها النيات فضلاً على فضل ، و « مثلها » في السيئة باستثناء النيات عدلاً في الجزاء « وهم لا يظلمون » عدلاً وفضلاً ، ومن ثم آيات أخرى تقرر « خير منها » في بعض الموارد كالإلتحاق الصالح بسبعين ضعفاً لـ « عشرة أمثالها » ومزيد ، فـ « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » (٢ : ٢٦١) فلا حذ في فضل الله لمضاعفات الجزاء على الحسنات ، ولكن السيئات فأكثر الجزاء عليها مثلها عملاً بعمل وعلى قدره .

وقد تُعرفنا معرفة الحسنة والسيئة أن ليست أية حسنة لها عشر أمثالها حيث قد يزداد عليها وقد ينقص عنها ، أم و لا تقبل لخروجها عن جادة

(١) نور الثقلين ١ : ٧٨٤ عن المجمع روى عن الصادق (ع) أنه قال : لما نزلت هذه الآية : « من جاء بالحسنة فله خير منها » قال رسول الله (ص) : رب زدني فأنزل الله سبحانه : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » .

سورة الانعام / آية ١٦٠ ٣٦٣

التقوى ، ولا آية سيئة يجزى مثلها فقد ينقص عنها جزاءها أو يعفى عنها بمكفراتها فـ « إن الحسنات يذهبن السيئات » (١١: ١١٤) أم تبدل حسنة « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » (٧٠: ٢٥) .

فهذه ضابطة مقررة كأصل تجري حسب الضوابط الأخرى في تقدير الحسنات والسيئات ، فلو قيل « من جاء بحسنة أو سيئة » لخيّل إلينا تحليل الضابطة دون إستثناء ، كما يخيّل حاكمية العدة فيهما على العدة لهما ، أن حسنة واحدة هي بعشر كيفما كانت ، وسيئة واحدة بواحد كيفما كانت ، فصاحب حسنة صغيرة له عشر وإذا أتى بسيئة كبيرة فله واحد ، وبالموازنة ترجح حسنته على سيئته ! .

ذلك وكما أن « الحسنة والسيئة » هما الأصليتان ، فليست عشر أمثالها لكل عشر حتى لا تنتهي ، إنما هي الحسنة التي جاء بها لا العشر التي يجازى بها ثواباً فإنها جزاء الحسنة وليست نفسها ، فلا تسلسل في « عشر أمثالها » .

ذلك ، وجزاء سيئة بمثلها مربوطة بعدم الغفر بعضاً أو كلاً بمكفرات مسرودة في القرآن ، وأما الحسنة غير الحابطة فلها لأقل تقدير عشر أمثالها ، عقيدة وعملية ونية ، بل وإذا نوى سيئة ثم لم يعملها وهو قادر على العمل فهذه محسوب بحساب الحسنة ^(١) فله - إذا - عشر أمثالها ، وأما إذا تركها إذ لم يقدر عليها فلا ثواب هنا ولا عقاب ^(٢) لأنها خارجة عن « الحسنة والسيئة » معاً .

(١) الدر المنثور ٣: ٦٤ - اخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : من جاء بالحسنة الآية

قال : ذكر لنا ان النبي (ص) كان يقول : إذا همّ العبد بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة وإذا همّ بسيئة ثم عملها كتبت له سيئة .

(٢) الدر المنثور ٣: ٦٤ - اخرج ابو يعلى عن انس ان رسول الله (ص) قال : من همّ =

ومن اللطائف المستفادة من هذه الضابطة ان « من صام ثلاثة ايام من كل شهر فذلك صيام الدهر » ^(١) و « الويل لمن غلبت آحاده

بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشر ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء فان عملها كتبت عليه سيئة .

(١) الدر المنثور ٣: ٦٤ عن ابي ذر قال : قال رسول الله (ص) من صام ثلاثة ايام من كل شهر فذلك صيام الدهر ، فانزل الله تصديق ذلك في كتابه « من جاء بالحسنة فله عشر امثالها » .

أقول هذا وحى الكتاب مصدقاً لوحى السنة حيث الرسول لا يقول إلا بما يوحى ، وفيه عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال أخبر رسول الله (ص) أنني أقول : والله لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت فقلت له قد قلته يا رسول الله قال : فإنك لا تستطيع ذلك صم وافطر وتم وقم وصم من الشهر ثلاثة ايام فإن الحسنة بعشر امثالها وذلك كصيام الدهر .

وفي نور الثقلين ١ : ٧٨٤ في الكافي عن القمي قال امير المؤمنين (ع) : صيام الصبر وثلاثة ايام من كل شهر يذهبن ببلاء الصدر وصيام ثلاثة ايام من كل شهر صيام الدهر ان الله عز وجل يقول : « من جاء بالحسنة فله عشر امثالها » ، ومن اللطائف ما في الدر المنثور ٣: ٦٤ عن ابي مالك الأشعري قال : قال رسول الله (ص) الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة ايام لأن الله تعالى قال : « من جاء بالحسنة فله عشر امثالها » .

و ما في أمالي الطوسي عن امير المؤمنين (ع) الناس في الجمعة على ثلاثة منازل رجل شهدا بانصات وسكوت قبل الامام وذلك كفارة لذنوبه من الجمعة الى الجمعة الثانية وزيادة ثلاثة لقول الله تعالى ، ومنها ما في الدر المنثور ٣: ٦٤ عن ابي ذر قلت يا رسول الله (ص) علمني عملاً يقربني من الجنة ويباعدني من النار ، قال : اذا عملت سيئة فاعمل حسنة فانها عشر امثالها ، قلت يا رسول الله (ص) : لا إله إلا الله من الحسنات ؟ قال : هي احسن الحسنات ، وفيه عن ابن عمر وان النبي (ص) قال : خصلتان لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلا دخل الجنة هما يسير ومن يعمل بهما قليل يسبح الله دبر كل صلاة عشراً ويحمد عشراً ويكبر عشراً فذلك خمسون ومائة .

سورة الانعام / آية ١٦٠ ٣٦٥
أعشاره (١) .

ذلك ، ولكن « إنما يتقبل الله من المتقين » فمن يسرق مالاً مرة ثم يقسمه على من يشاء ليس إنفاقه لكلٍ يُحسب عشراً ومسرقة واحدة ، بل وإنفاقه سيئة على سيئة .

وكما الحسنات درجات فالسيئات أيضاً دركات ، ولا تُقابَل السيئة بواحدة الحسنة بعشر أمثالها إلا في موازنة بينهما ، فليس من يزني مرة ثم

باللسان واللف وخمسمائة في الميزان ويكبر أربعاً وثلاثين إذا أخذ مضجعه ويحمد ثلاثاً وثلاثين ويسبح ثلاثاً وثلاثين فذلك مائة باللسان واللف في الميزان وإيكم يعمل في اليوم واللييلة الفين وخمسمائة سيئة .

(١) تفسير الفخر الرازي ٩: ١٤ روى ابو ذر ان النبي (ص) قال : ان الله تعالى قال : الحسنة عشر أو أزيد والسيئة واحدة او عفو فالويل لمن غلب آحاده وأعشاره .

وفي نور الثقلين ١ : ٧٨٤ ومعاني الأخبار عن هشام بن سالم عن ابي عبد الله (ع) قال : كان علي بن الحسين عليهما السلام يقول : ويل لمن غلبت آحاده فقلت له وكيف هذا ؟ فقال : اما سمعت الله عز وجل يقول : « من جاء ... » فالحسنة الواحدة اذا عملها كتبت له عشراً والسيئة الواحدة اذا عملها كتبت له واحدة فنعوذ بالله ممن يركب في يوم واحد عشر سيئات ولا يكون له حسنة واحدة فتغلب حسناته سيئاته .

وفيه عن تفسير القمي عن ابي عبد الله (ع) قال : لما اعطى الله تعالى ابليس ما اعطاه من القوة قال آدم (ع) يا رب سلطت ابليس على ولدي أجريته فيهم مجرى الدم في العروق واعطيته ما اعطيته فمالي ولولدي ؟ فقال : لك ولولدك السيئة بواحدة والحسنة بعشر أمثالها قال رب زدني قال : أغفر ولا ابالي ، قال : حسبي ، اقول : لا ابالي هنا تعني ما لم يناف العدل فاغفر ما هو قضية الفضل فوق العدل لا دون العدل .

وفيه في الكافي عن ابي جعفر عليهما السلام قال : من نوى الصوم ثم دخل على اخيه فسأله ان يفطر عنده فليفطر وليدخل عليه السرور فانه يحسب له بذلك اليوم عشرة أيام وهو قوله تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر امثالها » .

يكبر الله مرة تزيد حسنته على سيئته، ثمين الزنا في ميزان السيئات من لفظة التكبير في ميزان الحسنات ، فقد لا توازي مائة حسنة سيئة واحدة فـ « كل شيء عنده بمقدار » ، « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

فطالما الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة وإلى ألف ألف (١) كذلك قد تكون سيئة واحدة وهي بواحدة أثقل في الميزان من عشرات الحسنات .

وطالما يزيد عديد الجزاء على الحسنة أضعافاً عشرة على السيئة ، ولكن كل بحسابه وعلى قدر ثقله دونما فوضى جزاف .

أترى - بعد - أن عشرًا من التكبيرات توازي فرية واحدة على الله ورسوله ، وهذه بواحدة وتلك بعشرة؟! كلاً ، إنما يحاسب كل على قدره عُدّة مهما اختلفت العُدّة أصلاً وجزاءً ، فليست المماثلة بين السيئة وجزائها إلا بمعنى الجزاء الوفاق عديداً ومديداً ، فقد يجزى على سيئة واحدة طالت ساعة في عشرات من السنين اعتباراً بثقل السيئة في مديدها رغم وحدتها في عديدها ، أم يجزى على سيئة واحدة طالت شهراً في ساعة واحدة ، فليست « مثلها » بمماثلة الزمان إنما هي مماثلة الثقل في الميزان ، دون الحسنة التي يجازى بها عشر أضعافها .

وأما الخلود المؤبد لأهله ، بأن الأبدية في العذاب ليست بمماثلة للسيئة المحدودة بعديدها ومديدها ، فقد نعتقد في تلك الأبدية حسب البراهين القاطعة أن لها نهاية ، فلا تعني الأبدية لأهل النار إلا أنهم يعيشونها ما دامت مشتعلة كما يستحقون ، ثم يأتي يوم لا نار فيه ولا أهل نار قضية

(١) الدر المنثور ٣: ٦٥ - أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ص) كل حسنة يعملها العبد المسلم بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف « وفيه عنه قال : قال رسول الله (ص) : إن الله ليعطي بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة ثم قرأ : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » .

سورة الأنعام / آية ١٦١ ٣٦٧

أصل المماثلة بين السيئة وجزاءها ، حيث لا يعذبون إلا محدوداً بحدود السيئة ، محدداً بحد العدل جزاء وفاقاً « وهم لا يظلمون » .

فمن المماثلات ما هي معروفة لدينا ومنها غير معروفة حيث نجهل منديد السيئة مهما عرفنا عديدها ، فالأحكام الجزائية في شرعة الله وفي يوم الجزاء ليست لتخطئ ضابطة الجزاء الوفاق و « جزاء سيئة مثلها » حيث المماثلة في الإستحقاق هي قضية العدل ونص القرآن ، وذلك هو الصراط المستقيم :

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٦١) :

« قل » إبرازاً باللسان ككامن الجنان ، وإبرازاً بالأركان ، بروزاً في مثلث القول والحال والفعال « إني هداني ربي إلى صراط مستقيم » وهو صراط المنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، ولست فقط مهدياً إلى صراط مستقيم ، بل و « إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم » لأعلى قممه ، حيث السالكون فيه درجات ، فالسلوك فيه أيضاً درجات مهما كان الصراط المستقيم واحداً لا عوج له « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

وقد وصف « صراط مستقيم » هنا بـ « دِينًا قِيمًا » هو إما مخفف « قياماً » كما يقال ، فالصراط المستقيم في العبودية هو الطاعة القيام ، قائمة على مدار الزمن الرسالي ، مقيمة للميتات في طاعة غير الله إلى حياة طاعة الله ، ففيه - إذاً - كافة القوامات والقيامات والقيم الصالحة أكمل ما يمكن وجاه الله تعالى كما يحب ويرضى .

فـ « قِيمًا » وهي القيام تحلق على كل قوامات الدين وقياماته وقياماته وإقاماته ، من إقامة الوجه لدين الفطرة : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت

الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون « (٣٠: ٣٠) » فأقم وجهك للدين القيم « (٤٣: ٣٠) » والقيام لله : « وقوموا لله قانتين » (٢٣٨: ٢) وإقامة الدين : « أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (١٣: ٤٢) والإستقامة فيه « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة » (٣٠: ٤١) « واستقم كما أمرت » (١٥: ٤٢) « إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه » (٦: ٤١) .

أم « قيماً » جمع « القيمة » أن ذلك الصراط المستقيم دينٌ يجمع في نفسه كافة القيم الصالحة للإنسان وجاء الرب ووجه كافة الحيوانات البالغة الإنسانية ، وهذا هو الأظهر من مخفف القيام ، فإنه في نفسه خفيف لا يحتاج إلى تخفيف وكما يذكر « قيماً للناس » ولا يصح مثل هذا التخفيف في موضع اللبس كما هنا ، فهو - إذاً - « ديناً قيماً » تجمع كافة القيم في نفسه دون إبقاء ، ولا ضمير في توصيف مفرد الدين بجمع القيم حيث الدين هو في المعنى جمعية القيم ، وتعاكسهما « هم العدو » اعتباراً بوحدة العداوة في جمعيتهم .

إذا فدين القرآن دين قيم حيث يضم في دفتيه كافة القيم القيمة في توجيهاته دون إفراط ولا تفريط ، فإن فيه تبيان كل شيء يحتاجه المكلفون إلى يوم الدين .

« ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » وهذه الملة هي ملة التوحيد ، فتوحيد الطاعة والطاعة التوحيدية عبارة أخرى عن « ديناً قيماً » وكل القيم الصالحة تتبنى قيم التوحيد وهو ملة إبراهيم حنيفاً .

وطالما الملة التوحيدية درجات ولكنها تتوحد في « صراط مستقيم » وإن كان سالكوه درجات ، فهدي محمد (ص) إلى ذلك الصراط لا يعني إلا أصل سلوكه فيه ، دون القمة السلوكية في ملة التوحيد الخاصة

ذلك ، فقد تعني تكريس كلِّ الإمكانات في كافة الواجهات في مربع الصلاة والنسك والحياة والممات « لله رب العالمين » إضافة إلى الإنشاء أن ذلك كله لله بقدرته الطليقة :

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١٦٣):

« لا شريك له » في صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي « وبذلك » المربع من كيان التسليم « أمرت » حيث أمرني ربي « وأنا أول المسلمين » بين كل من أسلم ويسلم لرب العالمين : « قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين. وأمرت لأن أكون أول المسلمين » (١٢: ٣٩).

إذاً فمحمد (ص) « أول المسلمين » على الإطلاق فيما أمر في مثلث الزمان ، أولية طليقة في كيان الإسلام دون زمانه أو مكانه حيث سبقه مسلمون كثير .

ذلك ، وكما لا نجد أول المسلمين في القرآن إلا هو كما هنا وفي آية الزمر ، فلا نجد في نوح إلا « وأمرت أن أكون من المسلمين » (٧٢: ١٠) وفي إبراهيم « أسلمت لرب العالمين » (١٣١: ٢) و « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك .. » (١٢٨: ٢) حيث يعني المعصومين الأربعة عشر في هذه الأمة وقد فضلوا عليه وعلى أضرابه فضلاً عمن دونه بأنه « أول المسلمين » كما أنه أول العابدين « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » (٨١: ٤٣) وترى « قل .. » هذا يخص الرسول (ص) وذويه المعصومين عليهم السلام فحسب أم هي للمسلمين عامة ؟

ذلك كله للمسلمين عامة كمسؤولية هامة لهم كلهم ، اللهم إلا « وأنا أول المسلمين » حيث الأولية الزمانية لا تناسب أيّاً منهم ، وبأحرى الرتبة حيث سبقهم أولون كثير ، وفوق الكل نبينا (ص) المخصوص به ذلك المحتد القمة ، السامقة العالية الغالية التي لا تسامى أو توازى ، وهكذا

نفسر ما يروى عنه (ص) « بل للمسلمين عامة » في جواب الصديقة الطاهرة الزهراء سلام الله عليها (١) .

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٦٤) :

أنا محمد (ص) وقد رباني ربي أفضل من كافة المربوبين إذا ف:
« أغير الله أبني رباً وهو رب كل شيء » فعلي أن أبغيه رباً قبل كل شيء
كما مع كل شيء ولكنه أفضل من كل شيء ، ولا ينفعني أن يعبدني كل
شيء وأنا تارك ، إذ « ولا تكسب كل نفس إلا عليها » فلو أن كل شيء ترك
ربوبيته إلى ما سواه وأنا تارك كل شيء سواه ف« لا تكسب كل نفس إلا
عليها » دون من سواها « ولا تزر وازرة وزر أخرى » كضابطة ثابتة في كل
الحقول ، حيث لا تحمل حاملة حمل أخرى ، فلا يخفف أحد عن أحد
ثقلًا بأن يحمله عنه إذ لا يشاطره حملاً ، لأن كل إنسان في ذلك اليوم
العصيب مشغول بنفسه ومقروح أو مقروح بحمله ، وأما الشفاعة فليست
هي من حقل الحمل لأثقال الآخرين ، بل هي التماس من الله أن يعفو
عمن يشاء ويرضى « ولا يشفعون إلا لمن إرتضى » .

« ثم إلى ربكم مرجعكم » فيما عبدتم من مختلف المعبودين « فينبئكم
بما كنتم فيه تختلفون » إنباء علمياً بعدما تجاهلتم ، وإراءة لما جهلتهم ،

(١) الدر المنثور ٣: ٦٦ - اخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله (ص) يا فاطمة قومي فاشهدي اضحيثك فانه يغفر لك بأول قطرة تقطرين دمها كل ذنب عملته وقولي : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين « قلت : يا رسول الله (ص) هذا لك ولأهل بيتك خاصة فأهل ذلك أنتم ام للمسلمين عامة ؟ قال : بل للمسلمين عامة .

وتحقيقاً لواقع ما بغيتم وابتغيتم من دون الله .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٦٥):

« جعلكم » أنتم المكلفين ككل « خلائف » يخلف بعضكم بعضاً في « الأرض » : « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره .. » (٣٩: ٣٥) : « وأذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح .. » (٦٩: ٧) : « وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا » (٧٣: ١٠) .

ذلك « ورفع بعضكم فوق بعض درجات » في القابلية والفاعلية العقلية والعلمية والبدنية والإقتصادية أماهيه من تفاضلات خلقية أم على ضوء المساعي والاستحقاقات « ليبلوكم فيما آتاكم » حيث الوجد وسواه بلية في حقل المسؤولية تطبيقاً وتحليلاً فيها « إن ربك سريع العقاب » في موضع النكال والنقمة « وإنه لغفور رحيم » في موضع العفو والرحمة « فلتنظر نفس ما قدمت لغد » .

ذلك ، وهنا « خلائف الأرض » تعم خلافة النسل الأخير من الإنسان خليفة للأنسال المنقرضة منه وكما « قال ربك إني جاعل في الأرض خليفة » ثم خلافة كل قرن عن قرن وقرون قبله ، وخلافة عمّن تبقى مع نوح عن الذين غرقوا ، ومن ثم خلافة كل أمة رسالية عن أمة قبلها ، « ورفع بعضكم فوق بعض درجات » وتلك الخلافة في مربعها وهذا الرفع درجات « ليبلوكم فيما آتاكم » من قوة وشرعة، وقد اختصت الشرعة بما آتاكم في « ... لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٤٨: ٥) .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
أممية الدواب كما الانسان في كل شيء إلا .. هم يحشرون كما نُحشر ويحاسبون كما نحاسب وكيف ؟	٢٢-٨
حدود علم الغيب للرسول على ضوء « ولا اعلم الغيب »	٤٠-٣٣
سنة الرسول (ص) مع فقراء المؤمنين ؟	٤٧-٤١
« ليقولوا درست » وأنى وأين ؟	٤٩-٤٧
ما هي مفاتيح الغيب ؟ وهل لغير الله منها أي نصيب ؟	٦٣-٥٧
النوم أخ الموت حيث « يتوفاكم بالليل .. »	٦٨-٦٥
كيف « ويرسل عليكم حفظة » ؟ وهو الحفيظ !	٧٠-٦٨
عذابات موعودة على الأمة الإسلامية ؟	٧٧-٧٣
حكم القعود مع الخائضين في آيات الله وكل العصاة	٨٦-٧٩
احتجاجات ابراهيمية بأفولات كونية	١٢٠-٩٦
كيف « فبهذا هم اقتده » وهو اعلى منهم وأنبل ؟	١٢٩-١٢٨
« لتتذرا من القرى ومن حولها » تعني كل ربوع الكون المسؤول	١٤٣-١٣٧
ادعاءات خاوية حول الوحي	١٤٩-١٤٣
ما هو « فمستقر ومستودع » ؟	١٦٩-١٦٤
« أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ » كما كان لمريم ولد ولم يكن لها صاحب ! ولكن ..	١٧٧-١٧٣
ما هو حدود « خالق كل شيء » ؟ والشر والعصيان شيء !	١٨٣-١٧٧
« لا تدركه الأبصار » في قول فصل ، والبصائر الربانية	٢٠٠-١٨٣

حكم الاستسباب في مختلف المجالات	٣٠٦ - ٢١٥
« قل انما الآيات عند الله » تحصر الآيات الرسولية والرسالية بالله	٣١٦ - ٢٢٠
« جعلنا لكل نبي عدوا .. » ؟	٢٢٥ - ٢٣٤
« تمت كلمت ربك .. » وأبعادها	٢٣٦ - ٢٣٤
« احكام ذكر الاسم على الذبائح »	٢٤٣ - ٢٥٤
كيف « جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها ليذكروا فيها » ؟	٢٥٩ - ٢٦٢
هل ان اختلاف الآيات رسولية ورسالية دليل نقصها أو نقضها ؟	٢٦٢ - ٢٦٦
شرح الصدور وضيقتها	٢٦٦ - ٢٧٣
نوعية رسل الأنس والجن وهل لكل رسل ؟	٢٧٩ - ٢٨٥
الزكاة الواجبة تتعلق بكل الأموال دونما استثناء	٣٠١ - ٣٠٩
هل الدم غير المسفوح حرام كما المسفوح ؟	٣١٣ - ٣١٨
النواميس المشتركة بين الشرائع	٣٢٨ - ٣٣٧
الذين فرقوا دينهم ؟	٣٥٥ - ٣٦٠
تضاعف الحسنات وحدودها أمام السيئات	٣٦١ - ٣٦٦

